د. رأفت عبد الحميد

الدولة والكنيسة

٢

الوثنية والمسيحية

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

Bibliotheca Alexandrina
0111446

الدولة . . والكنيسة

الجزء الثانى

الجزء الثاني

الدولة .. والكنيسة

الوثنية والمسيحية

د. رأفت عبد الحميد

الناشـــر

دار قبـــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــاب : الدولة والكنيسة
المــؤلـــف : د. رأفت عبدالحميد
رقـم الإيـداع : ٩٩/١١٩٩٢
الترقيـم الدولى : ISBN
977-303-190-X
تاريخ النشـــر: ٢٠٠٠م
حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة
النـاشــــــر : **دار قباء للطباعة و النشر والتوزيع (عبده غريب)**
شركة مساهمة مصرية
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج امون - الدور الأول - شقة ١
☎ ٢٤٦٢٥٦٢ - فاكس / ٢٤٧٤٠٣٨
التـــــوزيـع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ : ١٢٢ (الفجالة)
المــطـــابــع : مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)
☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

رئيس مجلس الإدارة / **أحمد غريب**

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

سنوات طوال مضت منذ صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب، شغلت فيها بعدد من البحوث التى نشرت تباعاً حول عدد من القضايا البيزنطية والحروب الصليبية، فلما فرغت منها نسبياً آليت على نفسى أن أعود من جديد إلى " الدولة والكنيسة "، وشجعنى على ذلك كثير من أساتذتى وزملائى مستحثين إياى على ضرورة إخراج هذه المجموعة من جديد وأهمية استكمال الأجزاء الأخرى التى لم تصدر بعد . ووجدت نفسى أمام أمرين، إما أن أتفرغ لكتابة ما بقى من أجزاء موسوعة "الدولة والكنيسة" وخاصة " الجزء الخامس " الذى أعكف عليه منذ زمن ليس بالقصير، وهو " عقدة " هذه الموسوعة، وإما أن أعيد من جديد إصدار ما كان قد صدر من قبل منها، وأدركت أن اختيار هذا الأمر الأخير هو الأقرب إلى الصواب وتأكد لى هذا بعد أن علمت أن الطبعة الأخيرة قد نفدت، وأن المكتبة العربية فى حاجة إلى هذا التسلسل المنطقى .

هكذا عدت ثانية إلى مراجعة " الجزء الثانى " من الدولة والكنيسة، وأضفت إليه الكثير الذى خلت منه الطبعتان السابقتان، وهى إضافات يجدها القارئ واضحة تماماً فى معظم صفحات الكتاب، وهى حصيلة قراءات عديدة خلال هذه السنوات الماضية .

وقد آثرت أن أختار " عنواناً إضافياً " لكل جزء من هذه المجموعة غير الذى كان يسمى به فى الطبعات السابقة، تحت العنوان الرئيسى للموسوعة أعنى " الدولة والكنيسة "، وهذه " التسميات " الإضافية الجديدة تتفق تماماً مع الإضافات التى أدخلت على جوهر الكتاب، والأفكار الجديدة التى طرحت فيه، وطبيعة الموضوع نفسه من الناحية التاريخية .

ومن الجدير بالذكر أن موضوع هذا الكتاب يعالج التجربة الأولى فى الاحتكاك بين الوثنية والمسيحية، وأن الإمبراطور قسطنطين العظيم يمثل مرحلة الانتقال بين هذه وتلك، وقد أدار القضية بذكاء سياسى ومهارة عالية، كانت الأنموذج الذى ود كثير من خلفائه لو اتبعوه، فكان منهم من أفلح، ومنهم من ضل به الطريق .

ذلك مبلغى من العلم، فإذا أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسى .

رأفت عبد الحميد

القاهرة ١٩٩٩

الفاتحة

تقتصر معظم الدراسات التاريخية للدولة البيزنطية على الناحيتين السياسية والعسكرية، وقد يقترب بعضها على استحياء من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية. أما العلاقة بين الدولة والكنيسة فى دراسة عميقة مستفيضة، فليس لها عند الدارسين نصيب.

وإذا كانت العصور الوسطى قد حملت اسم "عصر الإيمان"، فإن بيزنطة بصفة خاصة تعتبر تجسيدا واقعيا لهذه الحقيقة، لتداخل الخطين الدينى والدنيوى فى كل أمر من أمور الحياة، وتغلغل المسائل العقيدية فى الشئون السياسية والأحوال الاقتصادية والنواحى الاجتماعية، وتأثيرها المباشر على الفنون والآداب والألعاب الرياضية.

وقد عبر عن ذلك المؤرخ نورمان بينز Baynes فى كتابه The Byzantine Empire بقوله: "... كانت الهوايات والنزعات دينية، وكانت الأمور من سياسية واجتماعية تلبس ثوبا دينيا. لقد كان البيزنطى يعيش فى عالم تملأه وتسيطر عليه القوى الخفية. فكانت عطلاته أعياداً دينية، وألعابه فى الملعب تستهل بتراتيل، وعقوده التجارية توسم بعلامة الصليب، أو تحتوى على ابتهالات للثالوث المقدس، وإذا أراد أن يستخير الله فى شىء لم يفعل ذلك إلا عن طريق النساك أو الرؤى التى تمثل فيها القديسون الأموات. وكان يتخذ من التمائم تعاويذ له، ويرى فى الغبار المحتوى على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس مات على عمود، أنجع دواء. وكانت حروبه مقدسة، وإمبراطوره خليفة لله فى أرضه، وكل حادثة مروعة فى الطبيعة، فهى إما نذير يثنيه أو بشير يحفزه. لقد ثار الجيش مرة يطلب إلى الإمبراطور قسطنطين الرابع Constantinus IV (٦٦٨ - ٦٨٠) أن يشرك فى الحكم معه أخويه هرقل Heraclius وتيبريوس Tiberius، ولما سألهم الإمبراطور لم يريدون ذلك، أجابوه قائلين: "لأننا نؤمن بالثالوث، فلنتوج أباطرة ثلاثة" !!

ولم تكن المسألة العقيدية تشغل فكر رجال الدين أو الساسة أو الطبقة المثقفة فحسب، بل شارك فيها بالوعى حينا وباللاوعى أحايين، الأباطرة ودوائر القصر ودور الحكومة والجيش وفرق المضمار ورجل الشارع، لدينا على ذلك ماكتبه شاهد عيان فى النصف الثانى من القرن الرابع، هو اللاهوتى الكبادوكى الشهير، جريجورى أسقف نيسا Gregorius Nysaeus حيث يقول: "لقد امتلأ كل شىء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم، وازدحمت بهم الطرقات والأسواق والأزقة. فإذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمناً لشىء، فلسفوا لى الإجابة حول المولود والمخلوق، وإذا ما رغبت فى الوقوف على ثمن الخبز، أجابنى البائع بأن الآب أعظم من الابن، وإذا ما بحثت عما إذا كان حمامى قد أعد، جاءتنى الإجابة تقول إن الابن خلق من العدم".

وهذا القول يوضح إلى أى حد كان إنسان تلك العصور مهتماً بالعقيدة، مشغولا بالمسائل الاسخاتولوجية. وقد لخص مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس، سقراط Socrates هذا الأمر بقوله إن من الصعب على إنسان أن يرسم خطاً فاصلاً بين أمور الدنيا وشئون الدين، "فإذا ما اضطربت أمور الدولة، بدت شئون الكنيسة أشد تعقيدا".

ومنذ بواكير القرن الرابع، هلل شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس Eusebius أسقف قيسارية Caesarea فلسطين، لهذا التزاوج بين الدولة والكنيسة، وعده نبوءة الكتاب المقدس للمسيحية عقيدة وكنيسة.

وقد جاء هذا نتيجة طبيعية لتحول الدولة عن سياسة العداء التقليدى الذى مارسته إزاء المسيحية طوال القرون الثلاثة الأولى للميلاد، إلى الاعتراف بها ديانة شرعية religio licita فى أوائل القرن الرابع، ثم جعلت منها العقيدة الرسمية لها فى نهايته. وأدى هذا بالتالى إلى ازدياد اهتمام الدولة بما يجرى بين جماعة المسيحيين وأنفسهم، وأضحت تقيم وزنا لكل ما يقع فى الكنيسة من خلافات

لاهوتية أو تنظيمية، قد تؤدى إلى هرطقة وإنشقاق، يؤثر بدوره على الإمبراطورية بعد أن غدت المسيحية لها دين وحدة..

ويعد الإمبراطور قسطنطين الأول Constantinus (٣٠٦- ٣٣٧) مسئولا بصورة مباشرة عن كل هذه النتائج. فعلى الرغم من أنه لم يكن أول أباطرة الرومان الذين اتبعوا سياسة التسامح مع المسيحيين، إلا أنه كان الوحيد من بينهم، الذى تابع بشكل جدى تنفيذ سياسة المسامحة، وتخطى هذه المرحلة إلى مد يد العون للكنيسة، ثم الإغداق عليها حتى أغرقها فى فيض أنعمه. وكان طبيعيا أن تقبل الكنيسة عليه، وأن تفتح له بالحب ذراعيها، مسبحة بحمده، مقدرة حسن الصنيع، رافعة - إياه مكاناً علياً إلى سمت الرسل والقديسين !

لكن قسطنطين وجد نفسه دون أن يدرى وقد غرق هو الآخر فى خضم هذه المعارك الجدلية حول المسألة الكريستولوجية، وكان عليه بعد إذ جعل من نفسه "مبعوث الرب" وحامى الكنيسة، وقد جاءته هذه تعرض عليه خبىء صراعاتها من حول "الكلمة" أو من أجل النظام الكنسى، أن يفصل بنفسه فى هذه المسائل الشائكة. فدعا إلى عقد المجامع الدينية، المحلية والمسكونية، وترأس جلساتها، وأدار مناقشاتها، وصدق على قراراتها، وتدخل فى تعيين الأساقفة وعزلهم، بل وشارك فى صياغة العقيدة على النحو الذى غدت به بعد قاعدة الإيمان الأرثوذكسى. وبهذا وضع قسطنطين لخلفائه سنة ساروا عليها وتمسكوا بها، ولا نجد إمبراطوراً واحداً منذ ذلك الزمان، حتى ورث العثمانيون القسطنطينية ومن عليها فى منتصف القرن الخامس عشر، يعلم من أمر اللاهوت شيئاً أو لا يعلم، إلا وقد ساق قاربه فى هذا العباب. وهكذا ارتبطت أمور الدولة بشئون الكنيسة، وهذه بتلك، حتى أصبح لا يمكننا، على حد تعبير سقراط، فهم أحدهما دون الآخر.

ومن هنا كان من الصعب، بل من المستحيل على أى باحث، أن يسبر أغوار التاريخ البيزنطى فى حركته السياسية، وتحركاته العسكرية، ونشاطه

الاقتصادى، ومظاهره الاجتماعية، وصوره الفنية، وأشكاله الأدبية، وأنشطته الرياضية، دون أن يمعن الفكر بعمق فى الجوانب الدينية والصراعات العقيدية والشئون الكنسية.

ولما كانت المكتبة العربية تكاد تفتقر إلى هذا النوع من الدراسة التاريخية المتخصصة، التى تعتمد فى جوهرها على المصادر الأصلية، فقد بدأت رحلتى من فترة تقترب من عشر سنوات، لتتبع تاريخ العلاقة بين الدولة والكنيسة، وكان بدهيا أن يحظى الإمبراطور قسطنطين الذى وضع أسس تلك العلاقة، وحدد معالمها، بهذا الكتاب من هذه الدراسة.

ومما يجدر ذكره أن طبيعة العلاقة بين الدولة والكنيسة فى العالم البيزنطى، تختلف عن مثيلتها فى الغرب الأوروبى. فقد غدت الكنيسة الشرقية بفعل تدخل الأباطرة فى أدق شئونها، دائرة من دوائر الحكومة، وتمثل هذا بصورة واضحة فى القسطنطينية، حيث أمسى أسقفها موظفاً كبيراً فى البلاط الإمبراطورى، ولم نشهد مجابهة عنيفة، إلا فيما ندر، بين بطريرك العاصمة والإمبراطور طيلة أحد عشر قرناً من الزمان هى عمر الإمبراطورية البيزنطية، وإن كان قد تكفل بذلك الكراسى الأسقفية الأخرى فى الولايات خاصة أسقفيتى الإسكندرية وأنطاكية اللتين ناوأتا بصورة مستمرة، بل وتحدينا أحياناً كثيرة نفوذ كنيسة القسطنطينية ومن ورائه سلطان الأباطرة.

أما فى الغرب فقد كان الحال على غير ذلك تماماً، فقد تزعمت كنيسة روما عالم المسيحية هناك، وأضحى البابا يمثل الزعامة الروحية على كل الكنائس، خاصة بعد أن فقدت ميلانو أشهر أساقفتها فى القرن الرابع، القديس أمبروز Ambrosius وساعد على ذلك تيار الأحداث، منذ هجر الأباطرة روما واتجهوا إلى نيقوميديا Nicomedia ثم القسطنطينية فابتعدت روما بذلك عن التأثير المباشر للإمبراطور. بل إن أباطرة النصف الغربى حتى سنة ٤٧٦ كانوا يتخذون من رافنا

Ravenna أو ميلانو Milano (Mediolanum) مستقراً ومقاماً. وبهذا وجد البابا نفسه سيد روما بلا منازع، وسرعان ما ضم إلى سلطاته الروحية سلطة زمنية عندما خرج يفاوض زعماء الجرمان الذين أحدقوا بروما فى القرن الخامس.

نتيجة لذلك، وبسبب انشغال أباطرة بيزنطة فى الخلافات العقيدية التى سعر لهيب جدالها فى النصف الشرقى من الإمبراطورية، وتصديهم المستمر لجماعات الجرمان على الدانوب وفى البلقان، والفرس على الفرات، ثم المسلمين من بعد فى سوريا وآسيا الصغرى ومصر وشمال أفريقيا والبحر المتوسط، ومن جراء التباعد المذهبى العقيدى بين كنيستى روما والقسطنطينية، امتداداً للتباين الفكرى بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى، ازداد نفوذ البابوية وسلطانها. ودعم من هذا النفوذ تلك الشخصيات القوية التى اعتلت عرشها، ليو الأول Leo I (٤٤٠ – ٤٦١) وجلازيوس الأول Gelasius (٤٩٢ – ٤٩٦) وجريجورى الأول Gregorius (٥٩٠ – ٦٠٤) وليو التاسع Leo IX (١٠٤٩ – ١٠٥٤) وجريجورى السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥) وانوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ – ١٢١٦). يضاف إلى ذلك أن حركة الإصلاح الديرانية الكلونية قد ساهمت بنصيب وافر من إعلاء شأن البابوية. وظهرت النظريات وزيفت الوثائق من أجل تدعيم سلطان البابوية كالنظرية البطرسية، والآراء الجلازية، ونظرية السيفين، وهبة قسطنطين، والمراسيم البابوية التى أصدرها جريجورى السابع.

ولهذا فقد شهد تاريخ العصور الوسطى الغربية بعد قيام إمبراطورية شارل العظيم Carolus Magnus (Charlemagne) (٢٥ ديسمبر ٧٩٩) ثم إحياء الإمبراطورية زمن أوتو الأول Otto I (سنة ٩٦٢) صراعا عنيفاً ودامياً بين البابوية والإمبراطورية، بلغ أوجه فى إذلال كانوسا Canossa عام ١٠٧٦، على عهد الإمبراطور هنرى الرابع والبابا جريجورى السابع، ثم فى عهد الإمبراطور فردريك بربروسا Frederick I Barbarossa (١١٥٢-١١٩٠) وذلك فى

محاولة لإعلاء شأو إحدى السلطتين على الأخرى، الزمنية أو الروحية. وكان هذا الصراع هو السمة الرئيسية التى صبغت العصور الوسطى الرئيسية ما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر.

وقد اعتمدت فى هذا الكتاب على كل ما توفر لدى من المصادر الأصلية، كتابات أثناسيوس Athanasius أسقف الإسكندرية (٣٢٨ - ٣٧٣) والتى تبلغ أربعين عملا ما بين كتاب وخطبة ومقال ورسالة، ومؤلفات التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica ليوسيبيوس القيسارى وسقراط وسوزومنوس Sozomenos وثيودوريتوس Theodoretus وكتابات لاكتانتيوس Lactantius والقديسين أوغسطين Augustinus وجيروم Hieronymus.

ورغم المادة العلمية الوفيرة التى تقدمها هذه المصادر، إلا أن بعضها تغلب عليه بشكل واضح روح العصر من الاهتمام بذكر المعجزات والخرافات وخاصة التاريخ الكنسى لسوزومنوس. أما الصفة التى تجمع بينها، فهى أنها تعبر عن وجهة نظر الكنيسة الجامعة، ومن ثم تصب لعناتها على الفرق الخارجة عن دائرة الكنيسة، ولهذا كان علينا أن نأخذ رواياتها وآراءها بحذر وأن نعالجها بروية. ولعلى أكون قد وفقت فى هذا السبيل، وقدمت بهذا الجهد للمكتبة التاريخية والدراسات البيزنطية عملا أشعر أنها فى أشد الحاجة إليه.

والآن .. على أن أسعى إلى محراب العرفان، لأقدم كل التقدير والثناء للأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الإسكندرية باعتباره صاحب الفضل الأول فى إخراج هذا الكتاب إلى دائرة الضوء، والأستاذ الدكتور مراد وهبة أستاذ الفلسفة بجامعة عين شمس والدكتور على الغمراوى والدكتور اسحق عبيد الأستاذين بآداب عين شمس، والأب الدكتور جورج قنواتى رئيس دير الآباء الدومينيكان بالقاهرة، ونيافة الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمى بالكنيسة المرقسية، لما بذلوه جميعاً من جهد ربما فاق

جهدى، ودقة بالغة صقلت فكرى، فقد أفسح الجميع لى صدورهم نقاشا، وقدموا لى يدا مليئة بالعون كل العون. وشكرى العميق لأمناء مكتبات الدير ومعهد الدراسات القبطية والكلية الاكليريكية وجامعات عين شمس والقاهرة والإسكندرية.

ومع يقينى أن كلمات تتلى فى محراب الشكر والعرفان غير كافية، إلا أن قلمى لا يملك سواها، وإن كان قلبى يحمل لهم بين ثناياه الكثير.

ذلك مبلغى من العلم، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسى.

رأفت عبد الحميد

القاهرة - مدينة نصر

أول أكتوبر ١٩٧٤

الفصل الأول

الإمبراطورية الرومانية والمسيحية حتى مطلع القرن الرابع

فى عام ٣١ ق. م وعند أكتيوم حقق أوكتافيوس Octavius انتصاره الحاسم على أعداء الشعب الرومانى، زميله فى السلطة ماركوس أنطونيوس Marcus Antonius وكليوباترا السابعة Cleopatra VII آخر ملوك البطالمة فى مصر وحليفة الأخير، وتنفس الصعداء بموتهما بعد حرب أهلية طويلة أكتوت روما بنيرانها منذ اقتحم الجنود سياج روما ببزاتهم العسكرية وهتكوا ستر حرمها المقدس مع نهايات القرن الثانى قبل الميلاد وبدايات الأول. وقدر السناتو الرومانى جهد الرجل حق قدره، فخلع عليه من ألقاب التشريف والتعظيم ما رفعه مكاناً علياً، فهو "الأوغسطس" Augustus الذى يعنى "الإجلال"، وهو "الإمبراطور" Imperator أى "القائد الأعلى"، وهو "المواطن الأول" Princeps، ثم هو "أبو الوطن" Pater Partriae وهو "الكاهن الأعظم" Pontifex Maximus، وبملء كل هذه الهالة التى ألفى نفسه محاطاً بها، داعبته آمال إحياء الفضائل الرومانية القديمة التى تاهت وسط غبار معارك الحروب الأهلية والاصطراع على السلطة فى روما، وانصراف الكثيرين خاصة الطبقتين الدنيا والوسطى إلى عبادات جديدة قادمة من الشرق. ولما كانت الوثنية الرومانية لا تمثل ابتعاداً مطلقاً عن النظام السياسى الرومانى، إذ أرباب الرومان هم أرباب الدولة، والإمبراطور هو السيد المطلق فى أمور الدنيا وشئون الدين، اهتم أوكتافيوس أوغسطس ببعث الفضائل القديمة، إلى جانب عدد من الآلهة التى لقيت رواجا أيام الحروب الأهلية مثل آلهة الحظ والسلام والخير، وأضاف إلى كل منها لفظ التعظيم الذى يحمله فغدت Fartune Augusta, Pax Augusta, Mercurius Augustus [1].

---

(1) Boak, A history of Rome to 565 A.D. p. 272 .

ويبدو من المستحيل إعطاء صورة دقيقة عن الديانة الوثنية فى الإمبراطورية الرومانية وخاصة فى تلك القرون الأولى للميلاد، وهى الفترة التى قيل إن الديانة المسيحية قضتها حبيسة قالب الاضطهاد، قبل أن تحصل على اعتراف حكومى شأن سائر الديانات الأخرى فى الإمبراطورية، يبيح لأتباعها ممارسة شعائرهم وإجراء طقوسهم. وترجع هذه الاستحالة إلى أن الوثنية لم تكن فى هذه الفترة ذات طابع ثابت، بل كانت خليطاً عجيباً من المعتقدات والعبادات من مختلف البلاد وشتى الثقافات. فقد اختلطت بها منذ مدة طويلة آلهة الإغريق الأوليمبية بعد أن سادت روما بلاد اليونان، بل لعله من الحرى القول إن الرومان نقلوا آلهة الإغريق بكل أسرارها وطقوسها، وخلعوا عليها أسماء رومانية، بل إن بعضاً منها ظل يحمل اسمه الإغريقى فقد كان الإغريق أهل خيال عريض تمثل فى الميثولوجيا الرائعة التى خلفوها، بينما كان الرومان شعبا عملياً من الطراز الأول. وتمثلت هذه الديانة اليونانية الرومانية فى الآلهة التى تجلب الخير والرخاء والصحة والعدالة. على أن هناك مجالا للشك فى أنه كان لهذه الآلهة خارج إيطاليا واليونان – موطنهما الأصلى – تأثير كبير أو عزاء روحى لدى الأهلين [٢] فقد كان لدى هؤلاء الأهلين فى الولايات الرومانية، لا سيما فلاحيها وأهل المدن، آلهتهم المحلية التى يلقون إليها الاحترام والتقديس، وكان هذا يبدو بصورة أوضح فى المدن الصغيرة حيث كان يسيطر عليها الطابع الريفى. فعبد المصريون الآلهة التى تحمل رءوس الحيوانات أو الطيور فى حياتها وبعد مماتها، وامتلأت المعابد الكبيرة بالعديد من الكهنة الحليقى الرءوس فى ملابسهم البيضاء، يباشرون الطقوس الدينية فى لغة قديمة كانوا هم أنفسهم يفهمونها بصعوبة [٣]. أما فى سوريا وشمال أفريقيا فقد عبد الفلاحون وأهالى المدن البعل وعشتار وغيرهما من الآلهة المحلية[٤]، وفى تراقيا عبد الناس آلهة الجبال المحاربة، وكانت الشمس التى لا تقهر تحظى بالنصيب الأكبر فى إيلليريا [٥]، أما عند الكلت فقد انتشرت بينهم عبادة

(2) Jones, Constantine and the conversion of Europe, p. 29.

(3) Jones, Constantine, p. 31.

(4) Id.

(5) Id.

الطبيعة، وكان الولاء يقدم لآلهة الربيع والأنهار والغابات وعلى رأسها جميعا الشمس[٦].

حقيقة احتلت بعض الآلهة الزعامة الرسمية في البانثيون الروماني، وظلت لفترة طويلة تعبد في العصر الجمهوري، وخاصة جوبتر الكابيتوليني Jupiter Capitolinus رب الأرباب ويقابل زيوس عند الأغريق وما يرتبط به مثل يونو Juno [٧] ومينرفا Minerva ومارس Mars [٨]. غير أن الطبقة المثقفة ورجال السناتو، والنبلاء، والعائلات الثرية والعريقة من حكام المدن والذين يكونون الطبقة المثقفة ورجال السناتو والنبلاء، والعائلات الثرية والعريقة من حكام المدن والذين يكونون الطبقة الأرستقراطية في الولايات، والتي أشربت منذ الصغر التراث الكلاسيكي اليوناني والروماني، ربطت مجدها الديني وتراثها في الفن والأدب، وتاريخها بهذه الآلهة، وإن لم يكن هذا في الغالب أكثر من ارتباط عاطفي تاريخي[٩]. وتملكت نفوس خاصة المثقفين حالة من القلق والشك في مقدرة هذه الأرباب في نهاية العصر الجمهوري الذي شهد بين الرومان حرباً أهلية طاحنة دون أن تبدي الآلهة حراكا لوضع حد لهذه الفوضى، فبدأ الإيمان لديهم يتزعزع تجاه آلهتهم القديمة، فولوا وجههم شطر الفلسفة، التي كانت في هذه الفترة قد توقفت عن أن تصبح موضوعاً دراسياً واسع الانتشار، وأضحت أساساً على وفاق مع الدين [١٠]. ووجدت هذه الطبقة إلى حد ما سلواها في الرواقية بما تنطوي عليه من

---

(6) Id.

(٧) كانت يونو ملكة السماء وحامية الأنوثة والزواج والأمومة. وكانوا يوصون بالزواج في شهرها ــ شهر يونيو ــ ويقولون أن الزواج فيه أسعد الزيجات، على حين كانت مينرفا آلهة الحكمة والصناعات اليدوية وطوائف الصناع والممثلين والموسيقيين والكتبة، أما مارس فقد كان آلها معظماً عند الشعب. وكان أولاً إله الحرث ثم كاد أن يكون رمز روما وشعارها. وكانت كل قبيلة في إيطاليا تطلق اسمه على شهر من الشهور.

راجع: ديورنت: قصة الحضارة، المجلد الثالث، جـ١ ص ١٢٧، ١٢٨.

(8) Boak, op. Cit. P. 389.

(9) Jones Constantine, p. 29.

(10) Cary, A history of Rome down to the reign of Constantine, p. 588.

أخلاق سامية وإيمان بكل الآلهة [11] . وإلى جوار هذه كانت توجد أيضاً الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية الجديدة وكانتا تقومان على نظام ثنوى فى الاعتقاد، وتعتبران المادة شراً، والجسد سجناً، والخلاص لا يتأتى إلا عن طريق إذلال الجسد والتأمل فى طهارة الروح الإلهية وممارسة التصوف والزهد.

غير أنه لم يكن فى قدرة الدين القديم أو الفلسفة أن تهب العامة إيماناً يخفف عنها شعورها بفقرها ويواسيها في أحزانها. ففى الوقت الذى كان الناس فى حاجة إلى من يخاطب روحهم ووجدانهم، كان الدين لا يقدم لهم إلا طقوساً ومراسم [12] وأمست الأرباب القديمة أرباب الطبقة التى ارتبطت مكانتها بمجد روما وفخارها وانتصاراتها فى الخارج، نعنى بذلك طبقة السناتو والنبلاء، وبات واضحاً أن حفاظ هذه الطبقة على الأرباب القديمة مجرد حفاظ على روابط تاريخية وتراث بعيدا!. أما الفلسفة فكانت بأفكارها وجدلها لا تتناسب وعقول العامة الذين راحوا يفتشون عن أرباب آخر، يجدون فى الإيمان بها هدوء الخاطر، وسرعان ما وجدوا هذه الأرباب فى الديانات الشرقية التى استطاعت أن تقدم لمعتنقيها كل ما عجزت العبادات الرسمية للإمبراطورية أن تمدهم به [13] من الرضى النفسى، والأمل فى المستقبل والهروب من هذا العالم الملىء بالبؤس والشقاء الذى يحيونه إلى عالم الروح وما يعدهم به من نعيم مقيم. وكل ذلك كانت تفتقده العبادات الرسمية التى كانت ذات طابع سياسى صرف وأداة طيعة من أدوات الحكم [14]. وقد وجد الناس

---

(١١) تقوم الرواقية على جعل المعانى الفلسفية فى متناول الخلق جميعاً، وعلى فتح باب الفلسفة على مصراعيه، وهى تقدم للإنسان الحائر فى مجتمع شاعت فيه الفوضى ودب فيه الانحلال، أساساً أخلاقيا للسلوك، ومبدأ راسخاً للحياة الفاضلة. ومن ثم فهى من هذه الناحية تعد عقيدة أخلاقية. انظر ص ١٠ من تصدير الطبعة الثانية لكتاب الفلسفة الرواقية للدكتور عثمان أمين. القاهرة ١٩٧١. وراجع أيضاً تراث العالم القديم تأليف W.G. De Burge وترجمة زكى سوس جـ١ ص ٢٣٤-٢٤١. وكان من أشهر رجالاتها ابيكتيت Epictetus الذى استطاع أن يضم الإمبراطور تراجان (٩٨- ١١٧) إلى حلقة سامعيه، وكان الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠) من أعلام الفلاسفة الرواقيين. راجع:

Cary, Op. cit.p 596.

(١٢) ديورنت، المصدر السابق، مجلد٣ جـ٢ ص ٣٥٥.

(13) Stephenson, Mediaeveal history, p. 39.

(14) Boak, op. cit. p. 391.

فى هذه العبادات الشرقية الجديدة عدداً من شعائر أثارت نفوسهم وأشبعت عواطفهم. فالعابد بممارسته إياها، يشعر وكأنه وصل إلى درجة الغيبوبة الروحية يحس فيها أنه فى اتحاد مع الإله المعبود. وبإتمام شعائر الأسرار يحس أن نفسه قد تطهرت من دنس حياته الأرضية، وأصبح مستعداً لتقبل حياة روحية نقية (١٥).

ومن بين العبادات الشرقية العديدة كان هناك ثلاث منها حظيت باهتمام كبير من جانب الرومان على المستويين الشعبى والرسمى، هى عبادة الأم العظيمة Magna Mater من Pessinus وموطنها الأصلى فى فريجيا Phrigia بآسيا الصغرى حيث كانت تعرف بالآلهة كيبيلى Cybele وقد أشرك معها فى العبادة قرينها أتيس Attis الذى تروى الأساطير المقدسة أن كيبيلى قد أعادته إلى الحياة ثانية ـــ بعد أن كان قد ذبح ـــ بقوة حبها إياه (١٦). وقد نقل الحجر الأسود الذى كان يمثل صورتها مع كهنتها من الخصيان بكل وقار واحترام من بسينوس إلى روما فى الأيام المشئومة للحرب البونية الثانية (٢٠٥ ق.م) (١٧) وذلك بعد أن فشلت أرباب الرومان فى أن تهدىء من روع السكان الذين أصيبوا بخيبة الأمل، غير أن السناتو الرومانى حصر عبادتها فى معبدها على تل البلاتين. ولكن ما إن جاء عصر كلوديوس Claudius (٤١-٥٤) حتى تحطم هذا الحصار الذى فرضه السناتو على "الأم العظيمة البسينية" (١٨)، وانتشرت عبادتها سريعاً بين سكان روما وإيطاليا وكثير من مدن الولايات فى ليديا Lydia وفريجيا وأفريقية (١٩).

(15) Ibid. p. 391.
(16) Stephenson, op. cit. p. 39.
(17) Boak, op. cit. p. 391.
(18) Dudley, The Civilization of Rome, p. 280.
(١٩) كـــان كهنـــتها يخصون أنفسهم كما فعل قرينها أتيس، ويصوم عبادها ويصلون ويحزنون لموت أتيس وذلـــك أثـــناء الاحتفال بعيدها الربيعى (١٥-٢٥ مارس)، حيث كان الكهنة أيضاً يجرحون سواعدهم ويشـــربون دمـــاءهم وفى موكـــب مهيـــب يحمل الإله الشاب إلى قبره، فإذا كان اليوم الثانى ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس. فإذا ما حل اليوم الأخير من أيام الاحـــتفال حمـــلت صورة الأم العظيمة فى موكب للنصر، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير التى تحييها وتناديها فى روما باسم "أمنا" Nostra Domina
راجـــع: Jones, op. cit. p. 35 وانظر أيضاً: Dudley, op. cit. p. 115 وكذلك ديورنت: قصة الحضارة، مجلد ٣ جـــ٣ ص ١٧٤.

وقد احتلت هذه العبادة مكانة مرموقة بين سائر العبادات الأخرى القادمة من الشرق نتيجة استحسان ورضى الدولة الرومانية عنها (٢٠).

أما الإلهة المصرية إيزيس فإنها عبدت كأم عالمية تحب الخير للنوع الإنسانى، وقد عبد معها قرينها سيرابيس، ولقيا انتباها خاصاً عند كل من التجار والملاحين الذين كانوا يبشرون بهذه العبادة فى كل ميناء من موانى البحر المتوسط يحطون فيه رحالهم (٢١). وقد ساعد على انتشار عبادة إيزيس فى الإمبراطورية ما انطوت عليه قصة هذه الآلهة من الحنو والرأفة، والأمل فى الحياة الآتية، فقد راحت تذرع أقاليم مصر كلها بحثاً عن أشلاء زوجها "أوزيريس" الذى قتله أخوه "ست" إله الشر، وأخذت تضع شلوا إلى جوار شلو آخر حتى اكتمل جثمانه، ثم ذهبت تبكيه، وبدموع الحب أحيت "إيزيس" "أوزيريس". وإلى جانب هذا ما اختصت به طقوسها من الرقة، وما كان يسود هياكلها من جو مرح، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة، ولترحيبها الشامل بالناس جميعاً على اختلاف أممهم وطبقاتهم كما أنها رحبت بالنساء (٢٢) على عكس عبادة الإله مثراً.

وقد انتقلت هذه العبادة إلى روما فى غضون القرن الثانى قبل الميلاد إن لم يكن قبل ذلك. وتم هذا على يد الإغريق الذين كانوا يفدون على روما من مصر مباشرة أو من المناطق المجاورة لإيطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر الإيجى وصقلية، وقد انتشرت عبادتها بين العبيد وفقراء الرومان وبعض سيدات الطبقة الأرستقراطية مما دفع السناتو إلى تحديها، كما أصدر أحد قنصلى عام ١٦٨ ق.م أمراً بهدم هياكل إيزيس وسيرابيس القائمة بالمدينة، غير أن الحكومة الرومانية تركت أتباع إيزيس يمارسون شعائرهم خارج أسوار روما. وفى عهد صلاً Sulla اشتد ساعد هذه الديانة مرة أخرى لانتهاجه سياسة التسامح، ونتيجة لتأثير كليوباترة على يوليوس قيصر ازدهرت عبادة إيزيس خاصة وأنه كان زعيما للحزب

---

(20) Jones, op. cit. p.34.
(21) Dudley, op. cit. p.231.
(22) Ibid. p. 230.

وراجع أيضاً ديورنت: المصدر السابق ص ١٤٨.

الديمقراطى أو الشعبى الذى كان يضم بين صفوفه كثيرين من أفراد الطبقة الدنيا وهى أكثر الطبقات إقبالاً على العبادات الأجنبية، وأحرزت ديانة إيزيس تقدما مطرداً حتى أن الحكومة الثلاثية (الثانية) اعترفت بها رسمياً فى عام ٤٣ق.م. وقد تعثرت عبادة إيزيس بعد ذلك نتيجة للحرب الأهلية بين أوكتافيوس Octavius وماركوس أنطونيوس Marcus Antonius ثم صدر قرار بتحريم عبادتها داخل العاصمة الرومانية سنة ٣٨ ق. م . ثم طوردت فى كل أنحاء إيطاليا على عهد تيبيريوس Tiberius (١٤-٣٧) م [٢٣] إلا أن هذه العبادة حظيت بالاعتراف الرسمى من جانب كاليجولا Caligula (٣٧-٤١) [٢٤]. واستمرت عبادتها فى الازدهار على عهد خلفائه حتى أن أتباعها كانوا يمارسون شعائرهم فوق الكابيتول باطمئنان أثناء الحرب الأهلية سنة ٦٩، وبارتقاء الأسرة الفلافية (٧٠ – ٩٦) العرش بدأ العصر الذهبى لعبادة إيزيس فى روما [٢٥].

وعلى الرغم من أنها حوربت أكثر من مرة على يد الحكام الرومان فى العاصمة ذاتها، غير أنها كانت سرعان ما تعود إلى استعادة مركزها ثانية، ولكن بمجىء عصر أنطونينوس بيوس Antoninus Pius (١٣٨ – ١٦١) بدأت تفقد مركزها متخلية عنه لعبادة الآله الفارسى مثراً Mithra [٢٦] الذى استقرت عبادته لفترة طويلة فى شرق آسيا الصغرى ثم بدأت تأخذ طريقها إلى الغرب فى فترة متأخرة فى القرن الأول الميلادى، وما إن وافت القرون الأولى من التاريخ الميلادى حتى انتشرت فى جميع أنحاء الدولة الرومانية عبادة مثراً، الإله الشاب ذى الوجه الوسيم الذى تعلوه هالة من نور ترمز إلى الوحدة القديمة بينه وبين الشمس [٢٧] .

ولقد كانت المثرائية هى العبادة الشرقية التى فاقت قريناتها الزاحفة إلى الإمبراطورية، وكان مثراً يبدو فى الديانة الزرادشتية كإله للنور (أهورامزدا) ضد

---

(٢٣) د. عـــبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، ص ١٤٧ .١٥٠

(24) Dudley, op. cit. 230.

(٢٥) د. عبد اللطيف: المصدر السابق، ص ١٥٠ ١٥٥.

(26) Cart, op. cit. pp. 589, 697.

(27) Dudley, op. cit. p p. 230-232.

إله الظلمة (أهريمان)، وحيث تأثر بالروح البابلية والإغريقية، عرف مثرا بأنه إله الشمس، ثم ظهر فى روما على أنه الشمس التى لا تقهر (٢٨) Deus Invictus Sol Mithra. ولما كانت هذه العبادة فى شكلها الزرادشتى تمثل صراعا بين إلهى النور والظلمة، فقد أوجد ذلك فى أفئدة الناس دافعاً وتأييداً للجهاد من أجل الصلاح والبر، وبذلك قدمت العبادة المثرائية حصانة روحية راسخة (٢٩). ولقد تركت المثرائية آثارها الواضحة فى روما والولايات الغربية (٣٠) وأخذت فى الانتشار السريع خاصة فى الأوساط العسكرية بعد أن أصبح مثراً إلهاً للمعارك الحربية، وحامياً للجنود الذين غدوا أداة تبشير حماسية له على معسكرات الحدود (٣١)، خاصة بعد أن فقد إله الحرب الرومانى مارس سلطانه وخارت قواه ولم يعد قادراً على قيادة الفيالق الرومانية ضد أعداء الإمبراطورية.

على أية حال فقد أصبح العالم الرومانى الوثنى يعج بالعقائد المختلفة، وكانت العبادات الشرقية مادة إضافية جديدة للوثنية الرومانية، غير أنها لم تصبح لها السيادة، وعلى الرغم من أن بعضها قد اعترف به رسمياً، ولقى التأييد من جانب بعض الأباطرة، إلا أن هذه العبادات، بقيت عبادات فردية أو خاصة أو حتى على المستوى الشعبى المحدود، ولم تدع فى يوم من الأيام أن لها صفة سياسية، وكانت الدولة الرومانية فى نفس الوقت تقف إزاء كل هذه الديانات موقف المسامحة (٣٢)، شريطة ألا تتعارض طقوسها مع الصالح العام الرومانى (٣٣) .

غير أن هذه الديانات الجديدة كانت تفتقر إلى السلطة المركزية المنظمة المتمثلة فى رجال الكهنوت والتى تستطيع أن تسن قانوناً، أو تضع تنظيماً معيناً لهذه العبادة أو تلك، أو تحديد الطقوس اللازمة، وكانت مناصب الكهنوت فى الغالبية العظمى من العبادات المحلية تملأ بواسطة أناس من أهل المنطقة ذاتها، وقد

(28) Boak, op. cit. p. 392.
(29) Stephenson, op. cit. p. 40.
(30) Ault, Europe in the Middle Ages. p. 39.
(31) Cary, op. cit. p. 698; Dudley, op. cit. p.p. 230-232.
(32) Boak, op. cit. p. 302.
(33) Jones, op. cit. p. 30.

يجمعون بينها وبين الوظائف العامة أحياناً، وكان معظم الكهنة يختارون بواسطة المجامع المحلية سواء لمدة سنة مثل معظم الوظائف الأخرى فى الإمبراطورية، أو على الدوام كمنصب شرفى (٣٤) .

ولأجيال عديدة، فإن الديانات ذات الأصل الشرقى كعبادة إيزيس والأم العظيمة ومثرا قد أشبعت إلى حد ليس باليسير الشعور الدينى عند الرومان، والذى لم يجد إلا غذاء يسيراً فى الديانة الرومانية القديمة (٣٥). وكان الغموض والأسرار الخفية فى هذه العبادات ذات أثر فى اجتذاب عدد كبير من المتعلمين والأميين على السواء إلى رواقها (٣٦)، ولا يمكن القول أن الدين أو الفلسفة لم تعط نوعا من التعاليم الأخلاقية. فهذه الأخيرة ـ الفلسفة ـ كانت تنادى بوجوب تخلص الروح وتطهرها من الشهوة الجسدية والماديات، وذلك بممارسة الفضيلة من أجل الحصول على الطهارة والنقاوة اللازمة للتأمل والتفكير فى الله. وكان قانون العقيدة المثرائية ـ كما أوضحنا ـ يقسم العالم قسمين، ويجعل الصراع قائماً بينهما، بين قوة النور وقوة الظلمة، ومن ثم كان على المؤمنين بمثرا أن يحاربوا فى صفه حتى يستطيعون الاتحاد به، كما كانت الطهارة والعفة الأخلاقية فى عبادة إيزيس مطلوبة من عبادها إذا كانوا يريدون الحصول على السماح والغفران عند القضاء بعد الموت، ونيل البركات والنعيم المقيم. غير أن هذه المسائل كلها كانت تتم بصورة فردية، ولم يحاول أحدهما أو كلاهما ـ الدين والفلسفة ـ أن يبدى اهتماما بالعدالة الاجتماعية، كما أنه لم يكن عند هذه أو ذاك مجرد الرغبة فى إنقاذ العالم كوحدة واحدة، وخلاصه من شروره (٣٧) .

وكان يحمل هذا المبدأ الأخير ديانة شرقية جديدة تمثلت فى المسيحية، تبدت عقيدتها فى إله مخلص سار فى طريق الآلام والتعذيب ليكفر عن خطايا البشر. مات ثم قام ثانية من بين الأموات كما يؤمن به أتباعه. وكان لهذه العقيدة المسيحية الجديدة أسرارها الخفية، وغموضها الذى كانت تشترك به مع العبادات الشرقية كلها آنذاك.

(34) Ibid. 46.
(35) Dill, Rome and Society in the last century of the Western Empire, p.7.
(36) Stephenson, op. cit. p. 39 .
(37) Jones, op. cit. p. 38.

فاقت المسيحية سائر الديانات الشرقية القديمة لأن يسوع المسيح كانت له جاذبية أحدثت فى النفوس راحة، فهو قد نال الموت من أجل خلاص الناس أجمعين، وتفردت بتعاليم أخلاقية قابلت الهوى. وعلى خلاف المثرائية التى قصرت عضويتها إقامة شعائرها على الرجال دون النساء (٣٨)، وعبادتى الحنان الأنثوى كيبيلى وإيزيس، ملكت المسيحية على الجموع الأفئدة.

ولكن المسيحية لم تلق من الرواج بادئ الأمر ما لقيته هذه الديانات الأخرى، وعلى الرغم من القوة الروحية التى كانت تؤكد مستقبل الإيمان المسيحى، إلا أن انتصار المسيحية جاء متأخرا جداً، وكان على المسيحية أن تقضى طيلة ثلاثة قرون كاملة تبحث عن مكان لها بين الأديان الأخرى، محاولة أن تتخطى العقبات التى صادفتها، وعلى طريق طويل بلغ مداه ثلاثمائة عام سار المسيح وحواريوه وأتباعه رحلة طويلة مليئة بالآلام حتى استطاعت المسيحية أن تحقق نصرا جزئياً فى مطلع القرن الرابع، ولم يتحقق لها النصر النهائى إلا وشمس القرن ذاته تؤذن بالمغيب.

وقد جاء العداء للمسيحية فى هذه القرون الثلاثة الباكرة من جانب اليهود والوثنيين. فقد كانت اليهودية فى هذه الفترة قد أخذت فى الانتشار الواسع خاصة فى حوض البحر المتوسط الشرقى خلال الشتات الذى تعرض له اليهود إبان العصر الهلنستى (٣٩). ذلك أن غزو الاسكندر الأكبر للشرق الأدنى كان داعية لفتح العالم الإغريقى المقدونى كله أمام اليهود، فاحتلوا مراكز التجارة الهامة فيه، وسادوا طرق المواصلات التجارية، ولقيت المستعمرات التى أقامها اليهود التشجيع من جانب الملكيات الهلنستية التى أعفتهم من الخدمة العكسرية، ومنحتهم الحماية والأمان على معتقداتهم وأنعمت عليهم بامتيازات قضائية معينة فى تلك المدن التى أقاموا فيها، وبذلك أصبح عدد يهود الشتات أكثر من أولئك الذين يقيمون فى اليهودية Judaea(٤٠). وكانت ثورة المكابيين السياسية ضد السلوقيين سبباً فى

(38) Ault. op. cit. p. 40.
(39) Cary, op. cit. p. 589.
(40) Boak, op. cit. p. 394.

إعادة إحياء هذه الديانة، ومدعاة لنشاط تبشيرى بين جماعات الوثنيين، واستطاعت اليهودية أن تجتذب إليها فى القرن الأول للميلاد عددا لا بأس به من الوثنيين(٤١)، وعلى الرغم أن اليهود المقيمين خارج سوريا قد تشربوا الثقافة الهلنستية بصورة أو بأخرى، واستسلم اليهود المقيمون فيها فشيئاً لما كان فى هذه المنطقة من نزعة هلنستية، إلا أنهم ظلوا يكونون شكلا من الوحدة الدينية يترأسه الكاهن الأكبر فى أورشليم، وتجلى ذلك فى بعض المظاهر، فبالإضافة إلى الضريبة السنوية التى كان مقدارها دراخمتين، والتى كان على اليهودى أن يدفعها لمعبد يهوه، كان ينتظر من كل يهودى أن يحج إلى أورشليم وأن يقدم فى معبدها أضحية معينة ولو مرة واحدة على الأقل طوال عمره. ومع ذلك فقد كان اتصالهم بجودايا دينيا محضا ولم يكن ذا صبغة سياسية (٤٢) .

وفى سنة ٦٣ ق. م. أصبحت منطقة اليهودية جزءاً من ولاية سوريا الرومانية، بعد أن انتصر بُمبى لهركان الثانى ضد أخيه، واستطاع أن يفتح العاصمة المقدسة بعد حصار دام ثلاثة أشهر. وحفظت روما لليهود موقفهم إزاءها أثناء عدائها الباكر مع دولة السلوقيين ونتيجة لموقفهم أيضاً أثناء النزاع بين أوكتافيوس من ناحية وأنطونيوس وكليوباترة من ناحية أخرى وتخليهم عن نصرة آخر حكام البطالمة (٤٣) فاعترفت لهم بامتيازاتهم التى كانوا قد حصلوا عليها من المدن الهلنستية، هذا بالإضافة إلى أنه لم يطلب إليهم أن يشاركوا فى العبادة الإمبراطورية. واتبعت الحكومة حيالهم سياسة من التسامح، ولعل الذى دفع الحكومة الرومانية إلى أن تسلك هذا السلوك من التسامح تجاه اليهود هو ما كانت تشعر به من اتجاهات إيجابية فى العقيدة اليهودية ذاتها (٤٤) فيما يتعلق بالأمور الاقتصادية وخاصة النواحى التجارية . أو لعله أيضاً يرجع إلى أنهم كانوا رغم انفراد ديانتهم بقوانينها الخاصة يعدون مجتمعاً ليس بذى شعبية كبيرة بحيث يمثل خطراً على الإمبراطورية الرومانية (٤٥).

(41) Cary, op. cit. p. 589.

(42) Boak, op. cit. p. 394.

(٤٣) د. مصطفى عبد العليم: اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان، ص ٥١.

(44) Boak, op. cit. p. 394.

(45) Stephenson, op. cit. p. 43.

فلما جاء كاليجولا إلى العرش أراد أن يجعل عبادة الإمبراطور ديناً يوحد به أجزاء الإمبراطورية المختلفة، فأمر أن يقدم أتباع كل العبادات قرباناً لصورته، وأصدر تعليماته إلى الموظفين فى أورشليم أن يضعوا تمثاله فى الهيكل (٤٦). ولكن اليهود كانوا ينفرون من وضع تمثال منحوت لرجل وثنى فى هيكلهم، وإن كانوا قد قطعوا نصف الطريق إلى ترضية الأباطرة بقبولهم أن يضحوا ليهوه باسم الإمبراطور، وقد أنهى كاليجولا المشكلة بموته (٤٧) .

وفى ستينيات القرن الأول الميلادى ثار اليهود فى جوديا ثورة عارمة، غير أن جيوش الإمبراطورية بقيادة تيطس Titus استطاعت أن تقضى على هذا التمرد، وأن تدمر الهيكل، وأن تذبح أعداداً كبيرة منهم، وفرض الإمبراطور فسباسيان Veapasianus (٦٩-٧٩) على كل يهودى أن يحول الضريبة التى كان يدفعها للهيكل فى أورشليم إلى الهيكل الوثنى فى روما (٤٨). غير أن اليهود ما لبثوا أن جددوا ثورتهم ضد روما مرة أخرى عامى ١١٥-١١٦، وشملت الثورة هذه المرة مناطق عدة من الإمبراطورية خاصة فى برقة ومصر وقبرص وأرض الجزيرة(٤٩). ولكن الإمبراطور هادريان Hadrianus أخمد بلا هوادة هذا التمرد الخطير، وأصدر فى سنة ١٣١ مرسوماً يحرم الختان أو الاحتفال بأى عيد من أعياد اليهود أو إقامة أى طقس من الطقوس اليهودية علانية، وفرضت ضريبة شخصية جديدة وباهظة، وحرم عليهم دخول بيت المقدس إلا فى يوم واحد فى العام ليسمح لهم فيه بالمجىء للبكاء أمام خرائب الهيكل.

وهكذا شتت اليهود فى كل ولايات الإمبراطورية الرومانية، وضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا، وكان مما يقلق بال اليهود أن يدفعوا ضريبة لسيد وثنى(٥٠)، ونظر اليهود إلى ماضيهم فألفوا أنفسهم وقد تعرضوا لتاريخ طويل من

(46) Dudley, op. cit. p.162.

(٤٧) ديورنت: المصدر السابق، مجلد ٣ جـ ٣ ص ١٨٥

(٤٨) المرجع نفسه

(49) EVSEB. Hist. Eccl. IV. 2.

(50) Gibbon, The decline and fall of the Roman Empire, I,p. 78.

الإذلال والشتات، بدأ بالآشوريين فالبابليين فالفرس فالإغريق ثم فى النهاية الرومان، ومن ثم تولد لدى اليهود كبير أمل، وتوقع محدد صريح أن إلههم لابد وأن يخلصهم يوماً ما من هذه التبعية السياسية للسيد الأجنبى (٥١). وكان التفكير السائد- حسبما جاء فى نبوءات أنبياء بنى إسرائيل (٥٢) - أن الوسيلة الوحيدة لذلك هو أن يرسل يهوه مسيحاً خصيصاً لهذا الغرض، ويخرجهم من الظلمات إلى النور- المادى الحسى - ويعيد لهم على الأرض مملكة داود وسليمان، ويحقق لهم عهداً جديداً من السلام والرخاء، من القوة والعظمة، وينهى بقوته وإلى الأبد حالات الحزن والقنوط والتبعية والإذلال، وأن يهوه لابد وأن يعيد إلى شعبه ميراثه الصحيح ووضعه المرموق(٥٣).

غير أن اليهود أصيبوا بخيبة أمل بالغة عندما جاءهم المسيح يزين لهم ملكوت السماوات، ويعدهم وعدا حسناً فى الدار الآخرة، وأدرك رجال السطوة والنفوذ فيهم من الصدوقيين والفريسيين والكتبة ومختلف الطوائف الأخرى، وأعضاء مجلس السنهدرين اليهودى (٥٤) أن مكانتهم إلى نهاية، وأن نفوذهم لا محالة ضائع. ومن ثم كفروا بالمسيح وبما جاءهم به، ونالوا منه ومن دعوته وأتباعه، وراحوا يؤلبون عليه وعليهم جميعاً شعب الرومان والحكومة. وبذلك لقى المسيحيون من اليهود كبير عنت.

---

(51) Thompson & Johnson, An Introduction to Medieval Europe. p. 27.
راجع أيضاً: Stephenson, op. cit. p. 40.

(٥٢) "جـاء فى سفر أشعياء (٩/٦-٧) لأنه يولد لنا ولد، ونعطى ابنا، وتكون الرياسة، ويدعى اسمه عجيباً مشـيراً إلهـاً قديـراً أبا أبدياً، رئيس السلام، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد".

وجـاء أيضـاً فى نفس السفر (١١/١-٢) "ويخرج قضيب من جذع يسى، وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب".

(٥٣) دانيال ٢/٤٤. أشعياء ٢/٤.

(٥٤) هـو المجلس الأعظم المكون من كبراء إسرائيل، ويظن أنه نشأ فى أثناء حكم السلوقيين (حوالى عام ٢٠٠ ق.م.) وكـان الحاخـام الأعظم هو الذى يختار فى بادىء الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشـراف الكهـنوت، ويضم المجلس واحداً وسبعين عضوا يدعون لأنفسهم السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم، وكان اليهود المستمسكون بدينهم فى كل مكان يعترفون لهم بهذه السلطة.

أما المجتمع الرومانى فكانت نظرته إلى المسيحية تختلف باختلاف الطبقة التى ينتمى إليها هذا البعض أو ذاك، هذا بالإضافة إلى موقف السلطات ذاتها، فالطبقة المترفة كانت تعتقد أن المسيحية تهدد كيانها بما تحمله من تعاليم تدعو إلى المساواة والأخذ بيد الفقراء، والتصدق بالأموال وعدم اكتنازها، واحتقار الحياة الدنيا وملذاتها (٥٥)، وهى مظاهر لم يألفها الرومان فى تلك الأعصر. ومن ثم أتهمت هذه الطبقة المسيحية بأنها تعمل على تبديد الثروات التى جمعوها بطرق مشروعة أو غيرها، وراحوا ينظرون إليها بعين الشك والارتياب. أما الطبقة العليا وخاصة أولئك الذين وضعوا فى مناصب تتطلب منهم الحفاظ على أمن الدولة وسلامتها، والذين يرتبطون بالأسلاف بصورة حقيقية أو خيالية، والذين كانوا يرون أن ديانتهم الوثنية جزء من كيان الحكومة ونظامها. واعتادوا أن يربطوا بين أربابهم وبين مجد الدولة وعظمتها، فقد كان من الصعب عليهم هجران ديانتهم وعقائدهم بعد ما رأوا أن المسيحى ينظر إلى دينه على أنه شيء منفصل عن المجتمع السياسى، وأنه أسمى من هذا المجتمع مقاماً ولا يدين بولاء للقيصر ولكن بأعظمه للمسيح (٥٦).

ولم تكن الجموع الرومانية فى حاجة إلى من يثير عاطفتها ضد هذه الدعوة الجديدة وأتباعها، وكان الذى أدى إلى هذا الاتجاه هو ذلك الموقف الخاص النابع من المسيحية. ففى الوقت الذى لم يكن لدى روما فيه أى تعصب فى الوصول إلى اتفاق معين إو تراض مع العبادات الأجنبية الأخرى. وكان مذهب تعدد الآلهة على استعداد لأن يقبل فى البانثيون الرومانى آلهة جددا، وتجلى ذلك فى أن آلهة الشرق كانت تقام لها الاحتفالات والأعياد كما لو كانت أى إله رومانى، وبينما كان الوجدان الوثنى لا يرضى طواعية بإله واحد، بدت المسيحية ديانة توحيدية، وكان

(٥٥) حفل العهد الجديد بالآيات العديدة الدالة على ذلك، "لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون" (متى ١٥/٦)، "أن أردت أن تكون كاملاً فأذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء" (متى ٢١/١٩، مرقس ٢١/١٠)، "مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله" (مرقس ٢٥/١٠).

(56) Dill, op. cit. p. 3.

هناك فى الحقيقة إله واحد. وقد أظهر هذا الإله نفسه فى "العهد القديم" غير متسامح البتة مع الآلهة الأخرى، ولم تكن المسيحية التوحيدية ترضى بحل وسط يمكن استخدامه مع الوثنية المتعددة الآلهة فى الإمبراطورية الرومانية، بل يجب فى ـ نظرها ـ ألا يكون هناك تسامح مطلقاً لا مع الوثنية ولا مع أتباعها (٥٧).

وبناء على هذا المعتقد لدى المسيحيين، عزل هؤلاء أنفسهم عن المجتمع الرومانى وأنشطته المختلفة، فلا هم يشتركون فى حفلاته وندواته العامة، ولا هم يختلطون بالرومان ويندمجون فيهم، بل أغلقوا على أنفسهم باب العزلة فى ظل التعاليم التى أشاعها آباء المسيحية الأول من فساد الحياة الدنيا وغوايتها ووجوب الزهد، وأن من اتبع هواه وأطلق لنفسه وشهواته العنان فى هذه الدنيا فقد ضل وغوى، وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى وسار فىَ طريق المسيح وتحمل الآلام والتعذيب، واحتقر الحياة الدنيا، فسوف يلقى جزاء الحسنى بأن يكون رفيق المسيح فى السماوات العلا. ولقد كانت هذه المحاولة لإقامة مجتمع من الأخيار بين الأخوة، والدفاع العنيف عن حياة التبتل، تجرى فى تيار مخالف تماماً لما كانت عليه الحال فى تلك الفترة (٥٨). ولما كان زعماء المسيحيين يحضونهم على أن يتجنبوا غير المسيحيين، وأن يبتعدوا عن الألعاب الهمجية التى يقيمونها فى أعيادهم وألا يغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة فجور، فقد بدا اعتزال المسيحى للشئون الدنيوية فى نظر الوثنى وكأنه هروب من الواجبات المدنية وعدم الولاء للدولة(٥٩). وقد جاء هذا الاعتزال أيضاً نتيجة لما كان يعتنقه المسيحيون من أن الحياة الأرضية أضحت غير ذات بال، والمسيحيون فيها غرباء، فموطنهم الأصلى هو السماء، أنهم مواطنون فى مملكة الله الآتية (٦٠). وكانت الكنيسة الأولى تعتقد بإخلاص فى قرب مجىء ملكوت السماوات، ومن ثم لم تقدم شيئاً لهذا العالم الذى تعيش فيه، بل ركزت كل جهدها للاستعداد للحياة الآخرة (٦١). ولما كان قد حرم

(57) Latourette, expansion of Christianity. I, p. 128; Thompsn, op. cit. p. 25.
(58) Boak, op. cit. p. 385.
(٥٩) ديوانت: المصدر السابق، مجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٧٢.
(60) Latourette, expasion of Christianity. I, p. 128; Thompson, op. cit. p. 395.
(61) Boak, op. cit. p. 395.

على المسيحى أن يتزوج بغير مسيحية، وعلى المسيحية أن تقترن بغير مسيحى، اتهم الوثنيون المسيحيون بأنهم بذلك يبذرون الشقاق فى المجتمع، واتهم الدين المسيحى بأنه يعمل على تشتيت الأسر وخراب البيوت(٦٢)، ومما أكد هذا الاتهام أيضاً أن حماس المسيحيين فى تلك الآونة كان يدفع الواحد منهم، تبعاً للتعاليم المسيحية إلى أن يهجر عائلته وأرضه فى سبيل إيمانه، وأن يشترك فى وحدة مع جماعته المسيحية الجديدة (٦٣). واتهم المسيحيون بالتعالى والتكبر على بقية أفراد المجتمع لأنهم كانوا يضعون الصعوبات فى وجه تناول الطعام خارج دورهم، حيث أن معظم اللحوم فى الحوانيت مضحى بها أصلاً للأوثان (٦٤). وكان إظهار الشماتة من جانب المسيحيين إذا ما حل بالإمبراطورية مكروه، وما أذاعوه من تنبؤات صريحة عن الكوارث والمحن التى تنتظر الإمبراطورية، كل ذلك أوحى إلى الوثنيين بانطباع معين عن خطر متوقع من وراء هذه الطائفة (٦٥) .

وبهذا السلوك أدرك جموع الرومان أنهم إزاء جماعة منعزلة تأبى الاشتراك فى الحياة العامة بل وتزدريها وترفض الانخراط فيها، ولا تؤدى أى خدمة للمجتمع الذى فيه تعيش، ومن ثم كان سخط الجموع الوثنية ومعارضتها للدين الجديد أشد من سخط الأباطرة أنفسهم فى بادئ الأمر (٦٦).

ولم يكن ارتياب الأباطرة الرومان فى المسيحية بأقل منه عند هذه الفئه أو تلك، بل أخذ يزداد بمرور الزمن حدة وصرامة، وكانت المشكلة الجوهرية التى أقلقت بال الأباطرة، وزادت من حدة النزاع بينهم وبين المسيحيين هى رفض مشاركة هؤلاء بقية الرومان عبادة الإمبراطور وتأليهه (٦٧)، وتقديم القرابين لتمثاله وحرق البخور أمامه فى المناسبات العامة، وكان إحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور قد أصبح رمزاً للولاء للإمبراطورية وتوكيدا لهذا الولاء.

(٦٢) ديورنت: المصدر السابق ص ٣٧٢.

(63) Gibbon, op. cit. p. 84.
(64) Jones, Constantine, p. 41.
(65) Gibbon, op. cit. p. 84.

(٦٦) ديورنت: المصدر السابق ص ٣٧٢.

(67) Ault, op. cit. p. 43.

وترجع بدعة عبادة الإمبراطور إلى ذلك الزمن الذى حاول فيه أوغسطس أن يوجد رابطة جديدة من الولاء لروما عند أهالى الولايات وذلك باللعب على أحاسيسهم الدينية[٦٨] أو حتى قبل ذلك بزمن طويل عندما بدأت روما تطيح بسلطة الحكومات الهلنستية التى كانت عبادة أفرادها من جانب رعاياهم الأساس الذى قام عليه الحكم الأوتوقراطى لتلك الحكومات [٦٩]. فالمواطنون الهلنستيون منذ دخل الرومان بلادهم غازين ـ عبروا عن احترامهم أو خوفهم لروما بأن أقاموا هنا وهناك مذابح للآلهة "روما" أو للقواد الرومان[٧٠]. وكان قد حظى بهذه العبادة أيضاً أفراد رومان مثل صُلا Sulla، وقيصر Caesar وماركوس انطونيوس [٧١]، وفى سنة ٢٩ ق.م، شيدت مدن برجام Pergamum فى آسيا الصغرى ونيقوميديا فى بيثينيا معابد كرستها لعبادة روما وأوغسطس [٧٢]، وقد قبل أوغسطس الهدية ووافق على وجود هذه العبادة فى مناطق أخرى من الولايات الشرقية [٧٣]، وقد ظهرت فى الغرب هذه العبادة الإمبراطورية الآتية من الشرق، ففى سنة ١٢ ق.م. دشن دروزس Drusus ربيب أوغسطس مذبحا لروما وأوغسطس فى Lugdunum [٧٤] (ليون الحالية)، وأقيم آخر فى كولونى Cologne، وقبل موت أوغسطس كان لدى كل ولاية فى الشرق على الأقل مذبح أو معبد كرس لروما وأوغسطس، وقد ارتضى الإمبراطور كل ذلك وشجعه حيث وجد فيه مصدرا يحقق الاحترام السياسى والولاء الإمبراطورى [٧٥].

وعلى الرغم من أن الإمبراطور قد أعطى تأييده لعبادة روما وأوغسطس فى

---

(68) Cary, op. cit. p. 510.
(69) Boak, op. cit. p. 273.
(70) Cary , op. cit. p. 510.
(71) Boak, op. cit. p. 273.
(72) Id.
(73) Cory, op. cit. p. 510.
(74) Id.

(٧٥) انظر: تراث العالم القديم، جـ١ ص ٣٠٠-٣٠١ وأيضاً:

Boak, op. cit. p. 273

مختلف الولايات الشرقية، وبدأها فى غالة وجرمانيا، لم ينتظر أهالى إيطاليا موته حتى يعبدوه، فسرعان ما شيدت المعابد باسمه فى غالبية المدن، وقد سمح الإمبراطور ــ على مضض ــ بعبادته فى روما وقصر ذلك على المعدمين فقط(٧٦). ولم يكن أوغسطس يرحب بهذه العبادة فى روما وإيطاليا لأنه سيبدو بذلك فى نظر الشعب الرومانى ناكراً كونه زعيماً رومانياً يستمد سلطته من الشعب الرومانى، وبذلك سوف يطبع حكومته بطابع المونلركية الأوتوقراطية، وكان هو غير راغب فى ذلك (٧٧).

وهكذا كانت العبادة الإمبراطورية فى الولايات دليلاً على السلطة الكاملة لروما وأوغسطس على رعايا الإمبراطورية (٧٨)، وتجمعت الولايات الرومانية كلها حول عبادة واحدة، ولم تكن المدن الهلنستية فقط ــ حيث كانت عبادة الملك شيئاً ثابتاً ــ بل حتى فى جرمانيا وغالة أصبح الجميع مقودين لقبول رئاسة كاهن أعلى(٧٩) .

ولقد شاعت عبادة الأوغسطس بعد موته، وخاصة ذلك الذى يؤلهه السناتو، ولعبت العبادة الإمبراطورية بذلك دوراً بارزاً فى إيجاد الأوتوقراطية، وأصبح ينظر إلى السلطة الإمبراطورية باعتبارها مستمدة من قبل الآلهة، وأضحى كل حاكم يمارس هذه السلطة على كونها موكلة من الأرباب، وصدرت العملة فى نهاية القرن الثانى وأوائل القرن الثالث تشير إلى الترابط التام بين الحكام " كعبادة أرضية" وبين من فوقهم من الأرباب (٨٠) .

غير أن الحماس الذى واكب أول إمبراطور فى هذه العبادة كان مقضياً عليه بالفتور بعد أن استقرت الأمور فى الإمبراطورية، فمن بين خلفاء أوغسطس لم

(76) Cary, op. cit. p. 516.

(77) Boak, op. p. 273.

(٧٨) انظر : تراث العالم القديم جــ١ ص٣٠١، وأيضاً : سباين : تطور الفكر السياسي، جــ٢ ص٢٧٠

(78) Cary, op. cit. p. 511 .

(79) Boak, op. cit. p. 390.

يكن سوى كاليجولا الذى حاول بالقوة فرض العبادة الإمبراطورية على رعيته، ونيرون الذى طالب السناتو بأن يقرر عبادة رسمية فى روما لكلوديوس Divus Claudius (٨١) . الذى كان قد سخر هو نفسه من محاولة تأليهه، أما تيبيريوس Tiberius فقد رفض كل محاولة ترمى إلى تأليهه (٨٢) .

وعلى الرغم من أن عبادة الأباطرة ـ أحياء وأمواتاً ـ كانت من الناحية الدينية أقل إقناعاً حيث لم يكن هناك من يعتقد أن الأباطرة كانوا آلهة، فإن أحد لم يُصَلِّ لهم فى سقمه أو فاقته، إلا أن عبادتهم كانت رمزاً تقليدياً كدليل على الاحترام لرأس الدولة (٨٣) ودليلاً على الولاء للإمبراطورية . وكان الرومان ينظرون إلى عبادة آلهة الدولة بما فيها العبادة الإمبراطورية من وجهة نظر سياسية، معتبرين رفض الاشتراك فى هذه العبادة خيانة ضد الدولة تقابلها عقوبة الإعدام (٨٤) .

وقد آلم الأباطرة كثيراً أن يجدوا المسيحيين لا يشتركون فى تقديس ذواتهم، وكانت المسألة بالنسبة للمسيحيين غاية فى الأهمية لأنها تتصل بجوهر العقيدة المسيحية ذاتها، وكانوا يشعرون أنهم بعبادتهم آلهة الدولة واعترافهم بألوهية الحاكم سوف يخرجون عن هذه العقيدة التوحيدية إلى صفوف الوثنيين، وكانت الكنيسة ترى فى عبادة الإمبراطور ضرباً من الشرك وعبادة الأصنام، وبذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما تعرضوا له من الأذى بسبب هذا الرفض(٨٥). لقد كان ولاء المسيحيين لدينهم فوق ولائهم للدولة (٨٦) .

---

(80) Cary, op. cit. p. 599.

(٨٢) ديورنت : المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٢ ص١٢٤، ١٠٠ .

(83) Jones, Constantine. p. 30.

(٨٤) انظر : تراث العالم القديم، جـ١ ص٣٠٠ وأيضاً Thompson, op. cit. p. 30.

(٨٥) يجب أن ندخل فى اعتبارنا أن احترام السلطة السياسية القائمة، أمر فرضته التعاليم المسيحية منذ البداية، يدل على ذلك قول المسيح " أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله " (متى٢٢/٢١) وما جاء فى رسالة القديس بولس إلى أهل روما " لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة . لأنه ليس سلطان إلا من الله. . . حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله " (١٣/١-٢) .

(86) Davis, A history of Medieval Europe, pp. 11-12 .

وانظر أيضاً : سباين : تطور الفكر السياسى، جـ٢ص٢٦٧ .

كان فى وسع المسيحيين أن يصلوا من أجل الإمبراطور ولكن ليس للإمبراطور (٨٧)، وأن يدعوا للإمبراطورية وإن أبوا أن يحاربوا من أجلها، ذلك أن المسيحيين فى بادئ الأمر كانوا يرفضون الاشتراك فى الخدمة العسكرية للدفاع عن الإمبراطورية (٨٨)، فهم بأدائهم العمل العسكرى ينخرطون فى العبادة الوثنية، وباعتبارهم جنود الرب فإنهم لم يكونوا يستطيعون إعطاء ولائهم لقوة أخرى كانوا فى كثير من الأحيان يساوونها مع الشيطان (٨٩). فالمسيحى كان يدين بالولاء للمسيح لا لقيصر، ويعظم أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم الرومانى، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشاكل قانونية على رؤساء الكنيسة لا على موظفى الدولة (٩٠).

فإذا أضفنا إلى احتقار المسيحيين لآلهة الدولة، ورفضهم عبادة الإمبراطور، وامتناعهم عن الاشتراك فى الخدمة العسكرية، إذا أضفنا إلى ذلك كله رفض أثريائهم قبول تولى المناصب العامة فى الدولة (٩١) مما عد تهرباً من تحمل مسئوليات المجتمع الذى يحتويهم، أدركنا إلى أى حد كان الأباطرة ينظرون إلى الطائفة بعين ملؤها الشك والارتياب .

ونتيجة لهذه النظرة التى أحيط بها المسيحيون من أعين معظم طبقات المجتمع، راح المسيحيون يلتقون خفية، ويعقدون اجتماعاتهم فى سرية، مما زاد الطين بلة، وأوقع بهم تحت دعوى الاتهام بأنهم جماعة سياسية خطيرة يخشى بأسها على سلامة الدولة (٩٢)، خاصة وأن قيام هيئة دينية تجمعهم منفصلة عن الدولة كان يعد شيئاً غريباً تماماً عن الفكر الرومانى عندئذ، فتبعاً للنظم التى كانت

---

(87) Boak, op. p. 396 .

(88) Painter, A history of the Middle Ages , p.13 .

(89) Jones, Constantine, p. 41.

(٩٠) ديورنت : المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣ ص٣٧٢ .

(91) Thompson & Johnson,op. cit. p. 30; Schaff, History of the Christian Church, II. P. 43.

(92) Gibbon. op. oit. p. 83; Painter, op. cit. p. 13.

سائدة فى العصرين.الجمهورى والإمبراطورى كانت مجموعة واحدة من الحكام أو الموظفين تختص بالشئون المدنية والعسكرية والدينية على السواء، وما دام المواطن الرومانى يخضع للعبادات الرسمية للدولة، فقد كان له مطلق الحرية بعد ذلك أن يعتنق ما يريد، ومن ثم لم يكن يسمح للمواطنين باتخاذ عقيدة تتصارع مع السلام الرومانى والنظام العام (٩٣) .

وكان من المستحيل أن تلتقى هذه الفكرة مع عقيدة الكنيسة التى كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة . وكان من المستحيل بالتالى على الأباطرة أن يقبلوا بوجود دولة داخل الدولة .

هكذا توجس الأباطرة خيفة من هذه العقيدة وأتباعها، إلا أنه يجب أن ندخل فى اعتبارنا عند الحديث عن موقف الأباطرة الرومان من المسيحية أن وقتاً طويلاً قد انقضى قبل أن يجذب المسيحيون – كطائفة جديدة – نظر السلطة الإمبراطورية(٩٤)، ذلك أن الحكومة الرومانية ظلت لفترة ما تنظر إلى المسيحيين باعتبارهم طائفة من اليهود (٩٥)، ومن ثم استفاد المسيحيون من اتجاه روما نحوهم(٩٦) . ذلك أن اليهود وقد كانوا جماعة تمارس العبادة التقليدية لأسلافهم، حصلوا منذ زمن مبكر على اعتراف رسمى لهذه الطقوس الخاصة، ونتيجة للاحترام العظيم لعادات وتقاليد الأسلاف، فقد تسامح الرومان مع اليهود، بل ومنحوهم بعض الامتيازات (٩٧) . غير أنه فى نهاية القرن الأول وعلى وجه الخصوص بعد تدمير أورشليم سنة ٧٠ أصبح السبيل ممهداً لسيادة العناصر غير اليهودية بين الطبقات المسيحية، بعد أن أخذت العقيدة الجديدة تنتشر بين الوثنيين، وأضحى من المستحيل أن تتعايش الطائفتان اليهودية والمسيحية طويلاً سوياً بعد ذلك (٩٨) . ومن ثم رأى

(93) Stephenson, op. cit. p. 43.
(94) Gibbon, op. cit. p. 87 .
(95) Painter, op. cit. p. 13.
(96) Boak, op. cit. p. 395.
(97) Jones, Constantine, p. 42.
(98) Boak, op. cit. p. 395.

المسيحيون أن يتحرروا من المبادئ اليهودية وليؤكدوا هذه الحقيقة فإنهم خصوا بالتعظيم أول أيام أسبوع اليهود بدلاً من سبتهم، كما أن المسيحيين كانوا على خلاف اليهود وتمشياً مع عقيدتهم فى التوحيد لا يتسامحون إطلاقاً مع العقائد الأخرى (٩٩) . ونتيجة لذلك غدا المسيحيون فى نظر الرومان ليسوا إلا منشقين متآمرين مبتدعين لعبادة جديدة غير مرغوب فيها (١٠٠) . وقد أدى ذلك بالمسيحيين إلى أن يتعرضوا لنظرة العداء لا من جانب الأباطرة الطغاة فحسب، بل من جانب أباطرة خيرين أمثال تراجان وهادريان، وأنطونينوس بيوس، وماركوس أوريليوس(١٠١) .

وكان نيرون أول الأباطرة المضطهدين لمعتنقى المسيحية كما يخبرنا بذلك لاكتانيتوس (١٠٢) ويؤكد يوسيبيوس (١٠٣) أيضاً هذه الناحية فى قوله إن نيرون بدأ سلسلة إجراءات قاسية وتجند لمحاربة إله الكون، وكان أول إمبراطور أعلن العداء للديانة المسيحية . ويبدو أن هذا الاضطهاد كان راجعاً إلى ما كانت تطالب به الجماهير الغضبى من تقديم كبش فداء للحريق الهائل الذى شب فى روما سنة ٦٤، ولم يجد مستشارو الإمبراطور بداً من إرضاء الجماهير الغاضبة، فأشارت أصابع الاتهام إلى المسيحيين، تلك الطائفة المنعزلة عن المجتمع (١٠٤)، ومنذ ذلك الزمن فصاعداً أصبحت الحكومة الرومانية تنظر إلى المسيحيين باعتبارهم أشخاصاً ذوى نيات عدائية للدولة والمجتمع (١٠٥)، غير أنه مع ذلك لم تكن فى هذا الوقت قوانين أو مراسيم للسناتو أو الإمبراطور سارية المفعول ضد المسيحيين تحرم عليها ممارسة الطقوس الدينية (١٠٦) .

(99) Stephenson, op. cit. p. 43.
(100) Jones, Constantine, p. 42.
(101) Stephenson, op. cit. p. 44.
(102) LACT, mort, pers. 2.
(103) EVSEB, hist. Eccl. II, 22-25.
(104)Baok, op. cit. p. 298 .
(105) Ibid. p. 396.
(106) Gibbon,. op. cit. I, p. 98.

ويخبرنا الكتاب الكنسيون (١٠٧) أيضاً أن دومتيانوس Dometianus (٨١-٩٦) لم يكن أقل طغياناً وقسوة من نيرون، وكان ثانى إمبراطور يتابع سياسة العنف، وعلى الرغم من أن المسيحيين فى آسيا الصغرى قد لاقوا خلال عهده اضطهاداً قاسياً من جانب السلطات المحلية إلا أن البعض (١٠٨) يشك فى وقوع هذا الاضطهاد بالصورة التى يرويها المؤرخون الكنسيون لعدم توافر الأدلة على ذلك .

ويتضح اتجاه الحكومة الرومانية إزاء المسيحيين فى مطلع القرن الثانى من تلك الرسائل التى تبودلت بين بلينى الأصغر Plinius حاكم بيثينا سنة ١١٢ والإمبراطور تراجان (٩٧-١١٧)، وقد جاء فى رسالة بلينى " أن الطريقة التى اتبعتها مع من اتهموا أمامى بأنهم مسيحيون هى هذه : لقد سألتهم هل هم مسيحيون؟ فإذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى وأنذرتهم فى الوقت نفسه بأنهم سيقتلون إذا أصروا على قولهم، فإذا أصروا عليها أمرت بقتلهم، وقد جاء فى رد تراجان على بلينى امتداح تصرفه بأنه غاية فى الحكمة (١٠٩)، كما أمر الإمبراطور بعدم الجد فى البحث عن المسيحيين وعدم السماح لاتهامات مجهولة، ولكن إذا وجد المسيحيون ورفضوا إظهار الولاء للآلهة الرومانية وقعوا بذلك تحت طائلة العقاب (١١٠) . أما هادريان (١١٧-١٣٨) فقد أرسل إلى واليه فى آسيا مينوكيوس الفوندى Minucius Fundanus يأمره أن تعطى للمسيحيين فرصة عادلة للدفاع عن أنفسهم فى محاكمة عادلة، ويجب ألا يتعرض أى مسيحى للعقوبة إلا بعد التحقق من ذلك (١١١)، وأرسل أنطونيوس بيوس (١٣٨-١٦١) إلى الجمعية العامة فى أفسوس رسالة بهذا المعنى أيضاً (١١٢)، ولم يكن اضطهاد المسيحيين فى ليون على عهد ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠) استثناء من

(107) LACT. Mort. Pers. 3; EVSEB, hist. Eccl. III, 17.
(108) Boak, op. cit. p. 396 .
(109) Stephenson, op. cit. p. 44.
(110) EVSEB. Hist. Eccl. III, 33; Schaff, op. cit. II, p.46.
(111) EVSEB. Hist. Eccl. IV, 9.
(112) Ibid. 13 .

السياسة العامة التى درج عليها أباطرة القرن الثانى (١١٣)، وكانت الاضطهادات التى وقعت على عهد هذا الإمبراطور نتيجة لما حل بالبلاد من كوارث نجمت من الفيضانات والأوبئة والحروب، فساد الاعتقاد بأن سبب هذه النكبات راجع إلى الانصراف عن آلهة الرومان وإنكارها، وشارك أوريليوس الجماهير فى ذعرها، أو لعله خضع لها فأصدر فى عام ١٧٧ مرسوماً يقضى بعقاب الشيع الدينية التى تنشر الاضطراب باستثارة أصحاب العقول غير المتزنة بتلقينها عقائد جديدة (١١٤).

وقد خفت حدة الاضطهاد فى عهد كومودوس Commodus (١٨٠-١٩٢) وتحسنت أحوال المسيحيين وتمتعت الكنائس بالسلام (١١٥) ولكن سرعان ما عادت إلى ما كانت عليه بتولى سبتميوس سفروس Septimuis Severus (١٩٣-٢١١) عرش الإمبراطورية وربما كان ذلك راجعاً إلى ما تعرضت إليه الدولة من كوارث لحروبه مع البارثيين (١١٦) وتابع من جديد ماكسيمين قيصر Maximinus (٢٣٥-٢٣٨) سياسة الاضطهاد، وأصدر أمراً بقتل أباء الكنائس باعتبارهم أصحاب المسئولية الأولى عن بث هذه التعاليم، وعلى ذلك كتب أوريجين Orignes اللاهوتى المسيحى الشهير فى القرن الثالث مؤلفه عن الاستشهاد (١١٧) .

هذا الموقف الذى اتخذته الإمبراطورية الرومانية تجاه المسيحية حتى نهاية النصف الأول من القرن الثالث كان يتميز بالطابع المحلى (١١٨) . إذ لم يكن هناك قانون عام يسرى فى الإمبراطورية بأسرها يحدد معاملة المسيحيين، ولكن ذلك ترك لحكام الولايات أنفسهم حسبما يقضى به الصالح العام للإمبراطورية، ورغم هذه الاضطهادات وإجراءات القمع التى اتخذت إلا أنها كانت متقطعة ومتباعدة، ولم تتخذ الحكومة الإمبراطورية إجراءات نشيطة وحاسمة وعامة ضد هذه العقيدة

(113) Boak, op. cit. p.397.

(١١٤) ديورنت : المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣ ص٣٧٥ .

(115) EVSEB. Hist. Eccl. V, 21.

(116) Lebretson & Zeiller, The history of the primitive church, II, p. 753.

(117) EVSEB . hist. Eccl. VI, 28.

(118) Thompson, op. cit. p. 30.

المسيحية [119]، وكان هؤلاء الأباطرة الذين أقدموا على الاضطهاد فى تلك الفترة إذا ما قورنوا بأباطرة النصف الثانى من القرن الثالث – غير عنيفين فى اضطهاداتهم، كما أن الكنيسة نعمت فى عهد كثيرين من أباطرة هذه الفترة بعهود من السلام والهدوء [120]، وخلاصة القول إنه حتى بداية النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى لم يكن هناك مرسوم عام بالاضطهاد، بمعنى أنه لم يكن هناك اضطهاد عام .

غير أن الحال بدأ فى التغيير التام مع بداية النصف الثانى من القرن الثالث، حيث تعد هذه الفترة . التى تمتد حتى سنة ٢٨٤، عندما اعتلى دقلديانوس العرش الإمبراطورى من أحلك الفترات التى مرت بها الإمبراطورية وأشدها خطورة، نتيجة للحروب الأهلية التى وقعت بين قواد الفرق الرومانية فى الولايات المختلفة، وغزوات الجرمان من الشمال والغرب، والفرس من الشرق، وازدياد متطلبات الإمبراطورية واحتياجاتها لمواجهة تلك الأخطار ونقص عدد السكان باستمرار نتيجة تفشى الأمراض والأوبئة والطواعين، وانحطاط الزراعة وتدهور الصناعة وكساد التجارة وانخفاض قيمة العملة، تلك صورة عامة كانت تدعو للتشاؤم والقنوط .

ولقد كان السبب الجذرى لهذه المتاعب التى سادت الإمبراطورية على مدى جيلين يتركز فى عدم انتظام الجيش وفى الطموح السياسى لقواده العسكريين [121] خاصة وأنه لم تكن هناك قاعدة ثابتة لاختيار الجالس على العرش، فقد انتقلت سلطة الاختيار هذه من يد السناتو إلى يد الإمبراطور نفسه خلال القرن الأول الميلادى، فلما ازداد النفوذ العسكرى واختفت طبقة النبلاء الأصيلة، أصبح الأمر معقوداً بإرادة الجنود، وأصبح ولاؤهم المباشر لقادتهم دون روما . وكان الأباطرة ولا شك يتحملون جزءً من هذه الفوضى التى تردى فيها النظام العسكرى الرومانى، ذلك أن الأباطرة كانوا يحجمون عن أن يطعموا الجيش بالعناصر الأرستقراطية خشية استيلاء هؤلاء على السلطة الإمبراطورية حيث أنه لم يكن هناك نظام ثابت فى

(119) Jones, Constantine, p. 43.

(120) Gibbon, op. cit. I, 87 .

(121) Jones, Constantine, p. 2.

وراثة العرش كما أشرنا تواً، هذا بالإضافة إلى أن الطبقة البرجوازية كانت غير راغبة فى هجر أعمالها للالتحاق بالخدمة العسكرية، ومن ثم لم يصبح أمام الأباطرة إلا طريقين لا ثالث لهما لتكوين جيوشهم، إما من العبيد والطبقة العاملة، وإما من أعداء الدولة ذاتها الرابضين على حدودها والمتمثلين فى القبائل الجرمانية. ولا شك أنه كان لهذه الناحية أسوأ الأثر على تكوين الجيش الرومانى الذى أخذ بالتالى يفقد حيويته وأصالته التى امتاز بها فى القرنين الأولين قبل الميلاد وبعده (١٢٢) . وكانت السنة الشهيرة للأباطرة الأربعة ـ سنة ٦٩ ـ قد علمت الجيش أن الإمبراطور يستطيع أن يوجد فى أى مكان خارج روما، غير أن الجيش لم يحاول لمدة قرن تقريباً بعد ذلك استغلال هذه المعرفة، وأدت الحرب الأهلية التى أعقبت مقتل كومودوس عام ١٩٢ إلى نتائج هامة كان أبرزها اقتناع سبتيميوس سفروس بأن القوة العسكرية هى كل شىء وقد تجلى ذلك فى رفعه مرتبات جنوده، ونصيحته إلى ولده قائلاً : " أجزل العطاء للجند ولا تلق بالاً للآخرين " (١٢٣) .

وليس أدل على هذه الفوضى العسكرية، وتدخل الجيش فى شئون الحكم، وما نجم عن ذلك من الحروب الأهلية من أنه فى فترة نصف القرن الواقعة بين عامى ٢٣٥-٢٨٤ تولى عرش الإمبراطورية ستة وعشرون إمبراطورا لم يمت منهم ميتة طبيعية إلا إمبراطور واحد (١٢٤) . وفى غالة وحدها بين سنتى ٢٥٧-٢٧٣ كان هناك خمسة أباطرة (١٢٥) وساعدت الفوضى أيضاً على أن يسيطر أذينة ومن بعده أرملته زنوبيا من تدمر على كل الأقاليم الممتدة من آسيا الصغرى إلى مصر بصورة اضطر معها الإمبراطور جاللينوس Gallienus (٢٦٠-٢٦٧) أن يمنح أذينة لقب قائد الشرق ويجعله رئيساً للفيالق الرومانية على الفرات ومصر(١٢٦).

---

(122) Cantor, Medieval history, p. 28.
(123) Jones, Constantine, p. 2.
(124) Boak, op. cit. p. 401.
(125) Jones, Constantine, p. 2.
(126) Cary, op. cit. p. 725

وزاد الأمر سوءاً ضغط الجرمان على الراين والدانوب، فعلى الراين الأدنى ظهرت عناصر الفرنجة، بينما هدد الألمان أعالى الراين والدانوب، واحتل القوط الدانوب الأدنى واكتسحت قبائلهم ـ على عهد الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١) شبه جزيرة البلقان وعادوا لمهاجمتها ثانية وأخذوا بيزنطة Byzantium بغتة، وعبروا البسفور إلى آسيا الصغرى حيث وقعت معظم مدن بيثينيا فى أيديهم سنة ٢٦٧ [١٢٧]، ولم تنج الإمبراطورية من شرهم إلا بعد أن أوقع بهم الإمبراطور كلوديوس هزيمة ساحقة فى ٢٦٩/٢٧٠ [١٢٨] .

ولم تكن المسألة بقاصرة على الخطر الجرمانى فى الشمال والغرب فقط، بل تعرضت لما هو أسوأ من ذلك على الجبهة الشرقية عند الفرات وتجسد هذا الخطر فى الإمبراطورية الفارسية تحت حكم الأسرة الساسانية القوية، وكانت أوضح صورة لهذا الخطر الداهم تلك التى شهدتها الإمبراطورية فى مطلع النصف الثانى من القرن الثالث عندما استطاعت قوات سابور الفارسى أن تستولى على الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الرومانية، وأن توقع بالإمبراطور فاليريان Valerianus هزيمة قاسية وتأسره سنة ٢٦٠ [١٢٩] . فتعرضت هيبة الإمبراطورية فى الشرق لهزة عنيفة .

فإذا ما أضفنا إلى هذه النواحى ما نجم عنها تبدت حالة الإمبراطورية غاية فى السوء، فدولاب العمل الاقتصادى كان لابد له أن يقفل أبوابه ويتوقف نتيجة لإقفار الأراضى الزراعية من منتجاتها وفلاحيها بسبب الغزوات الخارجية من جانب الجرمان والفرس الذين عاثوا فساداً فى أراضى الإمبراطورية فى الشمال والغرب والشرق، ولم يكن خطر الحروب الأهلية أقل شأناً من الخطر الخارجى، وأثر خراب الأراضى الزراعية وضعف الإنتاج على الناحيتين الصناعية والتجارية، وتوقفت الأخيرة أيضاً نتيجة اضطراب الأمن وعدم صلاحية طرق

(127) Boak, op. cit. p. 408.
(128) Cary, op. cit. p. 727.
(129) Gibbon, op. cit. I, p. 290.

المواصلات لسبب أو لآخر . ومع ازدياد عدد المتنافسين على عرش الإمبراطورية الطامعين فيه، ازداد عدد الجيش بما حاوله كل منهم أن يجمعه من الجنود، وترتب على ذلك زيادة أعطياتهم، ولم يكن من سبيل لزيادة الدخل لسد هذه النفقات الجديدة إلا عن طريق زيادة الضرائب التى أثقلت كواهل الأهلين، ومزقت الأوبئة شمل الصحة العامة فى الإمبراطورية . فغرقت هذه نتيجة هذا كله حتى آذانها فى حالة من الأعياء الشامل والشلل التام، ولم ينقذها من هذا الهول إلا اعتلاء دقلديانوس عرشها سنة ٢٨٤ .

ولقد عبر المؤرخ جونز (١٣٠) عن هذه الحالة أحسن تعبير بقوله " لقد اختفت التقاليد القديمة وعاطفة الولاء، حقاً لقد كان الرجال فخورين بأنهم مواطنون رومان وليسوا برابرة، ولكن عاطفة الولاء لم تحرك أحداً منهم ليضحى من أجل روما بحياته أو ماله، لقد كانت الإمبراطورية شديدة الاتساع، وكان الأباطرة بعيدين جداً عن القدرة على إحياء أية عاطفة سوى شعور الخوف . لقد كانت العواطف التى تعتمد عليها الإمبراطورية عواطف ولاء محلية، فالجندى يحارب من أجل شرف فرقته أو قائده، وحاكم المدينة يعمل وينفق ماله من أجل مدينته، والقواد والإداريون وطبقة السناتو والفرسان يتحركون بدافع الطبقية أكثر منها خدمة الإمبراطورية . لقد اختفى شعور النبالة الملزمة بين الطبقة الأرستقراطية، وانتهى الإحساس بحب الوطن من قلوب الطبقة المتوسطة، وانحل النظام بين جحافل الجند . لقد ضاع كل شىء ! "

على الرغم من كل ذلك، وفى نفس الوقت نتيجة لكل ذلك، وبدافع الرغبة فى الإنقاذ، حمل عدة أباطرة فى هذه الفترة أملاً كبيراً فى تجميع كل العناصر السكانية فى الإمبراطورية كجبهة متحدة فى مواجهة أعداء الدولة، وكان المسيحيون بالطبع ضمن هذه العناصر التى كان الأباطرة يعلقون عليها الآمال(١٣١)، غير أن خيبة الأمل لاحقت الأباطرة فى هذه النظرة، ذلك أنه فى وسط هذا الجو المتوتر المخيف

(130) Jones, Constantine, p. 11.
(131) Boak, op. cit. p. 400 .

اجتاحت الإمبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية، هرع على أثرها الرجال والنساء إلى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون إليها بالصلوات والدعوات، في الوقت الذى وقف فيه المسيحيون على البعد وقفة المتفرج الذى لا يعنيه الأمر، وظلوا كسابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها ويسخرون من الآلهة، يشجعهم على التمادى فى ذلك زعماؤهم (١٣٢)، ويفسرون انهيار الإمبراطورية بأنه هو البشرى التى وردت فى النبوءات عن تدمير " بابل " وعودة المسيح (١٣٣) .

وقد رأى الإمبراطور دكيوس فى حالة الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية روح الحماس الوطنى والوحدة القومية، فأصدر مرسوماً يطلب فيه إلى جميع سكان الإمبراطورية أن يتقدموا إلى آلهة روما بعمل يتقربون به إليها ويردون به غضبها . ويلوح أنه لم يطلب إلى المسيحيين التنكر لدينهم، بل أمروا أن يشتركوا فى التوسل إلى الآلهة التى طالما أنقذت روما من الخطر المحدق بها كما كان يعتقد العامة (١٣٤) . وكان النجاح الظاهرى لهذه الإجراءات واضحا جلياً فقد استسلم آلاف من المسيحيين – خاصة الطبقات الأرستقراطية – لقرارات الإمبراطور، هذا فى الوقت الذى اختفى فيه كثيرون منهم، وتحدى بعضهم الثالث الحكومة فكان جزاؤه الاضطهاد والتعذيب والإعدام (١٣٥) .

هكذا صدر أول مرسوم عام بالاضطهاد فى محاولة للخروج من الأزمة الطاحنة، وكان دكيوس أول الأباطرة الذين جعلوا الاضطهاد عاماً فى الإمبراطورية، بعد أن كان فيما سبق يمتاز بالطابع المحلى (١٣٦)، وقد قتل فى هذا الاضطهاد فابيانوس Fabianus أسقف روما، واسكندر Alexander أسقف أورشليم، وبابيلاس Babylas أسقف أنطاكية، كما عذب أوريجين السكندرى وديونيسيوس Dionysius أسقف الإسكندرية، هذا بالإضافة إلى أعداد كثيرة

(132) Boak, op. cit. p. 400 .

(١٣٣) ديورنت : المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣ ص٣٧٧ .

(134) Lebretson & Zeiller, op. cit. II, pp. 793-797 .

(135) Id. ; Jones, Constantine,p. 44 .

(136) Thompson & Johnson, op. cit. p. 30.

أحرقت أو ألقيت لتفترسها الحيوانات فى الاحتفالات والأعياد على حد روايات مؤرخى الكنيسة (١٣٧).

وقد انتهى اضطهاد دكيوس بموته سنة ٢٥١، غير أن سياسته سرعان ما عادت من جديد على عهد فاليريان سنة ٢٥٧ (١٣٨) . فنتيجة لأزمة أخرى بثت الرعب فى نفوس الإمبراطور والرومان، تمثلت فى الأخطار التى كانت تهدد الإمبراطور من كل ناحية، فالفرنجة والألمان وقبائل جرمانية أخرى تهدد الراين، والقوط يهددون شواطئ البحر الأسود وبحر إيجة، وثورات البربر فى شمال أفريقيا لا تهدأ، والغزو الفارسى للولايات الشرقية سائر قدماً (١٣٩)، نتيجة لكل ذلك أمر الإمبراطور أن يمتثل كل شخص للشعائر الرومانية، وأن يقوم الجميع بتقديم القرابين للأرباب، وحرم الاجتماعات المسيحية (١٤٠)، ثم قام باضطهاد المخالفين وإعدام عدد كبير من الأساقفة والقساوسة (١٤١)، وتعرض أسقفا الإسكندرية فى عهده ديونيسيوس وخلفه ماكسيموس لأشد أنواع الاضطهاد ونفياً إلى ليبيا (١٤٢) . وأنهى الإمبراطور فاليريان اضطهاده بوقوعه أسيراً فى يد الفرس سنة ٢٦٠ .

وكان موت هؤلاء الأباطرة المضطهدين وغيرهم بالطريقة التى تم بها من الاغتيال والأسر وما شاكله – فى نظر مؤرخى الكنيسة – انتقاماً عدلاً من الرب الذى كان لأعداء رعيته بالمرصاد،ومن ثم عد مقتل دكيوس وأسر فاليريان ضرباً من ضروب الانتقام الإلهى (١٤٣) .

ولقد نعمت المسيحية بفترة من السلام والهدوء دامت أربعين عاماً دخل الناس خلالها فيها أفواجاً، بعد أن أخذوا يفرون من أربابهم الذين لم يجدوا لديهم المأوى، والذين لم يستطيعوا حماية الدولة من أعدائها، ووجدوا السلوى فى

---

(137) EVSEB, hist. Eccl. VI, 39-40.
(138) Boak, op. cit. p. 413.
(139) Lebretson & Zeiller op. cit. II, p. 801; Gibbon op. cit. I, p. 274-290 .
(140) Latourette, A History of Chistianity, pp. 88-89
(141) Jones, Constantine, p. 44
(142) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 11 .
(143) LACT. Mort. Pers. 2-6 EVSEB . hist . eccl. VI, 28,3940. VII, 13.

المسيحية أكثر مما وجدوها فى غيرها .ونتيجة لتحول عدد من الأغنياء إلى المسيحية، شيدت الكنائس الفخمة فى كثير من المدن (١٤٤) . وترتب على ذلك أيضاً أن أخذت الاعتراضات على تولى الوظائف العامة من جانب أثرياء المسيحيين تتوارى، بل وأصبح المسيحيون حكاماً للولايات (١٤٥)، ووجد منهم أيضاً من يحتل مناصب عليا فى البلاط الإمبراطورى (١٤٦) . وكانت هذه الفترة من السلام فرصة كبيرة للكنيسة كى تستكمل فيها بناءها وتنظيمها الداخلى، وأصبح التقليد العملى أن يجتمع أساقفة كل إقليم أو ولاية فى عاصمتها بصورة منظمة، كما كان لأسقف العاصمة أو المطران سلطات معينة على المناطق التابعة لمطرانيته، وأخذ التنظيم الكنسى يميل إلى تشكيل نفسه على أسس مدنية، فأصبحت المدينة التى يقيم فيها نائب الحاكم المركز الطبيعى للاجتماعات الكبرى، وحصل أسقفها على سلطات واسعة فى دائرة اختصاصه، فقد اعترف بقرطاجنة كعاصمة دينية لأفريقيا، وأنطاكية للشرق عدا مصر حيث تبوأت الإسكندرية مركزاً مرموقاً (١٤٧).

ولقد كان الإمبراطور جاللينوس صاحب الفضل الأول فى بدء إقرار هذه الفترة من الهدوء بالنسبة للمسيحية، ذلك أنه أصدر مرسوماً سنة ٢٦١ يعد أول مرسوم يقضى بالتسامح الدينى، اعترف فيه بأن المسيحية مسموح بها، وأمر بأن يرد إلى المسيحيين ما كان قد صودر من أملاكهم (١٤٨) . وذلك بعد أحد عشر عاماً من صدور مرسوم عام بالاضطهاد على يد الإمبراطور دكيوس، وقد حفظ لنا المؤرخ الكنسى يوسيبيوس صورة رسالة موجهة من الإمبراطور إلى أسقف الإسكندرية وأسقف أنطاكية جاء فيها : " لقد أصدرت أمرى بإغداق هباتى على كل العالم، وأن يبتعدوا (الوثنيين) عن أماكن العبادة (الخاصة بالمسيحيين) ولهذا يمكنكم استخدام هذه الصورة من أمرى كى لا يزعجكم أحد " (١٤٩).

---

(144) Jones, Constantine, p. 44.
(145) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 1.
(146) Boak, op. cit. p. 423 .
(147) Jones, Constantine, p. 45 .
(148) Lebreton & Zeiller, op. cit. II, p. 806.
(149) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 13-15.

وهكذا أقدم الإمبراطور جاللينيوس على خطوة جريئة لم يسبقه إليها إمبراطور، وسبق هو بها ما صدر من مراسيم بعد ذلك سنة ٣١١ على عهد جاليريوس وسنة ٣١٣ من جانب قسطنطين وليكينيوس، وحظيت المسيحية لأول مرة على صك حكومى (١٥٠)- يرفع عن كاهل أتباعها ويلات الاضطهاد ويسمح لهؤلاء بممارسة طقوسهم الدينية، ويحرم على الوثنيين التعرض لدور العبادة المسيحية .

غير أن مرسوم جاللينوس لم يلق من العناية أو الاهتمام – من جانب الدارسين – ما لقيه أمثاله من المراسيم التى صدرت بعد ذلك، بل إن هذا المرسوم لم يؤخذ مأخذ الجد من جانب حكام الولايات، مما يدل على عظم نفوذهم فى هذه الفترة، ويعد هذا شيئاً طبيعياً فى وقت هوت فيه الإمبراطورية إلى درجة كبيرة من الفوضى والانحلال ضاعت معها سلطة الأباطرة . ويشهد على ذلك ما ذكره يوسيبيوس (١٥١) من أن ماكرينوس Macrinus والى مصر كان لا يزال صاحب نفوذ كبير، وقد تلكأ فى تنفيذ أوامر الإمبراطور مما أدى إلى مقتل مارينوس Marinus أحد رجال قيسارية فلسطين الشهيرين، وحتى الأباطرة أنفسهم الذين خلفوا جاللينوس لم يلقوا بالاً فى غمرة صراعاتهم الداخلية والأخطار الخارجية – إلى هذا المرسوم، فألمت على عهودهم بالمسيحيين بعض من اضطهادات .

وفى عام ٢٨٤ اعتلى دقلديانوس Diocletianus عرش الإمبراطورية، فولى ظهره لروما، تلك العاصمة الإمبراطورية التليدة، والتى أضحت منذ مدة طويلة غير ذات مقام للأباطرة، واتخذ من نيقوميديا Nicomedia بآسيا الصغرى عاصمة جديدة له، فأضحى بذلك على مقربة من التقاليد الهلنستية والأوتوقراطية الفارسية، فنهل من هذه وتلك فى سبيل إعادة شباب الإمبراطورية لإنقاذها من أزمة القرن الثالث الطاحنة.

تتلخص إصلاحات دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥) فى تقرير بناء حكم مركزى

(150) Schaff, op. cit. II, p. 63.
(151) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 15 .

صارم، وإدخال نظام بيروقراطى واسع المدى، وأيضاً بفصل تام بين السلطتين المدنية والعسكرية، فأخذت الإمبراطورية بذلك تؤكد ما كانت قد بدأت تنحو إليه منذ زمن مبكر وهو مركزية السلطة (١٥٢) . ولما كان دقلديانوس قد أمضى من حياته فترة طويلة فى نيقوميديا . وكان على العموم ميالاً للشرق، فإنه اقتبس كثيراً من سمات الملكيات الشرقية . لقد كان أوتوقراطياً صرفاً، وإمبراطوراً إلهاً متحلياً بالتاج الإمبراطورى، وجد البذخ الشرقى والطقوس الحافلة طريقاً إلى بلاطه، وكان على رعاياه إذا ما سمح لهم بالمثول بين يديه، أن يخروا سجداً قبل أن تجرؤ عيونهم على أن ترمق صاحب الجلالة، فلقد كان لكل ما يخص الإمبراطور قداسة، كلماته، بلاطه، خزانته، إذ كان الإمبراطور نفسه مقدساً (١٥٣) .

وفى سبيل تنظيم الإدارة الإمبراطورية الشاسعة استحدث دقلديانوس نظام "الحكومة الرباعية" التى كانت تضم أوغسطسين لكل منهما سلطة مطلقة، يقيم أحدهما فى الشرق ـ وكان ذلك هو دقلديانوس نفسه ـ والآخر فى الغرب وهو ماكسيميان Maximianus . ويعين كل منهما قيصراً يحل محله عند وفاته أو اعتزاله وهما جاليريوس وقسطنطيوس . وكان قصد دقلديانوس بذلك أن يفوت الفرصة على الفيالق الرومانية وتدخلها فى اختيار الأباطرة، غير أن نظامه سرعان ما عصفت به الأنواء بعد اعتزاله بعام واحد .

على أن سمعة دقلديانوس قاست كثيراً من جراء اتهامه بالمسئولية الأولى فى الإقدام على البدء بالاضطهاد الأخير والأعظم للمسيحيين، ومعلوماتنا عن هذه النقطة نستقيها من مصدرين هامين خلفهما لنا كاتبان مسيحيان عاصرا أحداث تلك الفترة .

فينبئنا يوسيبيوس أن الاضطهاد قد وقع فى السنة التاسعة عشرة من حكم دقلديانوس (١٥٤) . أى عام ٣٠٣ . ويصور أسباب هذا الاضطهاد فى صورة تحذير

(152) Vasiliev, History of the Byzantin Empire, 1, p.60 .

(153) Ibid. p. 62 .

(154) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 2.

إلهى لجماعة المسيحيين حتى يتطهروا من أدرانهم فيقول : " عندما سقطنا فى التراخى والكسل بسبب زيادة الحرية، وصرنا نحسد ونهين بعضنا بعضاً، والشعب يؤلف الأحزاب ضد الشعب، وبلغ الرياء والنفاق أعظم حدود الشر، فإن العدل الإلهى سمح بإزعاج الكنيسة " (١٥٥).

غير أن هذا القول لا ينقع غلة، فالذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة من عبارة يوسيبيوس أنه يقصد بهذا القول ذلك النزاع العقائدى الذى نشأ بين الفرق المسيحية المختلفة، ولم يكن هذا الأمر يعنى الإمبراطورية فى شىء إلا الخوف من حدوث الشقاق والانقسام بين رعايا الدولة مما يهدد وحدتها. ولكن السلطة الإمبراطورية فى هذه الفترة كانت تنظر إلى المسيحية باعتبارها كلاً واحداً كطائفة قائمة بذاتها، بكل ما فيها من عناصر الاختلاف والفرقة حول المشاكل العقائدية التى لم تكن تعنى الدولة فى شىء، ومن ثم لا يمكن أن يكون النزاع العقائدى والخوف من مغبة الانقسام سبباً فى هذا الاضطهاد الدقلديانى . أما مسألة " العدل الإلهى " الذى سمح بإزعاج الكنيسة، فذلك شىء لا يفسر تماماً هذه الناحية . أما لاكتانتيوس وكان يقيم فى نيقوميديا آنئذ، فإنه يسوق حادثة طريفة كانت شرارة البدء فى هذا الاضطهاد، ذلك أنه حدث أثناء قيام الإمبراطور وقيصره جاليريوس بتقريب الأضحيات الإلهية ــ كسباً لرضاها ــ أن أراد استطلاع الغيب والكشف عما يخبئه القدر للإمبراطورية، وتصادف وجود عدد من المسيحيين من موظفى البلاط أثناء ذلك الاحتفال وقد رسموا شارة الصليب ليتقوا بها كافة الشرور، فلما نحرت الأضحيات، وفحصت أكبادها لاستطلاع ذلك المجهول، عجز العرافون عن التنبؤ بشىء، فأعادوا الكرة ثانية دون جدوى، فارتعدوا وأعلن زعيمهم تاجيس Tagis أن ذلك راجع إلى وجود أفراد ملحدين فى الاحتفال . وهنا جن جنون دقلديانوس كما يروى لاكتانتيوس (١٥٦) ــ وأمر ــ ليس أولئك الموجودين فحسب، بل كل من يقيم فى القصر، بتقريب القرابين للأرباب، على أن يجلد أى

(155)EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 1.
(156) LACT. Mort. Pers. 10.

فرد يأبى ذلك، وسرعان ما صدرت الخطابات منه إلى قواده حاملة أوامره بوجوب تنفيذ الجنود جميعاً لهذه التعليمات وإلا تعرضوا للطرد من الخدمة نهائياً .

ويبسط لاكتانتيوس المسألة فى صورة غريبة حقاً، فهو ينفى عن دقلديانوس تهمة الرغبة الحقيقية فى إشعال نيران هذا الاضطهاد، ويعزوها كلية إلى قيصره جاليريوس، ويذكر أن هذا القيصر كان واقعاً تحت تأثير أمه التى كانت تتعلق بآلهة الجبال، وتضحى لها باستمرار، وحدث فى إحدى المرات أثناء تقريبها الأضحيات أنه لم يشترك معها أحد من أفراد أسرتها الذين كانوا قد تحولوا إلى المسيحية، فتسلطت عليها روح شريرة ورغبة جامحة فى الخلاص من هؤلاء المسيحيين، ومن ثم أوحت إلى ابنها بذلك، فانتهز فرصة وجود دقلديانوس فى بيثينيا وعقد معه عدة اجتماعات ثنائية لم يحضرها أحد غيرهما، تناولت بالطبع شئون الإمبراطورية ومن بينها مشكلة المسيحيين هذه (١٥٧) .

ويضيف مؤرخنا أن دقلديانوس عارض طويلاً إلحاح جاليريوس موضحاً له الضرار البالغ والاضطرابات التى سيشهدها العالم الرومانى، وكم من الدماء سيراق من جراء ذلك لأن المسيحيين – كما يعلم – سوف يقبلون على الموت غير مترددين، وأن ذلك لابد وأن يشمل عدداً كبيراً منهم سواء فى البلاط أو فى الجيش، ولكن دقلديانوس لم يستطع أن يكبح جماح ذلك الرجل العنيد، ومن أجل ذلك عزم على الأخذ برأى أصدقائه ومستشاريه، فدعاهم إليه وطرح المسألة أمامهم، فوقف عدد منهم ينادى بوجوب استئصال شأفة المسيحيين، أما الآخرون الذين كانوا يفكرون بطريقة مختلفة تماماً عن ذلك، وقد فطنوا إلى أغراض جاليريوس سواء بالخوف من إثارة غضبه، أو الرغبة فى إدخال السرور على قلبه – انضموا لأصحاب الرأى الأول . غير أن الإمبراطور مع ذلك لم يذعن وعزم على استلهام وحى الآلهة، فبعث من يأتى له برأى الإله أبوللو . الذى كانت إجابته على حد قوله لاكتانتيوس معروفة مقدماً كعدو للديانة المسيحية، وهكذا استميل دقلديانوس ولم يستطع مقاومة قيصره ومستشاريه وربه، وكان راغباً فى إتمام هذه الإجراءات

(157) LACT. Mort. Pers. 11.

بشيء من الاعتدال دون إراقة الدماء بينما أمر جاليريوس أن يحرق حياً كل من يرفض تقريب القرابين (١٥٨) .

تلك صورة يرسمها لاكتانتيوس للإمبراطور دقلديانوس، ويؤكد هذه المسألة بقوله إن الإمبراطور كان يخشى جاليريوس تماماً، ويقيم له كل اعتبار منذ قام ملك الفرس نارسيوس Narseus بشن حرب على الإمبراطورية يبغى من ورائها الاستيلاء على أقاليمها الشرقية، ولما كان دقلديانوس يخشى أن يشرب من كأس الأسر الذى تجرعه فاليريان من قبله، فقد بعث بجاليريوس لمقابلته، بينما قبع هو فى الأقاليم الشرقية، فلما انتصر جاليريوس ازداد دقلديانوس هلعاً منه وخشية(١٥٩).

إذن فالصورة التى رسمتها ريشة لاكتانتيوس توضح دقلديانوس رجلاً حذراً بصيراً بالعواقب، عندما راح يجادل جاليريوس الرأى حول النتائج الخطيرة التى ستنجم عن الإقدام على هذه السياسة، وما سيصيب الإمبراطورية من جراء ذلك من بالغ الضرر، ولكنه إلى جانب ذلك رجل مسلوب الإرادة، على حين قيصره جاليريوس ـ رغم كونه الرجل الثالث فى الإمبراطورية ـ الرجل الأقوى الذى ينفذ دائماً ما يبتغى وفى الوقت الذى يريد، وسنجد أن لاكتانتيوس يضرب بصفة مستمرة على أوتار الضعف لدى دقلديانوس عند مسألة الإقدام على إحراق كنيسة نيقوميديا، أو ازدياد العنف والصرامة فى مراسيم الاضطهاد، أو عند اعتزاله واختيار من يخلفه، ومن ثم يبدو جاليريوس المحرك الأساسى لهذه الأحداث جميعها، ولقد أقدم دقلديانوس ـ رغم علمه بخطأ ما هو عليه مقدم ـ على حرمان المعترفين بقانون الإيمان المسيحى من البقاء داخل جدران قصره، أو تحت النسر الرومانى فى جيشه، وكان ذلك بالطبع كريهاً إلى نفسه، كما يعتقد لاكتانتيوس، لسابق معرفته بما سوف يخسره الجيش والإدارة من جراء هذه السياسة .

ولكن هل يعقل أن رجلاً كدقلديانوس ذلك الإمبراطور القدير كما برهن عن نفسه دائماً فى سياسته، فعلى الرغم من أنه لم يكن قائداً عسكرياً ماهراً على

---

(158) LACT. Mort. Pers. II.

(159) Ibid. 9.

غرار من سبقه من الأباطرة، إلا أنه كان يتمتع بمقدرة إدارية فائقة (١٦٠) . وهذا واضح خلال ثمانية عشر عاماً قضاها منذ بداية حكمه، حتى انفجار ذلك الاضطهاد، فى إصلاح شئون الإمبراطورية وتنظيم أمورها وانتشالها من وهدتها التى ترددت فيها طيلة نصف قرن كامل أو يزيد (١٦١) . هل يعقل أن رجلاً هذا شأنه يلقى بقياد أمره ويستسلم ببساطة إلى لجاجة وإلحاح رجل آخر يعد صنيعته، وأحد أتباعه ؟ ويقدم على اتخاذ خطوات غاية فى الخطورة كان يعلم هو مقدماً ما الذى ستؤدى إليه فى داخل الإمبراطورية لا لشىء سوى أن قيصره أراد ذلك ؟

إذن فلنبحث عن شىء آخر يقودنا إلى حقيقة ذلك الأمر .

ونطرح المسألة فى صيغة سؤال : ما الذى دفع دقلديانوس بعد ثمانية عشر عاماً لأن يغير سياسته تجاه المسيحيين ؟

لا يمكن القول مطلقاً أن إقدام الإمبراطور على الاضطهاد كان استجابة لثورة جماهيرية غاضبة كما شهدناه يحدث مثلاً على عهدى دكيوس وفاليريان، فالأمور فى الإمبراطورية كانت مستقرة بوجه عام فى هذه الآونة سنة ٣٠٣، ولم تكن هناك أخطار خارجية تهددها، وكان دقلديانوس قد أعاد تنظيم الإدارة الإمبراطورية، والجيش الرومانى، والأحوال الاقتصادية وكافة شئون الدولة . وعلى ذلك لم يكن هناك غضب جماهيرى يتأجج فى صدور الأهلين يطالب بالانتقام من المسيحيين لسبب أو لآخـــر .

كما أنه لا يمكن القول أيضاً أن هذا الاضطهاد جاء نتيجة لوحى إلهى تلقاه الكهنة وأبلغوه إلى الإمبراطور فأقدم على تنفيذه فالمسيحيون كانوا يحتلون كثيراً من المناصب العامة فى الإدارة وحكومات الولايات والجيش والقصر الإمبراطورى ذاته، ولم يحاول دقلديانوس طوال الثمانى عشرة سنة أن يستجيب لنداء كهنوتى صادر من الأرباب ضد هذه الجماعة .

(160) Cary, op. cit. p. 730 .

(161) Boak, op. cit. p. 428.

ويعلل بوركهات (١٦٢) هذا التغير فى سياسة دقلديانوس باكتشاف مؤامرة بين المسيحيين ترمى إلى قلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة، ولكن بوركهات لا يعطينا فى نفس الوقت تبريراً معقولاً قاد المسيحيين إلى الثورة أو الإقدام على خيانة إمبراطور أبدى لهم من التسامح الكثير خلال فترة طويلة من عهده بل إن ما يقوله بوركهارت لا يتفق مطلقاً مع العقل، إذ كيف يمكن أن يقدم المسيحيون على تدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم وهم آنذاك لا يملكون أى قدر من مقومات هذه المؤامرة، فعددهم لم يكن قد وصل حتى إلى عُشر سكان الإمبراطورية، وهو العشر المستضعف الذى لا حول له ولا قوة، والجيش كله – دعامة الانقلاب– كان على الوثنية، وكبار موظفى الدولة كانوا كذلك . فكيف يمكن أن يدور بخلد نفر من المسيحيين يعملون فى القصر تدبير انقلاب للاستيلاء على السلطة ؟!

ويقدم آخر (١٦٣) تعليلاً ثانياً لذلك فحواه أن عدداً من موظفى القصر والخدم المسيحيين لدى دقلديانوس كانوا يخشون ما سيحدث لهم عقب خلافة جاليريوس للإمبراطور لما يعرفونه عنه من عداء للمسيحية والمسيحيين، وأنهم – على الأقل– إن لم تنلهم أيدى التعذيب فلا أقل من أن تمتد إليهم يد الطرد من الخدمة، وعليه فقد سعوا جاهدين لدى دقلديانوس ليبعد جاليريوس عن طريق خلافة العرش، ومحاولة الاحتفاظ بالعرش لشخص يرون فيه تعاطفاً مع المسيحيين، وربما قسطنطين الذى كان يقيم عندئذ فى بلاط دقلديانوس، وكان مكروهاً من جاليريوس كرهاً عميقاً، بل لقد ذهب الأمل ببعضهم إلى حد الاعتقاد بأنه يمكن تحويل دقلديانوس إلى المسيحية، والتأثير عليه بسهولة آنذاك لإقصاء جاليريوس عن عرش الإمبراطرية المتوقع . وعلى الرغم من أنه لم يكن يدور بخلد أى منهم شيء عن الغدر أو الخيانة، إلا أن تحركاتهم كانت كافية لإثارة الشك والارتياب لدى القيصر نفسه، والذى كان الأمر يهمه كثيراً .وكان أيضاً على علم تام بما يحمله المسيحيون له من حقد دفين، ومن ثم دفعه ذلك إلى أن يختلى بدقلديانوس فى شتاء سنة ٣٠٣ ويعقدا

(162) Burckhardt, The age of Constantine the great, pp. 250-251 .

(163) Mc Giffert, notes on (EVSEB. Hist. Eccl.) Nicene and N.P.N.F.1, pp. 398-399

معاً اجتماعات سرية ومع تحركاته لدى الإمبراطور، ازداد خوف مسيحيى القصر فى نياته، وهكذا نتصور أنه بينما كان جاليريوس يفتش عن الأدلة التى تثبت التآمر ضده، كان التآمر نفسه ينمو ويأخذ شكلاً معيناً – على الأقل فى نفوس بعض الجسورين من المسيحيين، ونتيجة لذلك تجمعت الأدلة التى كانت كافية حتى لتقنع دقلديانوس نفسه بأن هناك بالفعل تآمراً، وأن المتآمرين مسيحيون ؛ ولعل ما ذكرناه عن الرأى الأول ينسحب تلقائياً على هذا الرأى .

ويضيف صاحب هذا الرأى أنه ارتفع فى هذه الآونة لدى دقلديانوس سؤال عن الخطة التى سوف تتبع إزاء هذه الأحداث ؟ وقد نتج عن ذلك تلك الدعوة التى وجهت إلى مستشارى الإمبراطور وكهنة أبوللو كما أسلفنا . ويقول إن جاليريوس كان يرغب فى إبادة المسيحيين عامة لعلمه بعداوتهم ضده، لكن دقلديانوس كان يريد معاقبة من اشترك فى التآمر فقط، وعلى الرغم من أنه اقتنع أن المسيحيين عامة قد اشتركوا فيه، إلا أن قراراته الأولى فى هذا الصدد تؤكد رغبته، فبدلا من إصدار مرسوم ضد المسيحيين عامة وجه دقلديانوس ضرباته أولاً إلى المسيحيين فى الدوائر الحكومية والوظائف العامة والخدم فى القصر الإمبراطورى، ولا شك أن هذه الإجراءات ليست إجراءات إمبراطور يضطهد لأسباب دينية (١٦٤).

خلاصة القول أن صاحب هذا الرأى يؤكد أن الأسباب التى دفعت دقلديانوس إلى هذا الاضطهاد كانت أسباباً سياسية وليست دينية (١٦٥) .

ويزيد الأمر تعقيداً ذلك الصمت من جانب يوساب، والتحفظ من ناحية لاكتانتيوس فالأول كما قدمنا يعلل المسألة تعليلاً دينياً صرفا ويضفى عليها طابع العدل الإلهى بعد أن فسد المسيحيون على حد قوله ولا يعطينا أى سبب واقعى لهذا الاضطهاد، على خلاف ما ذكره مثلاً عن الاضطهاد الذى وقع على عهدى دكيوس وفاليريان .

(164) Mc Griffert, op. cit. p.p. 398-399 .

(165) Id .

أما لاكتانتيوس فيسوق القصة التى أوردناها عما اعتقد أنه سبب كاف للاضطهاد ويقدم لها بقوله " لقد نما إلى علمى أن سبب غضبه (يعنى دقلديانوس) كان كما يلى، ثم يورد القصة التى قدمناها . فإذا أضفنا تحفظ لاكتانتيوس إلى محاولاته المتكررة الدفاع عن دقلديانوس بتجريده من إرادته وتسليم قيادته إلى قيصره، أدركنا أنه ربما كان هناك دافع معين حدا بلاكتانتيوس إلى ذلك، خاصة وأنه كان يقيم فى نيقوميديا، وعلى مقربة من القصر الإمبراطورى، وذلك شيء يمكنه من أن يغدو شاهد عيان لتلك الأحداث وما يدور فى الخفاء .

قد يكون من معقول القول أن لاكتانتيوس كان يدافع عن دقلديانوس ـ ولا نقصد بالدفاع هنا وقوفه فى صفه وإنما محاولته نفى أو على الأقل تخفيف اتهامه بالمسئولية الكاملة عن هذه الاضطهادات – حفظاً لمعروف أسداه إليه دقلديانوس . ذلك أن الإمبراطور دقلديانوس كان قد استدعى لاكتانتيوس من أفريقيا وعيَّنه معلماً للبيان فى نيقوميديا، وكان هذا فى حد ذاته تقديراً للكاتب المسيحى الذى رأى أن يرد على الإمبراطور تلك اليد البيضاء، فحاول جاهداً إنصافه من التورط الكامل فى مسئولية الاضطهاد . ولعل هذا يبرر موقف كاتبنا .

لقد كان دقلديانوس خير أنموذج للحاكم الأوتوقراطى الذى أراد أن يجمع السلطة المركزية كلها فى يده، ويشرف بنفسه وجهازه البيروقراطى على كل صغيرة وكبيرة فى الدولة، وقد سعى جاهداً ليحقق ذلك ونجح فيه إلى حد كبير . وأصبحت الإمبراطورية كلها طوع أمره، وحتى شركاؤه كانوا صنائعه ورجاله، وهو صاحب القول الفصل فى كل الأمور، ومن خلال هذه السلطة التى مارسها تمكن من انتشال الإمبراطورية من حالة الضياع التى عايشتها طيلة نصف قرن وعرفت بأزمة القرن الثالث، ومن ثم لم يكن ليقبل مطلقاً انتقاص سلطانه بأى صورة من الصور . ولعل هذا يفسر لنا أنه لم يقدم على الاضطهاد إلا فى السنة التاسعة عشرة من حكمه لأنه لم يكن يتصور مطلقاً أن تخرج الكنيسة عن دائرة نفوذه، وأن تغدو بذلك دولة داخل الدولة، وكان يعتقد والقلق يملأ عليه كل نفسه أن النظام المسيحى على هذه الصورة سوف يودى بجهوده الضخمة التى بذلها طيلة

هذه السنوات فى سبيل وحدة الإمبراطورية وتقويتها (١٦٦) . ولما كان قد قضى من سنوات حكمه فى نيقوميديا الشيء الكثير، وتشرب مبادئ الشرق الهلنستى والإمبراطورية الفارسية عن عظمة الحاكم وتقديسه، فقد سعى إلى تقليد تلك النظم وغدا الإمبراطور وكل ما يخصه ذا قدسية وجلال . وأضحى السلطة المطلقة فى الإمبراطورية كلها، وبذلك كان يرى – كما يرى جاليريوس – أن المسيحية هى آخر العقبات القائمة فى سبيل هذه السلطة . وكان جاليريوس بالطبع يدرك ما تنطوى عليه نفس الإمبراطور من طموح وحب للسيادة المطلقة ونزعة طاغية للعظمة، فراح يزين له هذا السبيل، ولم يدع فرصة واحدة دون أن يضرب للإمبراطور على أنغام استكمال هذه العظمة وذلك السلطان الذى لن يتأتى إلا عن طريق إتمام الوحدة الدينية فى الإمبراطورية بالقضاء على المسيحية .

ولنضف إلى هذا سبباً على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن عدداً – وإن كان قليلاً جداً – من أفراد الجيش كان قد اعتنق المسيحية (١٦٧)، فامتنعوا بذلك عن ممارسة الطقوس الوثنية الخاصة بتقريب الأضحيات وإحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور وهو الإجراء الذى كان فى حد ذاته يعد دليلاً على الولاء للإمبراطور رأس الدولة – كما قدمنا – وأدرك دقلديانوس بذلك أن هذه العقيدة لو قدر لها أن تنتشر بين أفراد الجيش سوف تعصف بولاء الجند لشخصه وهو أخشى ما كان يخشاه الإمبراطور، فما " الحكومة الرباعية " التى أنشأها لإدارة شئون الإمبراطورية إلا نظام قصد به القضاء على تلاعب الجيش بالأباطرة، فكيف يصبح الحال الآن والجند – بعد تحولهم إلى عقيدة جديدة – لا يكنون لقوادهم الوثنيين ولا لإمبراطورهم الوثنى كذلك أى عاطفة من الولاء ؟

ولعل مما يدعم هذا القول ما يذكره المؤرخ الكنسى يوسيبيوس (١٦٨) من أن الاضطهاد بدأ " بالأخوة الذين فى الجيش "، رغم أن عددهم كان قليلاً، ولكن الإمبراطور آثر أن يطفئ مستصغر الشرر منذ البداية قبل أن يشتعل .

(166) Cantor, op. cit. P. 43.

(167) Jones, Later Roman Empire , 1,p. 71.

(168) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 1.

على أية حال تضمن اضطهاد دقلديانوس مراسيم أربعة صدرت ثلاثة منها فى عام ٣٠٣، ينص الأول على تدمير الكنائس المسيحية، وإحراق الكتب المقدسة، ويقضى الثانى والثالث بالقبض على كافة رجال الأكليروس بمختلف طبقاتهم وعدم الإفراج عنهم إلا بعد أن يقدموا القرابين لآلهة الدولة، أما المرسوم الرابع فقد صدر سنة ٣٠٤ ويلزم كل فرد فى الدولة أن يقرب للآلهة أضحياته(١٦٩) .

وقد أذيعت هذه المراسيم، وخاصة الثلاثة الأولى منها، فى الإمبراطورية كلها، غير أن تنفيذها لم يكن بنفس الدرجة فى الشرق والغرب (١٧٠)، فالأقاليم التى كانت خاضعة لدقلديانوس وجاليريوس بلغت الحال فيها حداً كبيراً من العنف، ونفذ ماكسيميانوس المراسيم الإمبراطورية فى إيطاليا وأسبانيا وأفريقيا . أما قسطنطيوس Constantius قيصر غالة وبريطانيا فلم يأخذ المسألة مأخذ الجد الذى سارت به فى الشرق، وحتى لا يبدو فى صورة المعارض لرئيسه الإمبراطور فقد أمر بهدم حوائط الكنائس وبصورة تمكن من سهولة إعادة بنائها ثانية (١٧١) ويبدو أنه لم يلزم نفسه سوى بتنفيذ المرسوم الأول فقط، ولم يلق بالاً إلى بقية المراسيم، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى قلة عدد المسيحيين فى أقصى الغرب الذى كان يسيطر عليه إذا ما قورن بالمسيحيين فى الشرق (١٧٢) .

ويخبرنا لاكتانتيوس (١٧٣) أن دقلديانوس وقيصره راحا يتبادلان الرأى حول إحراق كنيسة نيقوميديا التى كانت مواجهة للقصر الإمبراطورى واستقر رأيهما فى النهاية على هدمها خوفاً من أن تمتد النيران منها إلى الأبنية المجاورة التى تحيط بها، وسرعان ما سويت الكنيسة بالأرض .

وكان المسيحيون وقتئذ على قدر يستطيعون معه رد العدوان بمثله، فقامت

(169) Ibid. 2.
(170) Jones, Later Roman Empire I,p 72.
(171) LACT. Mort. Pers. 15.
(172) Boak, op. cit. p. 429.
(173) LACT. Mort. Pers. 12.

حركة ثورية فى سوريا، وأضرمت النيران فى القصر الإمبراطورى مرتين فى مدة قصيرة، ويذكر لاكتانتيوس (١٧٤) أن جاليريوس هو الذى أرسل تابعيه لإحداث ذلك حتى يزيد من غضب الإمبراطور وسخطه على المسيحيين، الذين ردوا عليه بدورهم التهمة بمثلها، وكانت النتيجة أن ألقى القبض على عدد كبير من المسيحيين وقعوا تحت طائلة التعذيب حتى يعترفوا بارتكاب جريمة الحرق العمد(١٧٥) .

ويصف معلم البيان الأفريقى (١٧٦) الحالة بقوله " أصبح اضطهاد دقلديانوس الآن عاماً وشاملاً فقد بدأ بقهر ابنته فاليريا Valeria (زوجة جاليريوس)، وزوجته بريسا Prisca، وكانتا مسيحيتين على أن تقربا الأضحيات، كما ذبح أحد الخصيان الذى كان صاحب سطوة كبيرة فى القصر، وسيق القسس والموظفون وعائلاتهم، وبلا اعتراف أو محاكمة، إلى القتل زمرا، أما الحرق حياً فلم يكن يفرق فيه بسبب جنس أو سن ولما كانت أعداد هؤلاء كبيرة فلم يكونوا يحرقون فرادى، بل كانت توقد لهم نار واحدة تضمهم جميعاً، وغصت السجون بمن فيها وارتاعت الإمبراطورية لهذه الويلات .

أما يوساب فيفصل المسألة تفصيلاً دقيقاً، ويذكر بإسهاب طويل صور التعذيب ووسائله، وأولئك الذين نالوا الشهادة من أجل الرب، أو نالتهم يد العذاب، ويكفينا فقط أن نقول هنا أنه أفرد لعصر دقلديانوس وحده الكتاب الثامن من تاريخه الكنسى، وعقد لشهداء فلسطين فى هذه الفترة فصلاً خاصاً .

ونحن إذ نستقى معلوماتنا عن هذه الأحداث من كاتبين مسيحيين هما لاكتانتيوس ويوساب يجب أن نضع اعتباراً لموجة الحماس الجارف التى كانت تتملك على الكاتبين مشاعرهما، وهما يخطان للأجيال قصة الكنيسة المسيحية، وما كان يسيطر على أولهما من كره عميق تجاه هؤلاء المضطهدين، وما كان يختلج

(174) Ibid. 14 .
(175) Id .
(176) Ibid. 15.

فى نفس الثانى من شعور الاعتزاز والفخر للكنيسة المسيحية وتمجيدها وتقديس أرواح شهدائها، وليس بمستبعد إزاء هذا الشعور أن يكون المصدران على شىء من المبالغة، ولكنهما أيضاً يضمان الكثير من الحقيقة .

على أية حال فإن الاتجاه العدائى السافر من جانب الإمبراطورية الرومانية تجاه الكنيسة المسيحية فى هذه الفترة بالذات جاء متأخراً جداً، فلقد كان من المستحيل فى هذه الآونة أن تجتث جذور نظام أصبح يدين له بالولاء قرابة عشر سكان العالم الرومانى . لقد أخفقت الدولة فى تحطيم الكنيسة (١٧٧) .

(177) Cantor, op. cit. p. 43 .

الفصل الثاني

الحروب الأهلية
وسياسة المتصارعين إزاء المسيحية

بدا لفترة ما أن نظام " الحكومة الرباعية " الذى أقامه دقلديانوس قد أضحى وطيد الأركان، ولكن هذا النظام لم يكن يعود فى ثباته إلى طبيعته فى حد ذاته بقدر ما كان راجعاً إلى سطوة الإمبراطور التى وضعت حداً لطموح شركائه (1)، ولم يستطع ذهن دقلديانوس أن يتصور أنه إذا كان هؤلاء الشركاء قد ارتضوه إمبراطوراً لهم وسيداً، حيث كان ولى نعمتهم ، فلقد كان من الصعب على أحدهم أن يعترف لزميله بهذه الأولوية بعد اعتزال دقلديانوس، طالما كانوا جميعاً شركاء فى حكومة واحدة حتى ولو كان بعضهم يحمل لقب الأوغسطس والآخر لقب القيصر . فما إن ألقى هذا النظام فى ميدان التجربة بعد أن تخلى دقلديانوس وزميله ماكسيميانوس Maximianus عن السلطة سنة ٣٠٥ حتى عصف طموح أولئك الرفاق وصراعهم، بما قضى دقلديانوس يقيم منه القواعد سنين عددا .

ما إن تخلى الرفيقان عن السلطة الإمبراطورية فى مايو ٣٠٥ حتى ارتقى كل من جاليريوس Galerius وقسطنطيوس Constantius إلى مرتبة الأوغسطس بدلاً منهما، أولهما فى الشرق، وثانيهما فى الغرب . ولم يدع كاتبنا لاكتانتيوس هذه الحادثة تمر دون أن يعيد إلى الأذهان من جديد صورة ذلك النفوذ القوى الذى طالما نبه إليه متمثلاً فى جاليريوس وهذا الضعف والانقياد بادياً فى دقلديانوس، فيدخل فى روعنا أن اعتزال كل من دقلديانوس وماكسيميانوس تم برغبة جاليريوس وتهديده، ويخبرنا أن الأخيـــر انتهز فرصة المرض الذى ألم بالإمبراطور وألح عليه بالاعتزال وضرب له مثلاً الإمبراطور نيرفا (٩٦-٩٨) ولكن الإمبراطور راح يستعطف قيصره مبدياً استعداده التام لأن يخلع عليه وزميله

(1) Cary,op. cit. p. 732.

قسطنطيوس لقب الأوغسطس إذا كانا يرغبان فى ذلك [٢] . غير أن جاليريوس كان يطمع فى أن يحمل لقب " الإمبراطور " وحده، فرفض العرض وتعلل بأن النظام الذى أوجده الإمبراطور لابد أن يبقى حرماً لا ينتهك، ولكنه فى نفس الوقت جهر للإمبراطور بما يختلج فى نفسه من مشاعر كامنة قائلاً إنه لم يعد يحتمل البقاء فى مرتبة أدنى، وأنه قد ظل لفترة طويلة خلت كما لو كان منفياً فى الليريا وشواطئ الدانوب، ويجاهد دوماً البرابرة، بينما الآخرون يحكمون مناطق أكثر اتساعاً وأفضل مدنية [٣] . ولما كان دقلديانوس قد أتته رسالة من ماكسيميانوس تنبئه أن جاليريوس قد حشد جيشاً كبيراً ينتظر تلقى أوامر سيده، وأنه قد استحث على التخلى عن السلطة الإمبراطورية، ثم هاهو دقلديانوس نفسه يسمع الآن قالة قيصره أدرك أن هذا قد أعد للأمر عدته، فانفجر باكياً – ذلك الرجل الذى غدا بلا روح وخاطب، والدموع تنهمر من مآقيه، جاليريوس قائلاً : ليكن ما تريد "[٤].

ولكن يبدو أن دقلديانوس قد أدرك بعد ما أصابه من مرض أن حالته الصحية لم تعد تسمح له بتحمل أعباء الحكم فترة أخرى، ففضل الاعتزال تاركاً أعباء السلطة لخلفائه، وحتى لا يحدث نزاع ـ كما توهم ـ بين أولئك استحث زميله ماكسيميانوس على أن يحذو حذوه، ومما يرجح ما نذهب إليه ما يذكره لاكتانتيوس نفسه [٥] من أن الإمبراطور بعد أن دهمه المرض داخله شعور بأنه لم يعد يقوى على مهام الحكم، ويحتمل أيضاً أن يكون دقلديانوس قد نظر إلى مرضه كنوع من انتقام السماء ابتلاه به إله المسيحيين، ومن ثم أراد أن لا يتحمل أكثر من ذلك مسئولية الاضطهاد [٦] .

على أية حال فقد ارتقى جاليريوس وقسطنطيوس إلى مرتبة الإمبراطور، أولهما فى الشرق والثانى فى الغرب،وأصبحت المشكلة الآن تنحصر فى اختيار

(2) LACT. Mort. Pers. 18.
(3) Id.
(4) Id.
(5) Ibid. 17.
(6) Jones, Constantine, p. 56.

القيصرين الجديدين، ولقد كان هناك على الأقل اعتقاد بأن قسطنطين بن قسطنطيوس الذى كان يقيم الآن فى البلاط الإمبراطورى بنيقوميديا سوف يكون أحد هذين القيصرين، وكان هناك من الأسباب ما يبرر هذا الاعتقاد، فقد كان ابناً لأوغسطس الغرب (٧)، وكان قد أبدى نشاطاً عسكرياً على الدانوب (٨) واشترك فى الحملة التى قادها دقلديانوس إلى مصر (٩) . غير أنه لا قسطنطين ولا حتى ماكسنتيوس Maxentius بن ماكسيميانوس كانا بين المرشحين .

ومرة أخرى يأخذنا لاكتانتيوس ليطلعنا على ما يجرى وراء أستار القصر الإمبراطورى فى نيقوميديا، فيرسم صورة بزت ما قبلها، تكشف - فى رأيه طبعاً - عن مدى سطوة جاليريوس واستسلام دقلديانوس، وفى حوار رائع بديع وبأسلوب ساخر يرسم على الشفاة ابتسامة رقيقة، يبعث فى النفس حسرة على ذلك الإمبراطور المغلوب على أمره ! يوضح كاتبنا الطريقة التى تم بها اختيار القيصرين الجديدين فيقول : سأل دقلديانوس :

" والآن .. ما الذى يجب علينا أن نفعله ؟ " قال جاليريوس : " بالنسبة لماكسنتيوس فإنه لا يستحق هذا المنصب، فها هو بعد رجل عادى ومع ذلك يعاملنى باحتقار، فكيف به إذا ما غدا صاحب جاه ؟ - ولكن قسطنطين محبوب، ويتمتع بفضائل عديدة ـ وليكن ذلك . إلا إذا كانت رغباتى وقراراتى سوف لا يقام لها وزن، وأن هؤلاء الرجال يجب أن يعينوا بناء على اقتراحى، وسوف أختار أولئك الذين لا يخشون أحداً غيرى ولا يحركون ساكناً إلا بإيعاز منى ـ إذن .. فمن يا ترى يكون أولئك الرجال ؟ - سفروس Severus - ؟! ذلك الداعر الذى يواصل ليله بنهاره ولا يكاد يفيق ؟ - إنه يستحق المنصب . لقد أثبت جدارته كصراف ومورد للجيش، وقد بعثت به فعلاً ليتسلم السلطة من يد ماكسيميانوس ـ حسناً، لا اعتراض . وأى شخص آخر تفضل ؟ - هو ذاك . قالها جاليريوس

(7) C.M.H. I, p. 3.

(8) Jones, Contantine, p. 57

(9) EVSEB, Vita Const. I, 19.

مشيراً إلى دازا Daza ذلك الرجل القصير النصف بربرى وقد خلع عليه جاليريوس مؤخراً جزءاً من اسمه [١٠] ودعاه ماكسيمينوس Maximinus فأعاد بذلك نفس ما حدث عندما أنعم عليه دقلديانوس سابقاً بلقب ماكسيمينوس- من تراه يكون ذلك الذى ترشحه ؟ - إنه أحد أقربائى [١١] - يا للحسرة تأوه بها دقلديانوس، ثم أردف قائلاً، ولكنك اخترت أناساً لا يصلحون لهذه المهام الجسام . فاختتم جاليريوس حديثه قائلاً، إنى أثق فيهم"[١٢] .

وفى حفل رسمى راح دقلديانوس وجاليريوس يعلنان للحاضرين ما تم عليه اتفاقهما، أو بتعبير أدق ما تم عليه قهر دقلديانوس حسب رواية لاكتانتيوس، ويصور لاكتانتيوس تلك اللهفة التى كانت فى أعين الناس بادية، ونظراتهم المركزة على قسطنطين، فقد كان الجميع يتوقعون اختياره، ولكن دقلديانوس وقف يخاطبهم جميعاً والعبرات تنحدر من عينيه مبيناً لهم أنه شعر بالحاجة إلى الراحة بعد هذا العناء الطويل، وأنه يتخلى عن الحكم ليضعه في يد قوية أمينة تصونه وترعاه، ووسط هذا الجو " الدرامى " المتوتر أعلن دقلديانوس اختيار سفروس وماكسيمينوس دازا وعقدت الدهشة ألسنة الجميع، واعتقدوا أن قسطنطين لابد وأن يكون قد حمل لقب ماكسيمينوس، ولكن جاليريوس أزاح قسطنطين بيده وقدم للناس دازا ولم يستطع أحدهم أن ينبس ببنت شفة خوفاً من جاليريوس، وهكذا تم اختيار القيصرين الجديدين[١٣] .

ويعلق لاكتانتيوس على ذلك بقوله : " أما دقلديانوس فقد مر عبر نيقوميديا أشبه بجندى سرح من الخدمة وطرد إلى بلده، بينما غدا دازا، راعى الغنم، قائداً للجيش " [١٤].

ولما كنا قد عرضنا - فى الفصل الأول - لوجهة نظرنا فى الموقف الذى

---

(10) Galerius Valerius Maximinus
(11) Gibbon, op. cit. I, 327.
(12) LACT. Mort. Pers. 18.
(13) LACT. Mort. Pers. 19.
(14) Id.

اتخذه لنفسه لاكتانتيوس إزاء دقلديانوس وجاليريوس، فإننا نضيف أن جاليريوس كان شديد الطموح . ولما كان زوجاً لابنة دقلديانوس وقيصراً له طيلة سنوات عديدة، فقد كان يتمتع لديه بنفوذ كبير، ومن ثم استطاع أن يستميله إلى تعيين هذين القيصرين، وقد كانا خير من يحققا أطماع جاليريوس وطموحه [١٥].

ولفترة قصيرة جداً اتخذت " الحكومة الرباعية الثانية " شكلها، فأخذ جاليريوس أوغسطس الشرق أقاليم Pontica, Asiana, Thrace, Moesia بينما أضاف قسطنطيوس ــ أوغسطس الغرب ــ أسبانيا إلى أقاليمه الأصلية فى غالة وبريطانيا، أما سفروس فقد خصصت له إيطاليا وأفريقيا وبانونيا Pannonia، على حين حكم ماكسيمينوس المناطق الشرقية (مصر وسوريا) [١٦] . وبذلك كان جاليريوس يسيطر بالفعل على ثلاثة أرباع الإمبراطورية بسيادته على تابعيه سفروس وماكسيمينوس بالإضافة إلى دائرة نفوذه .وكانت الأحلام تداعب خياله عن الانفراد بحكم الإمبراطورية كلها بلا منازع، ومن ثم كان ينتظر بقلق بالغ موت قسطنطيوس [١٧]، غير أن أحلام جاليريوس سرعان ما تحطمت على صخرة واقعتين هامتين عصفتا بطموحه فى توحيد الإمبراطورية تحت سلطانه وحده، هما اختيار قسطنطين خلفاً لأبيه فى الغرب، والمناداة بماكسنتيوس إمبراطورا فى روما سنة ٣٠٦.

ذلك أن قسطنطيوس بعد أن غدا أوغسطس الغرب طلب إلى جاليريوس أن يبعث إليه بابنه قسطنطين الذى كان رهين البلاط الإمبراطورى فى نيقوميديا منذ أيام دقلديانوس . غير أن جاليريوس كان يتخوف من ذلك، فقد كان لديه آمال كبار يعلقها على وفاة أوغسطس الغرب، ومن ثم كان يخشى لحاق قسطنطين بوالده خوفاً من أن يخلفه فى منصبه، ولهذا فقد راح يسوف فى الأمر ويتلكأ فى إجابة مطلب قسطنطيوس، غير أنه أمام إلحاح الأخير سمح للابن بالرحيل، ولكن

(15) Gibbon, op. cit. I, p. 427 .
(16) Jones, Constantine, p. 56.
(17) LACT. Mort. Pers. 20.

لاكتانتيوس كعادته يسوق رحيل قسطنطين فى صورة هروب جن معه جنون جاليريوس، فأمر فرسانه باللحاق به وإعادته ثانية دون جدوى ." فقد كانت ترعاه عناية الرب " (١٨).

أدرك قسطنطين والده فى ميناء بولونى Boulogne وهو يستعد للعبور إلى بريطانيا (١٩)، وما إن أقر قسطنطيوس الأمور فى بريطانيا حتى عاد إلى يورك Eburacum وهناك أدركته منيته فى ٢٥ يوليو سنة ٣٠٦ (٢٠) . وبدا لبرهة وجيزة أن آمال جاليريوس قد أضحت حقيقة . ولكن ذلك لم يحدث (٢١)، ففى نفس اليوم أعلنت فيالق قسطنطيوس اختيارها لابنه قسطنطين أوغسطسا (٢٢) . ويجمع كل من يوسبيبوس (٢٣) . ولاكتانتيوس (٢٤) على أن قسطنطين أبى أن يحمل هذا اللقب آنئذ، وراح يحاول تدعيم مركزه لما كان يعلمه من قوة جاليريوس الذى أصبح الآن الإمبراطور السيد (٢٥) . فأرسل إليه قسطنطين يطلب الاعتراف به، وعلى الرغم من أن جاليريوس كان يتميز غيظاً لما اعتبره اغتصاباً للسلطة من جانب قسطنطين، إلا أنه آثر قبول سياسة الأمر الواقع . فاعترف بقسطنطين

(١٨) يقول لاكتانتيوس : " ذات مساء، وأمام إلحاح قسطنطيوس ورسائله المتكررة لم يجد جاليريوس بدا من الموافقة على سفر قسطنطين فأذن له بذلك على أن يعطيه فى الصباح الرسائل الإمبراطورية الخاصة بذلك . ولكنه كان يضمر الشر فى نفسه، عله يجد سبباً يمنع به قسطنطين من الرحيل، أو يأمر سفروس بالقبض عليه أثناء الطريق، غير أن قسطنطين أدرك ما يجول بخاطر جاليريوس، فما إن أوى الإمبراطور إلى فراشه بعد العشاء حتى انتهز قسطنطين الفرصة وهرب . وفى اليوم التالى وعند الظهيرة استدعى جاليريوس قسطنطين ولكنه علم بهروبه، فجن جنونه، وأمر بالبحث عنه واللحاق به، ولكن دون جدوى، فلم يستطع جاليريوس إلا بشق الأنفس أن يحبس الدموع " . انظر : LACT. Mort. Pers. 24.

(19) EVSEB. Vita Const . I, 21.

(20) Jones, Constantine, p. 58 .

(21) Cary, op. cit. p. 372.

(22) Vasiliev, op. cit. I, p. 44.

(23) EVSAB. Vita Const. I, 22; hist. Eccl. VIII, 13.

(24) LACT. Mort. Pers. 25 .

(25) Jones, Constantine, p. 59 .

قيصراً وليس إمبراطوراً، بينما أنعم على سفروس بلقب الإمبراطور، فهبط قسطنطين بذلك من المرتبة الثانية إلى الرابعة [٢٦] وهكذا ولزمن يسير عادت الحكومة الرباعية من جديد، فحمل كل من جاليريوس وسفروس لقب أوغسطس، بينما استحوذ كل من ماكسيمينوس وقسطنطين على مرتبة القيصر . ولقد قبل قسطنطين هذا اللقب " المتواضع " انتظاراً لما تأتى به الأيام [٢٧] .

غير أن ثورة شبت فى نفس العام ٣٠٦ فى روما، قام بها الحرس البريتورى، وقتل محافظ المدينة وأعلن ماكسنتيوس بن ماكسيميانوس إمبراطوراً فى ٢٨ أكتوبر، وبدا أن إيطاليا كلها قد أضحت فى قبضة ذلك المغتصب [٢٨] . وقد سعى ماكسنتيوس لضمان اعتراف جاليريوس به، وسمى نفسه على عملته عندئذ "الأمير الذى لا يقهر" [٢٩]. وقد اضطرب جاليريوس لدى سماعه بهذه الأنباء ولكنه لم يفزع، وملأ الكره قلبه نحو ماكسنتيوس، الذى كان زوجاً لابنته، ولما لم يكن هناك مكان لقيصر ثالث، فقد رفض جاليريوس أن يمنحه هذا اللقب [٣٠]. وترجع هذه الثورة التى أتت بماكسنتيوس للعرش إلى ما أقدم عليه سفروس من إجراء تعداد للسكان فى إيطاليا وروما مما سبب سخطاً وتذمراً بين الأهلين الذين كانوا يعيشون لقرون خلت متحررين من عبء الضرائب [٣١]. وإن كان لاكتانتيوس يحمل جاليريوس مسئولية ما أقدم عليه سفروس [٣٢]، وإزاء ذلك أرسل جاليريوس إلى سفروس يستحثه على استعادة سلطته وأقاليمه الضائعة من قبضة ماكسنتيوس، ووضع تحت إمرته ذلك الجيش الذى كان ماكسيميانوس يرأسه من قبل [٣٣] وكان على ماكسنتيوس أن يستعد لمواجهة هذا التحدى فبعث إلى أبيه

(26) LACT. Mort. Pers. 25.
(27) Jones, Constantine, p. 59.
(28) Burckhardt, op. cit. p. 265.
(29) Jones, Constantine, p. 59.
(30) LACT. Mort. Pers. 26.
(31) Jones, Constantine, p. 59
(32) LACT. Mort. Pers. 26.
(33) Id.

ماكسيميانوس يطلب إليه العون، محيياً إياه ثانية بلقب " الأوغسطس "، واهتبل الأب، الذى كان قد تخلى كارهاً عن السلطة مع دقلديانوس، الفرصة وعاد من جديد إلى ارتداء العباءة الإمبراطورية (٣٤) . وهكذا أصبح فى الإمبراطورية أباطرة أربعة هم جاليريوس وسفروس وماكسنتيوس وماكسيميانوس، وقيصران هما ماكسيمينوس وقسطنطين .

تقدم سفروس بقواته ميمماً شطر روما، وكان عليه أن يواجه خصماً عنيداً، فماكسنتيوس كان قد أعلن نفسه أوغسطساً، وضم إليه إفريقيا وأسبانيا، وضمن أيضاً تعضيد والده . وسرعان ما فعل اسم ماكسيميانوس فعل السحر، لا فى نفوس جنود ولده فحسب، بل فى أفئدة قوات سفروس نفسه (٣٥)، فما لبثت هذه القوات – التى كان معظمها تحت قيادة ماكسيميانوس من قبل، أن تخلت عن سفروس وانضمت إلى أعدائه (٣٦) . فلم يجد سفروس أمامه بدا من التحصن فى رافنا Ravenna غير أن ذلك لم يحمه من القتل (٣٧) .

وقد خشى ماكسيميانوس، الذي كان يعلم مزاج جاليريوس الجامح مغبة ذلك الأمر، وجالت بخاطره أفكار هيأت له أن جاليريوس لابد وأن يمتلئ حنقاً لمقتل سفروس وأنه لا يلبث حتى يسير إلى إيطاليا فى قوات ضخمة لقتاله، ومن ثم شرع يعد للأمر عدته (٣٨) .

كان على ماكسيميانوس أن يبحث عن حليف جديد يقف إلى جواره فى صراعه المرتقب مع جاليريوس، ولا يمكن أن يكون هذا الحليف بالطبع ماكسيمينوس قيصر الشرق، فقد كان تابعاً أميناً لجاليريوس، ولذلك اتجه طبيعياً إلى قيصر الغرب قسطنطين. فارتحل ماكسيميانوس إلى غالة ليعرض على القيصر

---

(34) LACT. Mort. Pers. 26.
(35) Jones, Constantine, p. 60.
(36) Burckhardt, op. cit. p. 265 .
(37) LACT. Mort. Pers. 26.
(38) LACT. Mort . pers. 27.

صداقته، وليقدم له عربوناً على هذه الصداقة يد ابنته فاوستا Fausta (٣٩) ولقب الأوغسطس (٤٠) . ولقد كانت لحظة حرجة تلك التى كان يمر بها قسطنطين، فجاليريوس هو الأوغسطس الشرعى السيد الآن للإمبراطورية، وهو الذى منحه لقب القيصر قبل ذلك . ولكن قسطنطين كان يعلم أيضاً أن جاليريوس وافق على إعطائه لقب القيصر مرغماً أمام الأمر الواقع، وأنه ليس من المستبعد أن يقدم جاليريوس على سحبه منه ثانية عندما تواتيه الفرصة، ثم هاهو ماكسيميانوس، الذى كان ادعاؤه للسلطة الآن غير شرعى، إلا أنه يحمل قانوناً لقب الأوغسطس يعرض عليه لقب الأوغسطس ويد ابنته . ولقد قبل قسطنطين العرض(٤١)، ومع أنه لم يقدم على عمل عدائى جدى ضد جاليريوس، إلا أن انضمامه علانية إلى جانب ماكسيميانوس يعد تحدياً صريحاً له .

جهز جاليريوس قواته، وتقدم إلى إيطاليا مولياً وجهه روما، وقد عزم على أن يؤدب السناتو، وأن يضع تحت السيف أولئك الثائرين الرومان (٤٢) . ولكن حملة جاليريوس لم تكن أسعد حظاً من تلك التى شنها سفروس، فماكسيميانوس كان قد حصن روما تحصينا قوياً، كما أن قوات جاليريوس لم تكن كافية لحصار المدينة(٤٣)، ولما كان جاليريوس يشك فى ولاء قواته (٤٤) . فقد أسرع بالانسحاب ثانية دون انتظام، وخوفاً من أن يلحق به عدوه، فقد أباح لجنوده أن يخربوا كل المناطق التى يمرون بها أثناء تراجعهم، فعم الدمار بذلك كل أراضى إيطاليا الشمالية (٤٥) . هكذا فشلت حملة جاليريوس . وكان من نتيجة هذا الفشل أن دار الصراع الآن سافراً بين ماكسيميانوس وابنه ماكسنتيوس . فبينما أراد الأب أن ينفرد بالسلطة دون ابنه، رفض الولد أن يشاركه أبوه السلطان، وعلى الرغم من أن

(39) Id.

(40) Gibbon, op. Cit. I, p. 437 .

(41) Jones, Constantine, p. 60.

(42) LACT. Mort . pers. 27.

(43) Id.

(44) Jones, Constantine, p. 61.

(45) LACT. Mort . pers. 27

ماكسيميانوس أهان ولده أمام جحافل الجنود، ومزق عنه رداءه الإمبراطورى، إلا أن الجنود أيدت ماكسنتيوس وأجبرت ذلك الشيخ الفانى على الفرار خارج روما(٤٦) . فلم يجد ملجأ له إلا صهره قسطنطين فارتحل إلى غالة ثانية، وأكرم قسطنطين وفادته .

ويحتمل أن يكون هذا الشاب الذى كشفت بعد ذلك الأحداث عن طموحه الفياض، قد رأى فى ماكسيميانوس ورقة رابحة يستغلها لتحقيق أغراضه التى كان يسعى إليها فى حذر، فماكسنتيوس كان قد استولى على أسبانيا التى كانت قد خضعت لقسطنطيوس قبل وفاته سنة ٣٠٦، ثم هاهو يسيطر الآن على إيطاليا وأفريقيا، ولابد أن يكون قسطنطين قد أدرك أن فى اتساع نفوذ ماكسنتيوس تهديداً خطيراً لسلطانه، ومن ثم راح يسعى لتقوية مركزه، ولئن كان ماكسيميانوس حليفاً خالى الوفاض إلا أن قسطنطين قد رأى على الرغم من ذلك أن يفيد منه فى صراعه المحتوم ضد ماكسنتيوس .ولئن كانت الأحداث قد خيبت فأل قسطنطين حيث تمرد عليه ماكسيميانوس نفسه بعد: ذلك إلا أنه بسياسته هذه قد ضمن عدم تأييد الأب لابنه، أو تحالفهما معاً ضده .

شغر منصب " الأوغسطس الثانى " الشرعى بمقتل سفروس، فعين جاليريوس رفيق السلاح ليكينيوس Lieinius أوغسطساً، وعهد إليه بإقليم بانونيا Panonia حتى يمكن استعادة الأقاليم المغتصبة من قبضة ماكسنتيوس، تم ذلك فى مؤتمر عقد فى سنة ٣٠٧ (٤٧) وحضره دقلديانوس، الذى كان يعيش فى عزلة منذ تخليه عن منصبه، وماكسيميانوس الذى كان قد ارتحل من غالة، وجاليريوس، ولكن هذه الخطوة من جانب الأخير لم تؤد إلا إلى امتعاض ماكسيمينوس الذى رأى فى ارتقاء ليكينيوس مرة واحدة إلى منصب الإمبراطور، إهانة له، فطلب إلى جاليريوس منحه لقب الأوغسطس .ولكن جاليريوس حاول إيجاد حل وسط لهذه الفوضى التى أخذت تعبث بالإمبراطورية، فأنعم على القيصرين ماكسيمينوس

(46) Ibid. 28.
(47) Burckhardt, op. cit. 265.

وقسطنطين بلقب " أبناء الأباطرة " [٤٨] . غير أن ماكسيمينوس لم يقنع بذلك، كما أن قسطنطين الذى كان يحمل لقب الأوغسطس منذ منحه إياه ماكسيميانوس، شارك ماكسيمينوس رفضه، فلم يجد جاليريوس بدا من الإذعان لذلك،فمنحهما سنة ٣٠٨ لقب الأوغسطس [٤٩]، وهكذا أصبح فى الإمبراطورية ستة أباطرة هم جاليريوس، ليكينيوس، ماكسيمين، قسطنطين، ماكسنتيوس، ماكسيميانوس، لكل منهم إقليمه الذى يحكمه صغر هذا الإقليم أو كبر، إلا ماكسيميانوس فقد كان إمبراطوراً بلا أرض، وأميراً بلا ناس، ولم يجد أمامه ثانية إلا الذهاب إلى غالة حيث صهره قسطنطين، ولكنه فى هذه المرة قد تأبط شراً، فقد جاء وفى نيته الاستيلاء على السلطة من صهره [٥٠] . وظل يتحين الفرصة لبلوغ مأربه، وعلى الرغم من أن قسطنطين وزوجته فاوستا لقيا ماكسيميانوس بترحاب واحترام [٥١] إلا أنه كان يدرك فى قرارة نفسه أنه لم يعد صاحب فضل على قسطنطين بعد أن أصبح هذا إمبراطوراً شرعياً بعد قرار جاليريوس .

وقد واتت ماكسيميانوس الفرصة فى ربيع سنة ٣١٠ عندما ثارت بعض قبائل الفرنجة التى كانت تحتل الضفة الشرقية للراين قبالة كولونى Cologne ويروى لاكتانتيوس [٥٢] هذه الأحداث فى شكل خدعة من جانب ماكسيميانوس أراد بها القضاء على صهره، فقد نصحه ألا يصطحب معه عدداً كبيراً من جنوده بحجة أن قوات قليلة العدد كافية لإخماد هذا التمرد، وكان يريد بذلك تحقيق هدفين، هزيمة قسطنطين ومقتله على يد تلك القبائل الثائرة والاستفادة بالجزء الثانى من جيش قسطنطين لتحقيق أغراضه فى استعادة منصبه الإمبراطورى، ويمضى كاتبنا قائلاً إن قسطنطين قد أصغى طائعاً إلى هذه النصيحة دون أن يتسرب الشك إلى نفسه فى نيات صهره " الوفى "، هذا بالإضافة إلى أن قسطنطين كان يعتقد أن لماكسيميانوس من الخبرة العسكرية والتجربة ما يفوق تجربته وخبرته .

---

(48) LACT. Mort. Pers. 32.
(49) Id.
(50) Ibid. 29 .
(51) Gibbon op. cit. p. 441.
(52) LACT. Mort. Pers. 29 .

غير أن قصة على هذا النحو لا يمكن قبولها على علاتها، فقسطنطين لم يكن غافلاً عن طموح ماكسيميانوس ورغبته الجامحة فى استعادة سلطانه . وكان يدرك أن ماكسيميانوس ما جاء هذه المرة، إلا وقد اعتزم أمراً بعد أن فوت عليه جاليريوس ودقلديانوس الفرصة فى مؤتمر عام ٣٠٧، كما أن قسطنطين لم يكن بأحب لماكسيميانوس من ابنه ماكسنتيوس الذى حاول والده أن ينتزع منه السلطة قبل ذلك، أضف إلى هذا أن ذكاء قسطنطين وخبرته العسكرية مع الجرمان على شواطئ الدانوب على عهد دقلديانوس والحملات العسكرية التى خاضها عقب وفاة أبيه لتثبيت سلطانه فى غرب الإمبراطورية قد أعطته صورة واضحة عن مدى قوة هذه القبائل، وما يجب عليه اتخاذه إزاءها من احتياطات واستعدادات عسكرية .

مكث ماكسيميانوس غير بعيد عقب ارتحال قسطنطين بقواته إلى ضفاف الراين، ثم أعلن فجأة عن ارتدائه العباءة الإمبراطورية، واستولى على الخزانة العامة، ونفح الحامية التى خلفها قسطنطين وراءه كثيراً من المال، ولما تأكد لديه أن قسطنطين قد قارب كولونى أشاع نبأ وفاته (٥٣)، غير أن ماكسيميانوس أخطأ فى تقدير قوة خصمه، ومدى ولاء الجنود له، فما إن وصلت الأنباء إلى كولونى حتى عاد قسطنطين مسرعاً عن طريق الساءون Saone والرون Rhone وحط رحاله أمام آرل Arles حيث كان ماكسيميانوس (٥٤) ولما لم يكن هذا قد أكمل بعد استعداداته لتلقى هذا الهجوم المباغت فقد آثر الهروب إلى مرسيليا Massilia، ولكن قسطنطين لحق به، ولم يلبث أهلوها أن أسلموا ماكسيميانوس ليد قسطنطين، ولكن الأخير أبقى على حياته (٥٥) .

ومن المحتمل أن يكون قسطنطين قد أقدم على هذا العفو لعدة احتمالات نؤثرها، فقد كان يوقن أن ماكسيميانوس قد أمسى رجلاً لا يخشى بأسه بعد أن تحطمت كل آماله، وهزم هذه الهزيمة الأخيرة، وأنه بهذا التسامى والترفع عن قتله

---

(53) LACT. Mort. Pers. 29 .
(54) Gibbon, op. cit. I, 442.
(55) LACT. Mort. Pers. 29 .

يستطيع أن يمنّ عليه بهذه اليد العليا مستغلاً إياه، كما أسلفنا ورقة رابحة فى صراع حتمى ضد ماكسنتيوس، يضاف إلى ذلك أن قسطنطين لم يكن يريد فى هذه الظروف التى يمر بها، محاولاً توطيد سلطاته فى المناطق الخاضعة له، فتح باب الصراع، أو على الأقل تعجله مع ماكسنتيوس، ومن ثم أراد أن يحرم ماكسنتيوس فرصة قد يتخذها ذريعة لشن الهجوم عليه إذا ما أقدم على قتل والده كما حدث بعد ذلك عندما طالب ماكسنتيوس بثأر أبيه من قسطنطين، وإن لم يكن أباه يعنيه بقدر ما كان يعنيه تحطيم قسطنطين .

وفى صورة درامية عنيفة ينهى لاكتانتيوس حياة ماكسيميانوس، فيذكر أنه تنكر لهذا المعروف الذى أسداه إليه قسطنطين وراح يحيك المؤامرات ضده، وحاول أن يجر معه ابنته فاوستا فى هذا السبيل، ولكنها أفضت إلى زوجها بذلك، وتم اكتشاف المؤامرة وإحباطها فى مهدها وأعدم ماكسيميانوس سنة ٣١٠ (٥٦) . ولعل هذه الصورة التى رسمها لاكتانتيوس عن ماكسيميانوس قد أوحت إلى أحد المؤرخين المحدثين إلى القول بأن الرواية الشائعة عن المعاملة السيئة التى يلقاها الزوج من أم زوجته لا يمكن أن تقارن بما فعله ماكسيميانوس إزاء زوج ابنته(٥٧).

ولم يكد يمضى على هذه الأحداث عام حتى مات جاليريوس (مايو ٣١١) بعد أن دهمه المرض فترة طويلة، فأعطى موته إشارة البدء فى ذلك الصراع المتوقع بين الأباطرة الأربعة - فقسطنطين كان يسود غالة وبريطانيا، بينما كان ماكسنتيوس يحكم إيطاليا وأسبانيا وأفريقيا، أما ليكينيوس فخضعت له الليريا وبلاد اليونان وتراقيا، على حين اختص ماكسيمينوس بكل ما يقع وراء البسفور من

---

(٥٦) تتلخص قصة المؤامرة التى يرويها لاكتانتيوس فى أن ماكسيميانوس طلب إلى ابنته فاوستا أن تترك باب غرفة زوجها مفتوحاً أثناء نومه حتى يتمكن من الدخول واغتيال قسطنطين بيده . وقد تظاهرت فاوستا بالموافقة ثم أنبأت زوجها بالأمر، فاتخذ من الاحتياطات ما يكفى لوقوع ماكسيميانوس فى يده . وقد استطاع هذا الأخير أن يتخطى الحرس بإيهامهم أنه يريد أن يفضى إلى الإمبراطور بحديث هام. ولكن قسطنطين استطاع أن يباغته بخاصة حرسه وأن يلقى عليه القبض ويجبره على إعدام نفسه . راجع : LACT. Mort. Pers.30

(57) Richardson, introduction to (EVSEB.Vita Contst.) Nicene and P.N. F. I, p. 413.

الأراضى الآسيوية ومصر (58) . وقبل أن نشهد هذا الصراع العنيف يجدر بنا أن نتوقف بعض الشيء لنتعرف على سياسة جاليريوس إزاء المسيحية .

كان جاليريوس يكن للمسيحية والمسيحيين كبير عداء، منذ كان قيصراً على عهد الإمبراطور دقلديانوس ، فلما اعتلى عرش الإمبراطورية تمادى فى عدائه هذا وصب عليهم جام غضبه فى الولايات الخاضعة لحكمه فى تراقيا وآسيا والمناطق الخاضعة لقيصره ماكسيمينوس فى سوريا وفلسطين ومصر (59) . ففى سنة ٣٠٦ أعدت قوائم وألزم الأفراد جميعاً بتقديم القرابين، وفى سنة ٣٠٨ صدرت الأوامر لرؤساء المدن والموثقين الذين يحتفظون لديهم بسجلات التعداد بتنفيذ المرسوم السابق الذكر (60) . وإمعاناً فى تنفيذ هذا الأمر وضع الحراس على أبواب الحمامات العامة لقهر الداخلين على تقريب الأضحيات (61) ويصف لاكتانتيوس الحالة بقوله : " لقد راح جاليريوس يضطهد المسيحيين ويتفنن فى وسائل التعذيب والاضطهاد " ويعطى كاتبنا صوراً فظيعة من هذا التعذيب الذى كان يلقاه المسيحيون (62) . ولم يقتصر الأمر على هذه الاضطهادات بأنواعها المختلفة بل تعداه إلى كل شئون الحياة، " فتوقفت دواليب العمل وأهملت سيادة القانون وذهبت أدراج الرياح صيحات الخطباء. لقد تملك حكومة جاليريوس – على حد قول لاكتانتيوس – مس من الشيطان (63) . ومما زاد الطين بلة تلك الضرائب الفادحة التى فرضت على كل ولاية ومدينة، وانتشر الصيارفة فى مختلف الأحياء يحصون كل شيء، الناس والشجر والدواب، وأجبر العبيد على أن يفصحوا عما يخبئه أسيادهم، وعذبت النساء حتى يعترفن بما لدى أزواجهن، ولم يفلت من هذا العذاب شيخ ولا طفل ولم ينج منه مريض ولا ضعيف . لقد كان ذلك أشبه شيء بما يفعله قائد منتصر بخصم دارت عليه

(58) C.M.H. I, p.3.
(59) Gibbon op. cit. p. 140.
(60) Jones, Later Roman Empire, I, p. 72.
(61) Jones, Constantine, p. 68.
(62) LACT. Mort. Pers. 21 .
(63) LACT. Mort. Pers. 22 .

الدائرة"(٦٤) . هذا حسب ما يرويه لاكتانتيوس وإن كنا قد نبهنا إلى المبالغة التى تخالط كتابات مؤرخى الكنيسة فى هذا المجال بالذات .

غير أن جاليريوس فجأ الجميع فى ٣٠ أبريل سنة ٣١١ بمرسوم أصدره جاء فيه :

" كان من بين الأمور التى رتبناها حفاظاً على الصالح العام ما سبق أن أبدينا من الرغبة فى رد الأوضاع إلى الحالة اللائقة بالقوانين القديمة ونظام الرومان العام، وضمان عودة المسيحيين الذين هجروا ديانة أجدادهم إلى حالة طيبة، لأنه قد تملكهم الكبر إلى حد، وغلبت عليهم الغباوة حتى رفضوا اتباع الشرائع القديمة التى سبق أن أسسها أجدادهم، وأقاموا لهم قوانين حسبما تهوى أنفسهم، واجتمعوا جماعات متفرقة فى أماكن مختلفة . ولما أصدرنا أوامرنا بوجوب رجوعهم إلى نظام الأقدمين خضع الكثيرون أمام التحدى، ولكن عدداً ليس باليسير رفض الانصياع وتحمل صنوف الموت، ورغم أن كثيرين قد استمروا فى حماقتهم لا يقدمون لآلهة السماء ما يليق بها من عبادة، فإن محبتنا وما ألفناه من الصفح عن الجميع قد دفعتنا إلى أن يشمل عفونا هذه الأمور أيضاً، حتى يعودوا إلى مسيحيتهم ويعيدوا بناء تلك الأماكن التى اعتادوا الاجتماع فيها، شريطة أن لا يقوموا بعمل ضد النظام العام . وفى رسالة أخرى سوف نبين للولاة ما يجب عليهم اتباعه . وبناء على ذلك يجب عليهم أن يضرعوا لإلههم من أجل سلامتنا وسلامة الشعب، لكى يتم بذلك لهم وللشعب كافة الصالح العام، وحتى يحيوا فى ديارهم آمنيـــن " (٦٥) .

وقد أذيع هذا المرسوم فى نيقوميديا، وعلى أثره فتحت أبواب السجون وخرج منها من كان بها، غير أن هذا المرسوم لم يؤت ثمرته المرجوة، ذلك أن جاليريوس ما لبث أن مات بعد ذيوعه بأيام قلائل (٦٦) .

(64) Ibid. 23.
(65) EVSEB. Hist. Eccl VIII, 17; LACT. Mort. Pers. 34.
(66) LACT. Mort. Pers. 35 .

ويتفق لاكتانتيوس (٦٧) ويوسبيبوس (٦٨) على أن الباعث الأصلى لصدور هذا المرسوم هو ذلك المرض الذى دهم جاليريوس،، فاعتقد أن إله المسيحيين قد انتقم منه بهذا الداء . ومن ثم أراد أن يخفف عن رعاياه ويلات هذا الاضطهاد، ولكن ذلك فى رأى الكاتبين لم ينج جاليريوس من انتقام الرب العدل !

ومما يلفت النظر فى هذا المرسوم أن ديباجته تضمنت صدوره عن الأباطرة الثلاثة جاليريوس وليكينيوس وقسطنطين . فى الوقت الذى خلا فيه من اسم ماكسيمينوس، ولعل فيما يذكره يوسبيبوس فى تاريخه الكنسى (٦٩) خير تعليل لذلك، حيث يذكر أن ماكسيمينوس لم يكن راغباً فى أن يضع اسمه على وثيقة هو عنها غير راض، حيث استمر يمارس الاضطهاد مع المسيحيين . أما ماكسنتيوس فكان إمبراطوراً غير معترف به من أى من أولئك الأباطرة . ولا يعنى صدور المرسوم التزام الأباطرة الثلاثة جميعاً به، فلم تمهل الأيام جاليريوس حتى يشرف بنفسه على تنفيذه . أما الآخران فقد اختلفت سياستهما قبل المسيحيين .

وعبارة المرسوم " على شريطة ألا يقوموا بعمل ضد النظام العام " قد تبدو غامضة وليس من السهل تحديد مدلولها حتى يمكن معرفة تلك الأعمال التى تتعارض والنظام العام، ويبدو أن المرسوم لم يوضح ذلك اعتماداً على ما ذكره جاليريوس من أنه سينهى فى رسالة إلى عماله ما يجب عليهم اتباعه، ولكن هذه الرسالة ضاعت للأسف (٧٠) . وإن كان يمكن القول إن هذه الأعمال تتلخص فى موقف المسيحيين العام إزاء الدولة على النحو الذى عرضنا له فى الفصل الأول .

على أن المرسوم فى حد ذاته يعد اعترافاً صريحاً من جانب جاليريوس بما أقدم عليه من تحديات للمسيحيين، وفى نفس الوقت يعتبر دليلاً واضحاً على فشل سياسة الاضطهاد التى سار عليها، وذلك يبين مما جاء فى المرسوم من أن كثيرين

---

(67) Ibid. 33 .
(68) EVSEB. Hist. Eccl VIII, 17
(69) EVSEB. Hist. Eccl. IX, 1.
(70) Ricahardson, op. cit. N. 9 p. 340.

رفضوا الإذعان لأوامر الإمبراطور، ولما كانت هذه السياسة قد استمرت قرابة ثمان سنوات (٣٠٣-٣١١) دون أن يبدو لها فى الأفق أى بادرة من بوادر النجاح، فقد أدرك جاليريوس مدى خطورة هذه السياسة والنتائج المترتبة عليها بالنسبة لقوة الإمبراطورية ووحدتها، خاصة إذا علمنا أن جاليريوس قد ركز ضرباته ضد أولئك الجنود المسيحيين فى الجيش (٧١) .

ويقول المؤرخ جيــبون (٧٢) تعليقاً على هذا المرسوم " لا يحسن بنا أن نبحث عن حقيقة الشخصيات التاريخية أو الدوافع الكامنة من منطوق المراسيم والبيانات، ولكن ما دامت هذه كلمات إمبراطور يحتضر فإنه يجوز لنا قبولها دليلاً على صدقه وحسن نيته " .

صدر هذا المرسوم فى ٣٠ أبريل ٣١١، ومات جاليريوس فى مايو بعد أن تمكن منه المرض، ولكن يوسيبيوس يزعم أن جاليريوس قد خفت عنه شيئاً حدة المرض فعاود اضطهاد المسيحيين قبل أن تعاجله منيته (٧٣) . خلاصة القول أن مرسوم ٣١١ لم ينفذ تماماً فى كل أرجاء الإمبراطورية نتيجة الأحداث التى أعقبت وفاة جاليريوس مباشرة .

فما إن تلقى ماكسيمينوس نبأ وفاة جاليريوس حتى هرع ليبسط سيطرته على أقاليمه فى الشرق، فلما دخل بيثينيا حاول اجتذاب الأهالى إلى صفه فأمر بإلغاء الضرائب التى كان الإمبراطور الراحل قد فرضها .هذا بينما تباطأ ليكينيوس فى أوروبا ليدعى لنفسه ملكية المناطق الممتدة حتى المضيق الخلقيدونى (٧٤)، وأنذرت الحوادث تلك بوقوع صدام سافر بين الإمبراطورين الطامعين، وسرعان ما دب النزاع بينهما على اقتسام الغنيمة، ووقف كل منهما بجيوشه قبالة الآخر على شاطئ البسفور، ولكن الإمبراطورين آثرا التمسك بأهداب سلام مؤقت، فتباعدت الحرب

(71) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 17.
(72) Gibbon, op cit. II, p. 142 .
(73) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 17.
(74) LACT. Mort. Pres. 36.

بينهما إلى أجل آت لا ريب فيه، ولما اعتقد ماكسيمينوس أن كل شيء قد انتهى عاد أدراجه إلى نيقوميديا (٧٥).

أما فى الغرب فكان الزمن يجرى سراعاً يعجل صراعاً محتوماً بين قسطنطين وماكسنتيوس، فقد وجد هذا الابن العاق، الذى رفض مراراً أن يقبل والده شريكاً له فى الحكم، فى مقتل أبيه على يد قسطنطين نهزة لإشعال نيران الحرب ضده، ويسخر لاكتانتيوس من هذا التصرف من جانب ماكسنتيوس الذى غدا فجأة ابناً باراً بوالده (٧٦).

وهكذا كان طموح الأباطرة الأربعة وأهواؤهم سبباً فى إذكاء نيران حرب أهلية فى الإمبراطورية استمرت قرابة ثلاث عشرة سنة . وفرضت ظروف التنافس بين الجيران على كل منهم أن يبحث عن حليف ضد جاره. فإمبراطوراً الشرق ليكينيوس وماكسيمينوس يتربص كل منهما بصاحبه الدوائر لينفرد بحكم الجزء الشرقى، وهكذا كان إمبراطورا الغرب قسطنطين وماكسنتيوس . وأملت طبيعة الصراع على كل منهم أن يوطد صداقته مع الحليف الأبعد ضد جاره القريب، فقفز قسطنطين عبر إيطاليا وماكسنتيوس ليتحالف مع ليكينيوس، بينما خطا ماكسيمينوس خطوة واسعة فوق الليريا وتراقيا وليكينيوس ليصل إلى ماكسنتيوس، ذلك أن قسطنطين قد رحب بزواج أخته قسطنديا من ليكينيوس (٧٧) . وكان هذا الزواج مدعاة لتوكيد الشكوك التى ساورت ماكسيمينوس عن نيات الإمبراطورين فى التحالف ضده، خاصة بعد ما كان بينه وبين ليكينيوس عقب وفاة جاليريوس، فسارع إلى إرسال سفرائه إلى روما تعرض التحالف على ماكسنتيوس، فرحب هذا بهم وأكرم وفادتهم واعتبر ذلك العرض عوناً إلهياً، حيث كان على وشك الدخول فى حرب مع قسطنطين(٧٨). وقد تأكد أمر هذا التحالف بعد أن عثر قسطنطين فى روما على بعض الرسائل التى كان ماكسيمينوس قد بعث بها إلى حليفه (٧٩) .

---

(75) Id.
(76) Ibid. 43 .
(77) LACT. mort. Pers. 43.
(78) Id; EVSAB. Hist. Eccl. VIII, 14.
(79) LACT. Mort. Pers. 44 .

فى صيف عام ٣١٢ كان ماكسنتيوس قد أعد للأمر عدته، واستطاع أن يقوى مركزه بإعادة غزو أفريقية [٨٠]، وكانت هذه الولاية قد آلمها مطالب ماكسنتيوس التعسفية من الأموال والغلال، فشبت فيها الثورة منادية بدوميتيوس إسكنـــدر Domitius Alexander نائب الحاكم أوغسطسا، فتمكن ماكسنتيوس من استعادتها ثانية [٨١].

ويلقى مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس مسألة طموح هؤلاء الأباطرة جانباً، ويأخذنا فى خضم علل دينية وإنسانية صرفة يقدمها سبباً رئيسياً لهذا الصراع المحموم، فقد كان ماكسنتيوس حسبما يروى يوسيبيوس [٨٢] يعتمد اعتماداً تاماً على السحر والتنجيم، بل إن ذلك كان أسوأ ما فيه على حد قوله، ولم يكن يقيم لإله العالم الحق وزناً، وكان بهذا السحر والتنجيم يرفع نساء وأطفالاً إلى مهام المراكز، ويخفض بهما أيضاً أقدر الرجال إلى الدرك الأسفل، ويضيف أن الحال فى روما آنئذ قد بلغت من السوء حداً لا يمكن تقديره حيث عصفت بها الأوبئة وعضتها المجاعة [٨٣] والمذابح المروعة التى أنزلها ماكسنتيوس بأهل المدينة [٨٤] دون أن يقدم يوسيبيوس لذلك سبباً، هذا بينما كان قسطنطين فى قرارة نفسه يشفق على أهل روما [٨٥]، وكان ينظر إلى العالم باعتباره كلاً متكاملاً، ويدرك أن على رأس هذا العالم تتربع مدينة للإمبراطورية الرومانية خالدة، غير أنها الآن تقع تحت جناح العسف والجور لواحد من الطغاة، ويأمل أن يتم تحرير المدينة على يد أولئك الذين يحكمون مناطق أخرى من الإمبراطورية، فقد كان يميل إلى السلام، ولكنه عندما رأى هؤلاء لا يقدمون شيئاً لإنقاذها، أيقن أن الحياة ستكون له غاية التعاسة، ومن ثم أعد نفسه لمواجهة هذه الطاغية [٨٦] . ولم يكن الإعداد قاصراً على الناحية

(80) Jones, Constantine, p. 74 .
(81) Burckhardt, op. Cit. P. 269.
(82) EVSEB. Vita Const. I, 36.
(83) Id.
(84) EVSEB. Vita Const. 33, 35.
(85) EVSEB. Hist. Eccl. IX, 9.
(86) EVSEB. Vita Const. I, 26.

العسكرية، بل راح قسطنطين يبحث جاداً عن عون يأتيه من قوة الجند والسلاح (٨٧)، ولم يجد هذا، القوة فى السحر والعرافة، ولم يلمسها فى الأرباب التى إياها عبد الأباطرة السابقون ولها قربوا، ولكن بصيرته هدته إلى رب أبيه(٨٨).

على هذا النحو يمهد يوسبيبوس لقصته الشهيرة عن ميل قسطنطين للمسيحية، ويتغافل تماماً عن الدوافع الحقيقية التى أدت إلى قيام هذا الصراع بين المتنافسين، غاضا الطرف عن تلك الحقيقة الواضحة وهى أن قسطنطين لم يكن ليقنع على الإطلاق بأن يظل قابعاً داخل جدران ذلك الموضع الصغير الذى وجد فيه فى جزء من الجزء الغربى للإمبراطورية (٨٩).

يذكر لاكتانتيوس أن قسطنطين قد أقدم على طرح تماثيل ماكسيميانوس أرضاً وإزالة الصور التى كانت قد أقيمت له (٩٠) . فرد عليه ماكسنتيوس بإجراء مشابه، فحطم تماثيله وصوره فى روما ومدن إيطاليا (٩١) . وهكذا أعلنت الحرب رسمياً بين الإمبراطورين . وكان لدى ماكسنتيوس من المشاة مائة وسبعون ألفاً، وثمانية عشر ألف فارس، فإذا أسقطنا من حسابنا تلك القوات الموجودة فى أفريقيا وسردينيا وكورسيكا وصقلية، فإن ماكسنتيوس لم يتمكن إلا من وضع نصف هذا العدد فقط على خط القتال، هذا على حين كانت قوات قسطنطين تسعين ألفاً من المشاة وثمانية آلاف على الخيل، وإن كان قد ترك جزءاً من هذه القوات لتحمى جبهة الراين (٩٢).

وكانت خطة ماكسنتيوس تقوم على أساس الحيلولة دون اتصال قوات قسطنطين وليكينيوس إذا ما حاولت قوات الأخير أن تنضم إلى صهره، فمركز

---

(87) Latourette, Christianity, p. 91.
(88) EVSEB. Vita Const. I, 27.
(89) Jones, Later Roman Empire, I, p. 79.
(90) LACT. Mort. Pers. 42.
(91) Jones, Constantine, p.74.
(92) Jones, Constantine, p.74.

عددا ضخماً من قواته عن فيرونا Verona التى تعد مدخل ممر برنر Brener، غير أن قسطنطين عبر الألب عن طريق Mont Cenis وهبط إلى Susa حيث كانت توجد بعض التحصينات الصغيرة، واستطاع رجاله الاستيلاء عليها بعد أن أشعلوا النيران فى أبوابها، وتسلقوا أسوارها، وإن كان قسطنطين قد أصدر أوامره بإخماد هذه النيران وكبح جماح جنوده عن نهب المدينة (٩٣) . وأمام تورينو AugustaTaurinorum قوبل قسطنطين بخيالة عدوه، فاستطاع بمناورة عسكرية أن يوقع مذبحة مروعة بهؤلاء الفرسان، فتحت على أثرها تورينو أبوابها للظافر، ثم استسلمت بعدها ميلانو، فمكث بها قسطنطين قليلاً ثم واصل سيره، فالتقى بجزء آخر من فرسان عدوه عند بريشا Brescia (Vrixia) فكانت الغلبة لجنوده (٩٤)- .

وكانت القوة الرئيسية لماكسنتيوس عند فيرونا تحت قيادة روريكيوس البومبى Ruricius Pompeianus، وكان موقفه قوياً إلى حد كبير حيث كانت المدينة محصنة، وقد فرض قسطنطين عليها الحصار، إلا أن القائد استطاع الإفلات خلسة ليعود من جديد وفى صحبته مدد آخر (٩٥) وبعد صراع عنيف قتل روريكيوس واستسلمت قلعة فيرونا ولم تلبث المدن الأخرى أن أسلمت للمنتصر قيادها، فأصبح الطريق مفتوحاً إلى روما، فشق طريقه ليصبح أمام التيبر فى ٢٦ أكتوبر ٣١٢ (٩٦) .

وأثناء هذه الرحلة الموفقة تراءى لقسطنطين فى السماء – ما أخبر به يوسيبيوس (٩٧) وهى تلك الهالة المضيئة تحيط صليباً ارتسمت تحته عبارة " بهذا ستنتصر Toutw nika ثم زاره السيد المسيح أثناء نومه مؤكداً له ما سبق أن تراءى له (٩٨)، وهذه كلها أموراً سنتناولها بالدراسة فى الفصل التالى .

---

(93) Ibid. 75.
(94) Richardson, op. cit. p. 416
(95) Jones, Constantine, p. 76.
(96) Richardson, op. cit. p. 416 .
(97) EVSEB. Vita Const. I, 28.
(98) Ibid. 29. LACT. Mort. Pres. 44, SOZOM. Hist. Eccl. I, 3.

كان واضحاً أن ماكسنتيوس بعد أن تلقى الأنباء المتتالية عن هزيمة جيوشه فى الشمال، قد قرر البقاء فى روما وتحصينها، وكانت أسوارها منيعة للغاية، كما أنه كانت لديه كميات وفيرة من قمح أفريقيا، وقوة من الجند لا يستهان بها، وقوى من هذا الاقتراح عنده ما أنبأ به العرافون من أن خروجه سيسبب له كارثة فادحة(٩٩)، غير أن اضطرابا وقع فى المدينة بعد ما أشيع بين الناس القول بأن قسطنطين لا يقهر نتيجة لهذه الانتصارات المتتالية، فانزعج ماكسنتيوس وأمر حاملى الكتب السيبيللية باستطلاع الغيب، فأخبروه أن هناك نبوءة تقول أنه فى يوم ٢٨ أكتوبر سوف يهلك أعداء الرومان، ولما كان ماكسنتيوس يؤمن بالطيرة والعرافة كما يذكر مؤرخو الكنيسة، فقد تأثر بهذا التلميح الذى يعنى يوم اعتلائه العرش، ومن ثم فقد عزم على أن يقابل عدوه فى هذا اليوم (١٠٠)، وبناء على هذا الوحى الغامض عبر ماكسنتيوس التيبر (١٠١) ليلتقى بعدوه فى مكان يسمى الصخور الحمراء Saxa Rubra قرب القنطرة الملفية (١٠٢) Mulvius pons وكانت هذه الخطة التى أقدم عليها ماكسنتيوس جهلاً بفنون الحرب، إذ بدلاً من أن يترك لخصمه مشقة عبور النهر فيسهل القضاء عليه، تطوع هو للقيام بهذه المغامرة، فكان عاقبة أمره خسراً، حيث تمكن قسطنطين من إنزال الهزيمة بقواته وإجبارها على التراجع نحو التيبر حيث غرق الكثيرون منهم (١٠٣) .، ولما حاولت بعض الجموع وعلى رأسها ماكسنتيوس الدفاع عن القنطرة خارت قواهم وغرق الإمبراطور، وهكذا تحققت النبوءة الغامضة بهلاك أعداء الرومان فى ٢٨ أكتوبر ٣١٢ (١٠٤) . ويشبه يوسيبيوس ما حدث هنا بما كان من أمر فرعون وموسى حيث غرق فرعون وجنوده فى اليم لأنهم – كماكسنتيوس من بعد – عصوا أمر الرب(١٠٥) .

---

(99) LACT. Mort. Pres. 44.
(100) Jones, Constantine, pp. 76-77.
(101) Richardson, op. cit. p. 416.
(102) Vasiliev, op. cit. I, p. 44.
(103) LACT. Mort. Pres. 44.
(104) Jones, Constantine, p. 77.
(105) EVSEB. Vita Const. I, 38 .

وفى اليوم التالى لهذه الأحداث دخل قسطنطين روما دخول الظافر حيث قوبل بترحاب كبير من السناتو والأهالى الذين عمد هو منذ البداية إلى التودد إليهم، وفرض بعض العقوبات على أتباع ماكسنتيوس، وفرق الحرس البريتورى (١٠٦) وكانت تلك خطة بارعة أقدم عليها قسطنطين ليجرد المدينة من قوتها، وخلع السناتو الرومانى على قسطنطين لقب Maximus (١٠٧)، بينما استخرجت جثة ماكسنتيوس من التيبر حيث احتزت رأسه وطيف بها روما حتى يشهدها العامة، ثم أرسل بها إلى أفريقيا لتقر بتغيير سيدها (١٠٨).

بهذا غدت روما وإيطاليا وأفريقيا وأسبانيا فى قبضة قسطنطين بالإضافة إلى غالة وبريطانيا، فأضحى بذلك سيد الغرب الفرد بلا منازع، ولكن طموح قسطنطين كان أكبر من أن يتسع له هذا الجزء، فقنع مؤقتاً بما جادت به الأيام وانتظر ما تجىء به، ولم يكن فى انتظاره سلبيا يتوقع الحوادث، بل يحركها ويدير دفتها حتى صار للإمبراطورية كلها سيدا.

لم يمكث قسطنطين فى روما طويلا، فبعد أن تأكد لديه أن الأمور قد استقرت غادرها إلى ميلانو حيث وافاه هناك ليكينيوس ليتسلم زوجته قسطنديا(١٠٩). وشهدت المدينة إلى جوار الاحتفالات الضخمة التى أقيمت فى هذه المناسبة اجتماعات عقدها الجانبان لتوكيد عرى الصداقة والتحالف، وللاتفاق على رسم سياسة معينة واضحة تجاه هذا البعض من رعايا الإمبراطورية الذين قضوا من عمرهم أعواماً طوالا يقاسون ويلات التعذيب والاضطهاد، ووضع حد لهذه المشكلة الدامية التى أرهقت السياسة الداخلية للإمبراطورية دون أن تفلح هذه فى إيجاد حل لها، فاتفق الطرفان على إطلاق حرية العقيدة لجميع الرعايا الخاضعين لسلطانهم شريطة ألا يتعارض ذلك مع الصالح العام للإمبراطورية(١١٠) وهو الاتفاق الذى شاع عند المؤرخين باسم "مرسوم ميلانو" فى عام ٣١٣.

(106) Richardson, op. cit. p. 416 .
(107) LACT. Mort. Pres. 44 .
(108) Jones, Constantine, pp. 77.
(109) LACT. Mort. Pers. 45.
(110) EVSEB. hist. eccl. X, 5; LACT. Mort. Pers. 48.

هذا على حين كان ماكسيمينوس فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية ينهج نهجا مخالفا، فقد كان من أكبر أنصار اضطهاد الرعايا المسيحيين طيلة عهد جاليريوس، بل إنه اشتط فى هذه السياسة حتى فاق بها كثيرين ممن سبقوه(١١١). فلما أصدر جاليريوس مرسوم التسامح سنة ٣١١، لم يكن ماكسيمينوس راغبا فى اتباعه، ولذلك فإنه بدلا من إرسال نص المرسوم إلى ولاته أعطاهم أوامر شفهية لتخفيف حدة الاضطهاد عن المسيحيين، لأنه لم يكن بمقدوره أن يبدو فى صورة المعارض لأوامر سيده(١١٢). غير أن سابينوس Sabinus محافظه البريتورى، وجه رسائل خاصة إلى كل حكام الولايات التابعة لماكسيمينوس جاء فيها:

"سبق لأصحاب الجلالة الأباطرة أن وجهوا تفكير رعاياهم دوما للسلوك فى سبيل الحياة النقية السليمة، وحتى يقدم أولئك الذين يحيون بصورة لا تتفق مع الرومان، العبادة الواجبة للأرباب الخالدين، ولكن عناد البعض وعزمهم الذى لا يلين ذهبا إلى حد بعيد فلم يتزحزحوا قيد أنملة عن مقصدهم رغم ما أعطى إليهم من أوامر، ولا خارت نفوسهم رغم ما توعدهم من قصاص. ونظرا لأن الكثيرين - بمثل هذا السلوك - قد وضعوا أنفسهم تحت طائلة العقاب فإن أصحاب الجلالة الأباطرة بسبب ما جلبت عليه نفوسهم من نبالة وتقى، وجدوا أنه مما يتنافى مع مقصد جلالتهم أن يعرضوا - نتيجة لذلك - أناسا للخطر، فأمروا خادمهم الأمين - أعنى شخصى لكى اكتب إلى فطنتك بأنه لا يجب إزعاج أى مسيحى يمارس طقوس ديانته أو تعريضه للخطر، لذلك أحرص على أن نكتب لأولى الأمر والقضاة ورؤساء المدن مخبرا إياهم بهذا الأمر(١١٣)".

وبناء على ذلك قام حكام الولايات بنقل هذه الأوامر إلى من تعنيهم، وسعوا بأسرع ما يمكن لإتمام ما حسبوه رغبة الإمبراطور الحقة، فأطلقوا سراح أولئك المسجونين، وأعادوا من النفى من كانوا قد بعثوا بهم إلى المناجم لأنهم على حد قول يوسيبيوس ظنوا خطأ أن هذه هى رغبة الإمبراطور(١١٤).

(111) LACT. Mort. Pers. 37, 38; EVSEB. hist. eccl. VIII, 14.
(112) EVSEB. hist. eccl. IX, 1.
(113) EVSEB. hist. eccl. IX, 1.
(114) Id.

على أن ماكسيمينوس لم يسمح بذلك أكثر من ستة أشهر ثم عاد من جديد يمارس سياسة اضطهاد المسيحيين، وكان ثيوتيكنوس Theoticnus والى أنطاكية يوافق الإمبراطور ميوله فصب جام غضبه على المسيحيين، وأقام تمثالا هناك لرب الأرباب جوبيتر، وأوعز إلى الإمبراطور أن الآلهة أمرت بطرد المسيحيين - كأعداء له - خارج حدود المدينة وما جاورها من أقاليم. وقد أدى نجاحه فى ذلك إلى إغراء كل مواطنى المدن الواقعة فى نفس المنطقة على أن يحذو حذوه ما دام ذلك يرضى الإمبراطور(١١٥)، ومن ثم انهالت على ماكسيمينوس رسائل عديدة من مختلف المناطق تطلب إليه منع المسيحيين من البقاء أو الإقامة داخل أسوار هذه المدن(١١٦). وقد عين ماكسيمينوس فى كل مدينة كاهنا أعلى كانت مهمته مراقبة تقديم الأضحيات للأرباب ومنع المسيحيين من بناء كنائسهم أو ممارسة طقوسهم وشعائرهم، وأمرهم بأن يجبروا المسيحيين على التضحية للآلهة، فإذا ما رفضوا وجب عليهم المثول أمام الحاكم المدنى لينالوا جزاءهم(١١٧). وقد حفظ يوسيبيوس صورة من هذا الأمر وجدت فى مدينة صور جاء فيه: "أما إذا أصروا - المسيحيون - على ضلالتهم اللعينة، فليطردوا من مدينتك ومقاطعتك كما أردت لكى تستطيع مدينتك - إذ تتحرر من كل دنس وكفر - ممارسة الشعائر المقدسة للآلهة الخالدة(١١٨).

غير أنه قبل نهاية ٣١٢ عاد ماكسيمينوس من جديد يؤثر سياسة التراجع عن التمادى فى الاضطهاد، فبعث برسالة إلى سابينوس، حاول فيها أن يبرر سياسته السابقة فى أمر الاضطهاد وأن يخفف عن نفسه مسئولية عنف هذه الإجراءات، وتطالعنا افتتاحية الرسالة برغبة دقلديانوس وماكسيميانوس فى إعادة أولئك الذين هجروا عبادة الإله واعتنقوا المسيحية إلى سابق عهدهم عن طريق

(115) Ibid. IX. 2-4.
(116) LACT. Mort. Pers. 36.
(117) LACT. Mort. Pers. 36.
(118) EVSEB. hist. eccl. IX, 7.

التأديب العلنى والقصاص، ويذكر أنه سعى إلى تخفيف حدة هذه الإجراءات بعد ما رأى من إمكانية الاعتماد على كثيرين ممن يتعرضون للتعذيب فى تأدية الخدمات العامة، فأمر القضاة ألا يشتطوا فى تنفيذ الأوامر السابقة. غير أنه عندما أتى إلى نيقوميديا بعد وفاة جاليريوس، تقدم إليه بعض أهلها يلتمسون منه أن لا يسمح للمسيحيين بالإقامة بين ظهرانيهم، وتابعهم فى ذلك كثير من المدن الأخرى، فلم ير بدا من إجابتهم لما يريدون، ولكنه كان يرى، كما يذكر، أن الإقناع هو خير وسيلة لإعادة هذا القبيل من الناس إلى قدس الأرباب ثانية. ومن ثم فإنه يجب أن لا يضار أحد بسبب عقيدته، بل تترك الحرية الدينية للجميع، وإن كان من المفضل استمالة المواطنين بالنصح والترغيب، لا العنف والترهيب، إلى عبادة الآلهة(١١٩).

ويذكر يوسيبيوس أن ماكسيمينوس قد كتب هذه الرسالة بعد اجتماع الإمبراطورين قسطنطين وليكينيوس فى ميلانو، واتباعهما سياسة المسامحة مع المسيحيين، وأن خوفه منهما كان دافعه الرئيسى لسلوك هذا السبيل(١٢٠). غير أن هذا القول لا يمكن التسليم به بداهة، فمن المعلوم لدينا أن ماكسنتيوس قد هزم فى نهاية أكتوبر ٣١٢، وأن قسطنطين قد مكث فى روما بعضا من الوقت نظم فيه شئون أقاليمه الجديدة، ثم ارتحل فى مارس ٣١٣ إلى ميلانو حيث قابل ليكينيوس(١٢١)، وحيث اتفقا على سياستهما إزاء المسيحيين. ولما كان قد جاء فى رسالة ماكسيمينوس هذه إلى سابينوس عبارة تقول: "غير أنى لما ذهبت فيما بعد إلى نيقوميديا السنة الماضية"، ولما كنا نعلم من لاكتانتيوس(١٢٢) أن ماكسيمينوس أتى نيقوميديا عقب وفاة جاليريوس مباشرة، ولما كانت هذه الوفاة قد حدثت فى مايو سنة ٣١١، كانت عبارة "السنة الماضية" التى جاءت فى رسالة ماكسيمينوس تعنى أن أنه الآن فى سنة ٣١٢، أى قبل اجتماع ميلانو بأشهر قلائل على وجه الترجيح ومن ثم يحتمل كتابتها قبل نهاية عام ٣١٢، إذ أن ماكسيمينوس أصدر بعد

(119) Ibid. IX, 9.
(120) EVSEB, hist. eccl. IX, 9.
(121) Gibbon, op. cit. I, p. 459.
(122) LACT. Mort. Pers. 36.

هزيمته أمام ليكينيوس في هرقليا عام ٣١٣، وفراره إلى نيقوميديا مرسوما في صالح المسيحيين جاء فيه: "أرسلت رسائل في العام الماضي إلى حاكم كل مقاطعة نأمره فيها بالسماح لكل فرد بتأدية شعائره الدينية أيا كان نوعها وبلا عائق" وهذه إشارة صريحة إلى رسالته لسابينوس.

وعلى هذا الأساس يمسى دافع الخوف الذى يسوقه يوسيبيوس محركا للإمبراطور على انتهاج هذا السبيل، لغوا. فما الذى أجبر ماكسيمينوس على أن يغير من سياسته؟

يذكر البعض(١٢٣) أن ماكسيمينوس شعر بتأنيب الضمير نتيجة سياسة الاضطهاد التى انتهجها حيال المسيحيين، وتحول هذا الشعور إلى إحساس بالخوف من ذلك الإله الذى إياه يعبد المسيحيون، بعد أن هزم على يد ملك أرمينيا المسيحى سنة ٣١٢، وبعد أن تعرضت أقاليمه لمجاعة طاحنة وطاعون فتاك، ومن ثم أقدم على هذا الإجراء. على حين يرى آخر أن الظروف السياسية التى أحاطت بماكسيمينوس هى التى دفعته إلى ذلك(١٢٤)، ونميل إلى الأخذ بهذا الرأى، ذلك أن ماكسيمينوس أدرك حرج موقفه بعد الهزيمة السريعة الفادحة التى لحقت بحليفه ماكسنتيوس وأدرك أن انتصار قسطنطين تدعيم لمركز رفيقه ليكينيوس ، ومن ثم استشعر الخطر من هذه الأحداث، وأدرك أن الحرب بينه وبين خصمه ليكينيوس أضحت وشيكة الوقوع، ولما كان غالب رعاياه فى الولايات الشرقية التى يسيطر عليها من المسيحيين المضطهدين، فقد أراد التقرب إليهم علهم يكونون عونا له فى هذا الصراع، أو حتى على أقل تقدير ليضمن عدم ممالاتهم لعدوه وثورتهم أثناء انشغاله فى هذه الحرب مما يهدد كيانه بخطر جسيم. خاصة وأنه كان يتوقع تفوق قوات عدوه عليه إذا ما انضمت جيوش قسطنطين إلى ليكينيوس.

كانت الحرب بين ماكسيمينوس وخصمه أمرا لا مندوحة عنه خاصة وأن هذا الأخير لم يكن قد أشرك فى أى جزء من الأقاليم التى غنمها مؤخرا قسطنطين،

(123) Jones, Constantine, pp. 87-88.

(124) McGiffert, op. cit. n. 18 p. 364.

بل ترك ليمد نفوذه هو الآخر على حساب جاره ماكسيمينوس[١٢٥]، ولم يكن هذا الأخير يقل طمعا عن صاحبيه، فقد كان لا يقنع بتلك المنطقة التى يسيطر عليها[١٢٦]. وكادت الحرب أن تنشب بينه وبين ليكينيوس عقب موت جاليريوس مباشرة سنة ٣١١ إلى أن استبدلا بها معاهدة للسلام مؤقتة.

كانت خطة ماكسيمينوس تقوم على أساس أن حليفه ماكسنتيوس سوف يقاوم قسطنطين لفترة طويلة، مما يجعل ليكينيوس يدفع بقواته لمناصرة حليفه، وبهذا تسنح الفرصة لماكسيمينوس ليهاجم أقاليم جاره أثناء خلوها من القوات[١٢٧]، ولكن الأمور سارت على عكس ما توقع وعلى غير ما كان يهوى فؤاده، ذلك أن حربا خاطفة طاحنة أخذت من اليوم بعضه انقشع غبارها عن ابتلاع التيبر لماكسنتيوس وجنوده، وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى فتحت روما أبوابها لقسطنطين، فهلل أهلوها ورفعه السناتو مكانا عليا، ثم لم تكن إلا أشهر قلائل حتى التقى الحليفان فى ميلانو يرسمان للمستقبل سياستهما، ويدشنان تآلفهما بحفل زواج ليكينيوس وقسطنديا، ودخل فى روع ماكسيمينوس أن فى خطتهما للمستقبل نهايته، وأن فى انشغالهما بهذا العرس فرصته. ومن ثم صمم على أن يهتبلها ليضرب ضربته قبل أن تضيع إلى الأبد.

يصحبنا لاكتانتيوس[١٢٨] فى ركاب جيش ماكسيمينوس منذ تحرك خارجا من سوريا فى شتاء غاية فى القسوة، واستطاع بصعوبة بالغة الوصول إلى بيثينيا بعد أن أنهكت قواه وفقد منه عدد كبير، حيث كانت أشلاؤه مبعثرة على طول الطريق، وكان ذلك – على حد قوله – إشعارا بكارثة محققة فى هذه الحرب المقبلة، ورغم ذلك لم يتوقف ماكسيمينوس، بل واصل زحفه عابرا البسفور إلى تراقيا، واقترب فى سلوك عدائى من أبواب بيزنطة التى كان ليكينيوس قد ترك بها حامية لتصد أى هجوم قد يفكر فيه ماكسيمينوس. وقد حاول هذا استمالة الحامية أول الأمر عن طريق الاغراء

(125) Boak, op. cit. p. 431.
(126) Jones, Later Roman Empire, I, 79.
(127) Jones, Constantine, p. 64.
(128) LACT. Mort. Pers. 45.

بالمنح والعطايا، ولكن هذه الخطة لم تفلح، فاستبدلها بالعنف، وفرض على المدينة حصاره الذى استمر أحد عشر يوما، سلمت المدينة على أثرها حيث لم تقو على مجابهة الحصار. ولم يضع ماكسيمينوس وقتا، فسار مباشرة إلى هرقليا وأخضعها لسلطانه، ولكنه لم يبتعد عنها بأكثر من ثمانية عشر ميلا حتى وافته الأنباء بأن ليكينيوس قد خرج إليه من أدريانوبل Adrianopolis وكان قد جاءها على عجل من ميلانو بعد أن سمع بأنباء هجوم ماكسيمينوس. وقد راح ليكينيوس يلتقط ما تصل إليه يداه من الجنود من هنا وهناك، وتقدم نحو عدوه ليمنعه من التقدم دون أن يكون له فى الحرب رغبة أو فى النصر أمل" كما يقول لاكتانتيوس(١٢٩) معللا ذلك بأن ماكسيمينوس كان يمتلك جيشا يربو على سبعين ألف مقاتل، بينما لم يكن لدى ليكينيوس سوى ثلاثين ألف رجل، ولم يستطع قسطنطين أن يمد لحليفه يد العون حيث استدعى من ميلانو فى نفس اللحظة ليرد عدوانا على الراين شنته قبائل الفرنجة(١٣٠).

التقى الجيشان قرب هرقليا Heraclia وأصبحت المعركة وشيكة الوقوع، يقول لاكتانتيوس(١٣١) إن ماكسيمينوس قد نذر لأن أظفره جوبتر بعدوه ليمحون من الوجود اسم المسيحيين، ولكن هذا القول لا يتفق وما ذكرناه عن الخطة التى اتبعها ماكسيمينوس للتودد إلى رعاياه المسيحيين بذلك المرسوم الذى أصدره فى شتاء ٣١٣/٣١٢ يرفع عن كواهلهم نير الاضطهاد، ولم يكن ماكسيمينوس من البلاهة بحيث يظهر هذا التحدى السافر لشعور جزء كبير من رعيته وهو على أبواب معركة يحتاج فيها لأن يجمع الصفوف كلها حوله ومن خلفه. أضف إلى ذلك أيضا أن ما أقدم عليه ماكسيمينوس بعد هزيمته أمام ليكينيوس إزاء المسيحيين من العفو عنهم يضع قول لاكتانتيوس فى محك الاختبار.

وإذ جعل لاكتانتيوس إعتماد ماكسيمينوس على جوبتر، فلابد أن يعتمد ليكينيوس على قوة إلهية مضادة، ولما كان قد اتفق وقسطنطين فى ميلانو على منح

(129) Id.
(130) Gibbon, op. cit. I, p. 459.
(131) LACT. Mort. Pers. 47.

المسيحيين حرية العقيدة، فقد أخبرنا كاتبنا أنه قد ظهر له أثناء نومه ملاك الرب واستحثه على النهوض مسرعا وترتيل صلوات معينة للإله الأعلى، ووعده بأن النصر فى جانبه إذا ما نفذ ذلك، وهب ليكينيوس من غفوته وأيقظ مستشاره الذى كان بجواره وعلمه كيف يصلى، ثم استدعى إليه أحد خاصته وأملى عليه تلك الصلوات وأمره أن يعطيها قواد جيشه ليرددوها والجند من ورائهم، فتعالت صيحاتهم مرددة:

"أيها الإله العلى ... إليك نضرع .. أيها الرب المقدس إياك ندعو .. فيك نرى كل عدالة، ومنك نستمد كل أمن، وإليك نكل أمر إمبراطوريتنا. بك نحيا، وبقدرتك ننتصر، اللهم ياذا القداسة والمهابة. تقبل دعاءنا، إليك نبسط أكفنا، فاستمع لنا ياذا العظمة والجلال(١٣٢)".

ويبدو أن حماس لاكتانتيوس للمسيحية، وشديد بغضه لماكسمينوس لما أوقعه بالمسيحيين فى أقاليمه من اضطهاد، قد أنساه ذكر قوله فى أول الأمر من أنه لم يكن لدى ليكينيوس أى رغبة فى الحرب أو أمل فى النصر، فهو يخبر الآن(١٣٣) أن ليكينيوس أراد أن لا تحدث المعركة إلا فى أول مايو، وهو اليوم الذى يوافق تمام السنة الثامنة من حكم ماكسيمينوس، حتى يحطمه فى يوم عيد جلوسه على العرش، كما فعل قسطنطين مع ماكسنتيوس من قبل، غير أن لاكتانتيوس لا يجد رهقا فى تقديم تعليل لذلك، فقد امتلأ ليكينيوس وجنده حماسة بهذه الأدعية التى جاءته فى نومه وحيا، هذا على حين كان ماكسيمينوس يتوق إلى أن تنشب المعركة فى اليوم الأخير من أبريل حتى يحارب فى اليوم السابق على توليه السلطة، فإن كان النصر حليفه جعل غداه أسعد أيامه.

وفى ٣٠ أبريل ٣١٣ التقى الجمعان، فتحقق لماكسيمينوس بذلك بعض ما كان يبغى، غير أن أمله فى النصر لم يأته أبدا، ففى معركة خاطفة هزم ماكسيمينوس هزيمة ساحقة، ولم تختلف معركة هرقليا عن موقعة الصخور

(132) Id.
(133) LACT. Mort. Pers. 47.

الحمراء من حيث نتائجها إلا فى شىء واحد هو فرار ماكسيمينوس على حين غرق ماكسنتيوس.

ومع ما قاله لاكتانتيوس عن انتصار ليكينيوس ودواعيه، فقد كان طبيعيا أن يلقى ماكسيمينوس الهزيمة، وقد أخبرنا الكاتب نفسه أن جيش هذا قد فقد عددا ليس باليسير من أفراده، وأن أشلاءهم تبعثرت من خلفهم، وأن قوى هذا الجيش قد أنهكت طيلة هذه الرحلة خلال الشتاء القارص، ثم يعلق بقوله "وكان ذلك إشعارا بكارثة محققة فى هذه الحرب المقبلة".

ولنا أن نتصور تلك الفترة الوجيزة التى استغرقتها هذه الرحلة من سوريا إلى تراقيا، فإذا علمنا أن التقاء الحليفين ليكينيوس وقسطنطين تم فى ميلانو فى مارس ٣١٣، وأن موقعة هرقليا كانت فى ٣٠ إبريل من نفس العام، أدركنا مدى السرعة التى كان جيش ماكسيمينوس يسير بها ليقطع هذه المسافة الطويلة عبر شمال سوريا فآسيا الصغرى فالبسفور إلى تراقيا، أضف إلى ذلك مقاومة بيزنطة وهرقليا، فإذا أضفنا إلى هذا كله عدم ملاءمة الأحوال الجوية عندئذ، تأكد لدينا صعوبة الظروف التى تهيأ فيها جيش ماكسيمينوس للقتال، ويؤكد هذا ما يذكره لاكتانتيوس نفسه فى قوله:".. ولما تأكد لدى دازا (ماكسيمينوس) أن الإمبراطورين مشغولان فى حفل الزواج، تحرك خارجا من سوريا فى شتاء غاية فى القسوة"(١٣٤). ومن ثم كان لنا أن ندرك الإعياء والحالة المعنوية السيئة التى كان عليها جيش ماكسيمينوس، ولم يكن التفوق العددى ليغنه شيئا عن خسارته الجسمانية والنفسية.

استطاع ماكسيمينوس أن يفر بنفسه من هذه المعركة، وتبعه عدد من جنده، ويعلق البياني الأفريقى على ذلك بقوله: "لم يصبح من العار أن يهرب من أراد النجاة"(١٣٥) إذ أن الإمبراطور نفسه قد ضرب لهم المثل. وقبل أن تغيب شمس اليوم الأول من مايو كان ماكسيمينوس قد وصل إلى نيقوميديا على الرغم من أن المسافة بينها وبين أرض المعركة كانت تزيد على مائة وستين ميلا(١٣٦)، ويعلق

(134) LACT. Mort. Pers. 45.
(135) Ibid. 47.
(136) Id.

جيبون على ذلك ساخرا: " إن السرعة المذهلة التى استخدمها ماكسيمينوس فى هروبه لجديرة بالتمجيد أكثر من جرأته فى المعركة(١٣٧).

حالما وصل ماكسيمينوس إلى نيقوميديا أراد من جديد استرضاء رعاياه المسيحيين ليضمن وقوفهم إلى جواره فى معركة فاصلة قادمة بينه وبين ليكينيوس، فأصدر مرسوما فى صالحهم ذكر فيه حرصه الدائم على توفير أسباب الراحة والهدوء لمواطنيه، وأنه قد اتضح له أن كثيرين من الموظفين قد ارتكبوا عديدا من حوادث السلب والنهب تحت ستار تنفيذ الأوامر التى كان قد أصدرها دقلديانوس وماكسيميانوس لتحريم اجتماعات المسيحيين، ونلاحظ أنه يلقى بالتبعية كاملة هنا وفى رسالته السابقة الذكر إلى سابينوس على هذين الإمبراطورين، ويستطرد فى مرسومه موضحا أنه نتيجة ذلك عمل على تخليص هؤلاء المسيحيين من عسف أولئك الموظفين، ثم يذكر ما كان من أمر رسالته إلى سابينوس وما جاء فيها من حرية العبادة للمسيحيين، ولكن قضاته وموظفيه - على حد قوله - حرفوا هذه الأوامر، لذلك رأى أن يذيع أمراً إمبراطوريا بحرية العقيدة لجميع مواطنيه، وممارسة الطقوس الدينية وبناء دور العبادة، كما أمر برد الكنائس المصادرة إلى ملكيتها المسيحية(١٣٨). غير أن ذلك كله لم يجده نفعا، فقد ضاعت فرصة النصر من يديه بهزيمته فى هرقليا، وأضحت جهوده اليائسة للم شعث جنود جدد من آسيا وسوريا محاولات لا جدوى وراءها.

ومن نيقوميديا ارتحل ماكسيمينوس وبصحبته أهله، وفى معيته بلاطه ميمما شطر سوريا، ولكنه توقف فى كبادوكيا حيث ارتدى من جديد عباءته الإمبراطورية وكان قد خلعها أثناء فراره(١٣٩). فكان ذلك إيذانا بعزمه على مواصلة الحرب ضد ليكينيوس، وكان هذا قد وصل إلى نيقوميديا، وبعث فى ١٣ يونية ٣١٣ رسالة إلى حاكم بيثينيا(١٤٠)، وهى الرسالة التى ذاعت فى التاريخ خطأ باسم مرسوم ميلانو.

---

(137) Gibbon, op. cit. I, p. 460.
(138) EVSEB. hist. eccl. IX, 10.
(139) LACT. Mort. Pers. 47.
(140) Ibid. 48.

تقهقر ماكسيمينوس حتى وصل إلى طرسوس Tarsus وتحصن بها، ولكن عاجلته المنية(١٤١)، فوضع موته المفاجئ فى هذه اللحظة ليكينيوس سيدا على الولايات الشرقية(١٤٢). وهكذا أصبح فى الحكم إمبراطوران، ليكينيوس فى الشرق، وفى الغرب قسطنطين. وكانت صفحة من صفحات الحروب الأهلية داخل الإمبراطورية قد بقيت لم تطو بعد لتسجل صراعا عنيفا بين حليفين لدودين. ويقول جيبون فى هذا الصدد، لقد كان المتوقع أن يكون الإعياء الذى حل بالإمبراطورين الظافرين نتيجة الحروب الأهلية، والارتباط الذى كان قائما بينهما، مدعاة لأن يطلقا أو على الأقل يكبحا جماح نزوات الطموح، غير أنه لم يكد ينقضى عام على وفاة ماكسيمينوس حتى شهر الحليفان سلاحهما كل فى وجه صاحبه(١٤٣)، ذلك أن وضع الإمبراطورين كان يحتم على كل منهما النزاع من أجل تفوق أحدهما على الآخر واستئثاره بالسلطة(١٤٤).

ربما كان ليكينيوس راغبا عن الدخول فى حرب ضد حليفه، قانعا بإقليمه ذلك المتسع الذى يمتد من حدود أرمينيا شرقا حتى بحر أدريا غربا، يدلنا على ذلك استقراء تاريخه العسكرى منذ عينه جاليريوس أوغسطسا عام ٣٠٧ حتى سنة ٣١٣ عندما شبت الحرب بينه وبين ماكسيمينوس. فعلى الرغم من أنه سيطر على إقليم بانونيا إلى أن يتم استعادة المنطقة التى اغتصبها ماكسنتيوس، إلا أنه لم يحرك ساكنا فى سبيل إلزام خصمه على التخلى عنها، وتركه يثبت أقدامه ويقوى نفوذه فى إيطاليا وأسبانيا وأفريقيا وقبع هو فى بانونيا، ولما مات جاليريوس وأصبح ماكسيمينوس لا يفصل بينهما إلا البسفور، آثر السلام مكتفيا بما وصلت إليه سلطته الآن. ولم يحاول مطلقا بعد هزيمة ماكسنتيوس، المطالبة ولو بجزء من هذه الأراضى الشاسعة التى كانت تعد قانونا من أملاك ليكينيوس نفسه حسب القرار

(141) Ibid. 49.
(142) Cary, op. cit. p. 735.
(143) Gibbon, op. cit. I, p. 463..
(144) McGiffert, op. cit. n. 1. P. 384.

الذى اتخذه دقلديانوس وماكسيميانوس وجاليريوس فى مؤتمر عام ٣٠٧، ولم يكن ليكينيوس هو الذى أشعل الحرب مع ماكسمينوس، بل كان "غير راغب فى الحرب، بلا أمل فى النصر". ولكن الأقدار ساقت له جيشا متهالكا، وأهدت إليه غنم معركة خاطفة، وزينت جبينه بأقاليم الشرق، وأزاحت بيدها - لابيده - ماكسيمينوس من طريقه، فغدا بلا كبير عناء سيدا على أعظم مناطق الإمبراطورية خصبا وثراء. ذلك شيء يجعل الشك حول رغبة ليكينيوس إذكاء نيران حرب جديدة أمرا واقعا.

ولكن ليكينيوس كان يتوجس فى نفسه خيفة من قسطنطين، فقد كان يدرك تماما مبلغ طموح هذا الرجل منذ عرفه قيصرا، فإمبراطورا شريكا، فحليفا، وكان فى سياسة قسطنطين قبل ماكسيميانوس وولده دليل واضح على نياته، مما زاد الشكوك فى صدر ليكينيوس، وذهبت به الظنون كل مذهب، وقويت هذه لديه بما أتت به الأحداث، فأقدم على ارتكاب عدة حماقات وجد فيها قسطنطين فرصة عمر لم يتوان لحظة عن اهتبالها، فأضحى على أثرها سيد الإمبراطورية.

ولقد كان لدى قسطنطين ما يثير شجونه وأحقاده ويدفعه لتلمس المبررات الضرورية لقتال خليف الأمس، فقد كانت قوته ترتكز أساسا على جزء يعد أشد مناطق العالم الرومانى فقرا وأقلها سكانا(١٤٥) فى الوقت الذى كان فيه ليكينيوس يحوز إقليم الليريا الذى طالما قدم للجيش الرومانى أقوى الرجال(١٤٦)، ولم يكن قسطنطين بالذى يغفل عن هذه الناحية، فقد كان يدرك مدى ما لهذا الإقليم من أهمية بالنسبة لمشروعاته القادمة، ومن ثم عول على أن تكون وثبته التالية فوق هذا المعين البشرى الذى لا ينضب.

ولما كان قسطنطين قد استدعى إلى غالة عقب اجتماع ميلانو لردع تحركات الفرنجة هناك فإنه فكر فى إقامة مناطق حاجزة بينه وبين ليكينيوس(١٤٧) على غرار

---

(145) Cantor, op. cit. p. 4.
(145) C.M.H. I, p. 6.
(147) Gibbon, op. cit. I, p. 463.

نظام القياصرة الذى كان دقلديانوس قد ابتدعه[١٤٨]. فأراد تعيين باسيانوس Bassianus زوج أخته اناستاسيا Anastasia قيصرا، وطلب إلى ليكينيوس الموافقة على ذلك. وقد أدى هذا الاقتراح إلى حدوث نزاع بين الإمبراطورين[١٤٩]. ويقول جيبون أن ليكينيوس قد وافق فى النهاية على هذا الاقتراح محاولا استغلال الظروف لصالحه بالدخول مع هذا القيصر فى تحالف ضد قسطنطين[١٥٠]، وقد بنى جيبون والمؤرخون المحدثون رأيهم هذا، وما ترتب عليه من اعتبار ليكينيوس المسئول عن اندلاع الحرب الأولى بينه وبين قسطنطين، على ماذكره يوسيبيوس[١٥١] من وجود مؤامرة تستهدف القضاء على قسطنطين دبرها سنكيو Senecio الذى كان فى خدمة ليكينيوس بالاشتراك مع أخيه باسيانوس زوج أخت قسطنطين، غير أن هذا الأخير استطاع أن يقضى على المؤامرة فى مهدها، وأن يقدم للأعداء صهره، ثم طلب من ليكينيوس أن يسمله سنكيو، فلما رفض وجد قسطنطين فى ذلك ذريعة لشن الحرب.

وإذا جاز أن نعتبر هذه المؤامرة - إن صحت رواية يوسيبيوس - سبب الحرب الأولى، إلا أنها لم تكن كل السبب، فقد ذكرنا ما كان يعتمل فى نفس قسطنطين من حقد دفين سببه سيادة زميله على مناطق أكثر غنى ورخاء من تلك التى فى قبضته، وستدعم الأحداث بعد قليل ما نذهب إليه. هذا بالإضافة إلى ما نعرفه عن أخلاق ليكينيوس وعدم حبه للمغامرة، وما نعرفه أيضا عن صفات قسطنطين وطموحاته الواسعة التى لا تقنع مطلقا بما تحت يديه من ممتلكات، ورغبته الجامحة فى السيادة على الإمبراطورية بأسرها، خاصة وأن مناطق الشرق وقلبها مصر، أغنى ولايات روما، لازالت تحت سيطرة حليف الأمس.

أوقع قسطنطين بالفرنجة على الراين هزيمة ساحقة، ومكث فى تريز Trier (تريف) Augusta Treverorum حتى نهاية صيف عام ٣١٤ حيث تحرك بقوة يبلغ تعدادها عشرون ألف مقاتل لغزو أقاليم ليكينيوس الذى كان فى حوزته ٣٥,٠٠٠

(148) Boak, op. cit. p. 431.
(149) Jones, Constantine, p. 126.
(150) Gibbon, op. cit. I, p. 464.
(151) EVSEB. vita Const. I, 50.

جندى، ورغم هذا التفوق العددى إلا أن الهزيمة لحقت به فى Cibalae بين الساف والدراف[١٥٢]، فى الثامن من أكتوبر، فارتد إلى سرميوم Sirmium التى تبعد عنها بخمسين ميلا ومنها إلى داشيا، فتبعه قسطنطين محتلا سرميوم[١٥٣] ولحق به فى وادى ماريا Mardia فى تراقيا حيث دارت رحى معركة أخرى لم تكن أقل من سابقتها عنفا وضراوة، أيقن ليكينيوس بعد هزيمته فيها أن لا أمل له فى النصر، فأرسل من قبله مندوبين للتفاوض مع قسطنطين[١٥٤]، وفى ديسمبر ٣١٤ عقدت بين الخصمين معاهدة تنازل ليكينيوس بمقتضاها لقسطنطين عن كل أقاليمه فى أوروبا عدا تراقيا، واحتفظ لنفسه بهذه وما وراء البسفور[١٥٥]، وبهذه المساحة الضخمة المليئة بالمال والرجال والتى فقدها ليكينيوس ألقى الحظ بثقله فى كفة قسطنطين[١٥٦].

وهكذا تحقق لسيد الغرب ما أراد فى السيطرة على إقليم كان فى مسيس الحاجة إليه ليدعم به قواته ونفوذه، ولقد أخذ يزداد بوضوح أن قسطنطين ما كان ليقنع أبدا بذلك الجزء الكبير من الإمبراطورية، ولكنه لم يكن بالرجل الذى يتعجل الأمور ويستحث خطاها، فقد اكتفى مؤقتا بهذا النصر الساحق وتلك المكاسب الضخمة التى حققها مؤجلا ضربته الأخيرة ليوم تصبح فيه قاضية.

وقد أعطى ليكينيوس بسياسته التى انتهجها الفرصة لمنافسه ليحقق منتهى آماله، ففى الوقت الذى سار فيه قسطنطين خطوات بعيدة المدى نحو تنفيذ السياسة الدينية التى اتفق عليها فى ميلانو، وحظى المسيحيون ورجال الاكليروس فى المناطق الخاضعة لسلطانه بامتيازات عديدة وحريات واسعة، لم يحاول ليكينيوس أن يكون جادا فى تنفيذ هذه الاتفاقية. ومع أنه حتى عام ٣١٩ لم يكن قد أظهر عداوة ما نحو المسيحيين، إلا أنه لم يتقدم بعد خطوة واحدة نحو كسب صداقتهم أو لضمان تأييدهم وحماسهم كما كان يفعل قسطنطين[١٥٧]. ونتيجة هذا كان مسيحيو الشرق

(152) F. Jackson, The history of the Christian Church, p. 295.
(153) Jones, Constantine, p. 127.
(154) Gibbon, op. cit. I, pp. 465-466.
(155) Id.
(156) Cary, op. cit. p. 733.
(157) McGiffert, op. cit. n. 5, p. 384.

ينظرون بعين الحسد والغيرة إلى زملائهم مسيحيى الغرب لما يتقلبون فيه من نعم أغدقتها حكومة قسطنطين، وكانوا بالطبع فى نظرتهم هذه يعتبرون ليكينيوس المسئول الأول عن عدم تمتعهم بنفس الامتيازات والمكاسب، فى نفس الوقت الذى رأوا فيه فى قسطنطين "محبوب الرب". فتعاطفت معه قلوبهم، فوجد انعدام الثقة بذلك بابا نفذ منه بين ليكينيوس وشعبه، فاعتبروه مضطهدا جديدا، وعدهم هو صنائع قسطنطين(١٥٨).

ويقدم يوسيبيوس صورة لموقف ليكينيوس قبل المسيحيين. فبعد أن اتهم ممثلى الرب – الأساقفة – بالاتصال بقسطنطين، حرم عليهم عقد الاجتماعات، ومنعهم من الانتقال أو زيارة الأسقفيات المجاورة(١٥٩). ثم صادر كثيرا من الأملاك الخاصة بالكنائس والأفراد وضمها إلى أملاكه(١٦٠)، ونهى المسيحيين عن عقد اجتماعاتهم داخل أسوار المدن، وألا يجتمع الرجال والنساء فى الكنائس فى وقت واحد(١٦١)، وأصدر أوامره بطرد الجنود والموظفين إذا ما رفضوا أن يقربوا للأرباب، وسجن باقى المسيحيين الذين يأبون إطاعة هذه الأوامر وحرمانهم من الطعام فى السجن حتى يدركهم الموت جوعا(١٦٢)، وبلغ اضطهاد المسيحيين درجة كبيرة فى أماسيا Amasia فى بنطس Pontus حيث سويت بالأرض عديد من الكنائس(١٦٣).

لكن على الرغم من كل ذلك فإن اضطهاد ليكينيوس لم يأخذ صورة العنف التى شهدتها الاضطهادات السابقة، ومن الأدلة على ذلك أن يوسيبيوس أسقف نيقوميديا وكثيرين غيره من رجال الاكليروس ظلوا كأصدقاء له وظلت معاملته لهم حسنة كما كانت(١٦٤). ويضاف إلى هذا أن ليكينيوس لم يصدر مرسوما عاما ينص

(158) EVSEB. hist. eccl. X, 8.
(159) EVSEB. vita Const. 1, 51.
(160) Ibid. 52.
(161) Ibid. 53.
(162) Ibid. 54; hist. eccl. X, 8.
(163) EVSEB. vita Const. II, 1; hist. eccl. X, 8.
(164) McGiffert, op. cit. n. 5, pp. 384-385.

على اضطهاد المسيحيين، وإنما كل ما حدث هو بعض من النفى والسجن والمصادرات، ويبدو أن قلة قليلة من الأساقفة تعرضت للموت، ولكن ليس هناك ما يدعو إلى القول بأنهم تعرضوا لذلك نتيجة لأوامر ليكينيوس نفسه(١٦٥)، فمن المرجح أن يكون ذلك راجعا إلى تعصب بعض الموظفين الوثنيين الذين انتهزوا فرصة الشعور العدائى ضد المسيحيين، بحجة أنهم على اتصال بقسطنطين، لانتهاك حرمة القوانين الموجودة، ولوضع بعض الأساقفة المكروهين لديهم تحت طائلة العقاب بحجة أو بأخرى كما يخبرنا بذلك يوسيبيوس نفسه(١٦٦)، إلا أن هذه الحوادث كانت نادرة ولم يؤثر أنه حدثت مذابح جماعية للمسيحيين(١٦٧).

وعلى هذا النحو لم يكن غريبا أن يذكر يوسيبيوس أن قسطنطين تقدم بجيوشه لينقذ هذا الجزء من رعية المسيح من سطوة هذا الطاغوت مثلما فعل من قبل مع أهل روما ضد ماكسنتيوس(١٦٨).

لقد كانت السياسة التى أقدم عليها ليكينيوس خطوة غاية فى الحماقة يمكن أن يقدم عليها إنسان فى مثل تلك الظروف الحرجة، فقد كان فى وقت يحتاج فيه لولاء وعطف كل رعاياه، ولكنه بطيشه استغنى عن جزء منهم وأعطاهم بهذا العمل سببا لا غبار عليه ليصبحوا من أشد المتحمسين لخصمه(١٦٩)، وقد عرف هذا الخصم كيف يستفيد تماما من هذا الخطأ.

ولقد ساهم قسطنطين بنفسه فى إثارة الشكوك لدى ليكينيوس ومخاوفه من جموع المسيحيين فى أقاليمه، فقد قضى قسطنطين الستة أشهر الأولى من عام ٣١٥ يتفقد أقاليمه الجديدة فى البلقان، ثم زار روما فى عجالة ومنها إلى غالة، وفى خريف سنة ٣١٦ تحرك ثانية إلى البلقان ولم يغادرها بعد ذلك إلا مرة واحدة

---

(165) Id.
(166) EVSEB. hist. eccl. X, 8; vita Const. II, 2.
(167) McGiffert, op. cit. n. 5, pp. 384-385.
(168) EVSEB. vita Const. II, 3; hist. eccl. X, 9.
(169) McGiffert, op. cit. n. 5, pp. 384-385.

زار فيها ميلانو، وهكذا مكث فى البلقان طيلة ثمان سنوات، ولا شك أن قربه من أقاليم خصمه، وسياسته التى جرى عليها فى معاملة المسيحيين فى إقليمه، كان لها أكبر الأثر فى شعور مسيحيى الشرق ونفس ليكينيوس.

وخلال هذه الفترة راح قسطنطين يعد العدة لمعركة قادمة يضرب فيها ضربته الأخيرة ليحقق حلمه الكبير بالسيطرة على الإمبراطورية منفردا، ولما آنس قسطنطين من نفسه قوة سنة ٣٢١، أقدم على أول عمل استفزازى ضد ليكينيوس، فأعلن ولديه كريسبوس Crispus وقسطنطين قنصلين دون موافقة ليكينيوس(١٧٠). وفى سنة ٣٢٢ عبر قسطنطين الدانوب وشن حملة ناجحة ضد السارماتيين Sarmatians(١٧١)، وقام بهجوم ضخم على القوط سنة ٣٢٣، واقتضاه تتبع القوط اجتياز إقليم تراقيا الخاضع لليكينيوس، فلم يستطع هذا أن يكظم غيظه أكثر من ذلك، فاحتج لدى قسطنطين على انتهاك حرمة أراضيه، ولكن هذا الأخير وجدها الفرصة التى كان يبحث عنها منذ أمد طويل، فرفض أن يقدم ترضية ما لزميله(١٧٢)، فأعطى ذلك إشارة البدء لحرب أهلية أخيرة فى هذه الفترة.

كانت كل الظروف مهيأة لانتصار قسطنطين فى هذه الحرب، فهو قد أعد للأمر عدته منذ استولى على البلقان بعد حرب عام ٣١٤ وضمن تأييد المسيحيين الخاضعين لليكينيوس، أو على الأقل تخليهم عن نصرته، وبالطبع كانت هذه فى حد ذاتها- أعنى رغبته فى نصرة المسيحيين وتحريرهم من رق العبودية تحت اضطهاد ليكينيوس - هى الحجة التى تذرع بها ووجدها مبررا ليشن من ورائها هذه الحرب، وكانت تلك خطة بارعة ضمن بها ولاء المسيحيين فى الشرق وتعاطفهم معه، ومن هذا السياق يتضح أن قسطنطين كان هو البادىء بالعدوان فعلا فى هذه الحرب، وأغراضه من هذه الحرب بادية للعيان، ومن ثم فما يقدمه يوسيبيوس فى هذا السياق من اعتبار قسطنطين يحارب دفاعا عن المسيحية يعد

(170) Jones, Constantine, p. 129.
(171) Hefele, Histoire des Conciles, I, 1, p. 381.
(172) Boak, op. cit. p. 342.

حجة واهية إذا قيست بالدوافع القوية التى حفزته لأن يستولى على الجزء الباقى والهام من الإمبراطورية.

كان ليكينيوس يتفوق على عدوه هذه المرة أيضا، ولكن هذا التفوق لم يجده نفعا، فقد كان لديه ١٥٠,٠٠٠ من المشاة، وخمسة عشر ألف فارس من أحسن فرسان فريجيا Phrygia وكبادوكيا Cappadocia، بينما لم تزد قوات قسطنطين فى مختلف الأسلحة عن مائة وعشرين ألف جندى، ولكنهم كانوا يفوقون خصومهم بتمرسهم فى شئون الحرب بصفة مستمرة(١٧٣).

وعند أدريانوبل (حاليا ادرنه Edrene) فى الثالث من يوليو ٣٢٣ لقى ليكينيوس أول لهزيمة فى هذا الصراع، وما لبث كريسبوس أن فرض الحصار على بيزنطة وتمكن من أن يحقق نصرا بحريا كبيرا على أسطول خصمه(١٧٤)، وفى ١٨ سبتمبر حدثت الموقعة الفاصلة فى خريسوبوليس Chrysopolis حيث فقد ليكينيوس كل شىء، وأسلم نفسه لقسطنطين فأمر بنفيه إلى تسالونيكا، ولكنه سرعان ما أعدم فى العام التالى(١٧٥).

وهكذا قدر لحرب أهلية طويلة أن يخمد أوارها، وأن تشهد الإمبراطورية من جديد عصر وحدة يتربع على عرشها فيه إمبراطور فرد. وجنى قسطنطين بذلك النصر الباهر فى الشرق الآسيوى ثمار بذور غرستها يداه فى الغرب الأوروبى، وحق لمادحه يوسيبيوس(١٧٦) أن يتغنى بذلك قائلا: "وهكذا استطاع قسطنطين البطل الظافر الذى يرفل فى ثياب الفضيلة والتقى، وابنه كريسبوس الأمير محبوب الرب، الذى فى كل شىء يماثل أباه، استطاعا أن يستردا الشرق، ويؤسسا إمبراطورية رومانية واحدة موحدة مخضعين لرحيم حكمهما العالم كله من مشرق الشمس إلى مغربها".

---

(173) Gibbon, op. cit. I, p. 417.
(174) Burckhardt, op. cit. p. 281.
(175) EVSEB. Vita Const. II, 17 hist. eccl. X, 9.
(176) SOCRAT. hist. eccl. I, 4 ; SOZOM. hist. eccl . I. 1,7 .

الفصل الثالث

قسطنطين والمسيحية

لم يختلف الدراسون فى شىء اختلافهم حول مسيحية قسطنطين، ولقد صاغت المشكلة ذاتها فى سؤال ذى شقين، هل كان وضع قسطنطين عن المسيحيين إصرهم والأغلال التى كانت عليهم نابعا عن معتقد يقينى بربهم، أم كان للدوافع السياسية كبير شأن فى اتخاذه جانبهم؟ وانجذابا إلى هذا الشق أو ذاك جاء من الدارسين قبيل هنا وراح غيره هناك، واعتلى كل منصة حججه يدفع بأسانيد جمعها عن صدق رأيه، ويدحض بها قول معترضه. على أن الآراء على اختلافها وتعددها لا تخرج عن شقى سؤال سبق توا ذكره، يدعم أولهما مؤرخو الكنيسة مضيفين إلى حواريى المسيح الاثنى عشر رسولا جديدا، ويؤكد ثانيهما جل الدارسين المحدثين جاعلين من قسطنيطين سياسيا حاذقا.

كان يوسيبيوس القيسارى أول من زاد قائمة الحواريين واحدا. ونسج بقلمه خيوط ضوء قدسى مهيب يزين فى جلال جبين قسطنطين، سداه احتواء كل فضيلة، ولحمته ترفع عن أية رذيلة، فحفظ للبشر على مر الأعصر، "حياة قسطنطين Vita Constantini " .

ولم يكن قسطنطين فى رأى يوسيبيوس ومؤرخى الكنيسة ليهتدى إلى المسيحية على لسان بشر، إذن لغدا أحدهم، ولكنهم جعلوا السماء داعيه فى يقظته، ويسوع المسيح مبشره فى نومه، والصليب شارته، وخدام الرب مشاعل جنده، والرب يبارك منه الخطى!! كان ذلك فى خريف عام ٣١٢ وقسطنطين يزحف بقواته إلى روما "ليخرج من الظلمات إلى النور" أناسا طال عليهم الأمد، وليقضى على "طاغية" بها تجبر، عندما مالت شمس الظهيرة إلى الغرب قليلا مؤذنة بنهار بدأ يمسى، وإذا بهالة تضىء كَبد السماء تعانق صليبا خط تحته بأحرف من نور "بهذا ستنتصر". Toutw nika فعقدت لسانه وجيشه الدهشة" [1]، وساورت

(1) EVSEB. vita Const. I, 28.

الشكوك قسطنطين لهذا الذى يرى، وذهبت به الظنون كل مذهب، وتأخذه سنة من النوم فيتبدى له مسيح الرب والعلامة التى رآها بيمناه. يأمره أن يتخذ إياها له شعارا، وأن يجعل منها حارسا أمينا فى كل معاركه الآتية(٢). وأسرع قسطنطين فى اليوم التالى فاستدعى الصناع وأمرهم أن يصنعوها تباعا بعد أن راح يصفها لهم بدقة، وأوصاهم أن تكون من الذهب والحجارة الكريمة(٣) لتوضع على رأس كل جندى من جيشه(٤). وما لبث قسطنطين أن دعا إليه حاملى أسرار الديانة المقدسة ليخبروه عن هذا الذى فى نومه قد رأى، فأعطوه صفته وأنه الرب، الابن الوحيد المولود من الأب الواحد وأن مارآه هو علامة الخلود، فوطن قسطنطين نفسه منذ ذلك على قراءة الكتاب المقدس، واتخذ له من قساوسة الرب مستشارين، ومنى بعراض الآمال نفسه، ثم جهزها لملاقاة عدوه ماكسنتيوس(٥)".

بهذه الصورة يسوق يوسيبيوس قصة اهتداء قسطنطين إلى المسيحية، وعلى منواله ينهج مؤرخو الكنيسة التالون وعلى رأسهم سقراط وسوزومنوس.

ولكن هل تبدو المسألة بهذه البساطة حقا؟

يذكر يوسيبيوس أن قسطنطين وحده لم يكن هو الذى رأى تلك "المعجزة" فى السماء، بل شاركه الرؤية أفراد جيشه أجمعون، واعترتهم كلهم الدهشة للذى يرون، ومعنى ذلك أن تكون هذه الرؤية شيئا شائعا بين الجميع. ولكن يوسيبيوس يخبرنا أن قسطنطين نفسه هو الذى قص عليه ذلك صراحة بعد فترة طويلة وفى لحظة من لحظات راحته، وشفع ذلك بأيمان مغلظة، ثم يعلق على ذلك قائلا "فمن ذا الذى يتردد للحظة فى تصديق هذه الرواية ونسبتها إليه خاصة". ولكن كثيرين بالفعل ترددوا فى قبولها، ويكفينا أن نذكر منهم كاتبا مسيحيا "يوحنا موسهيم" وكتابه "تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة" الذى قال عنه القس هنرى هس " إنه من

---

(2) Ibid. I, 29.
(3) Ibid. 30.
(4) Ibid. 31.
(5) Ibid. 32.

أعظم الكتب التى وضعت فى تاريخ الكنيسة يمتاز بالحيدة وعدم التعصب"[٦].

يتساءل المؤرخ: "لماذا لم يستند يوسيبيوس إلا إلى شهادة الإمبراطور دون ذكر شهادة أحد من الألوف الذين كان ينبغى أن يكونوا قد شاهدوا ذلك؟ ولماذا لم يقل إن الخبر شاع فى العالم واعتمد على شهادة كثيرين عوضا عن ذكر مجرد شهادة قسطنطين بالانفراد معه؟ وإن كان الله قد قصد إنارة عقل قسطنطين، هل يصدق بأن الله أراه مجرد صورة صليب بدلا من أن يوحى إليه؟ وهل يصدق أن يسوع المسيح ملك الملوك أمر ذلك الإمبراطور بصنع صليب مادى جعل عليه كل اتكاله من أجل النصر؟ وكيف يمكن أن تكون هذه القصة غير معروفة للعالم المسيحى حتى بعد حدوثها بخمس وعشرين سنة؟ ولما عرفت كان ذلك عن حديث بين يوسيبيوس وقسطنطين. ألا يكون الأرجح أن يوسيبيوس استنتج ذلك من حديث الإمبراطور عن هالة براقة ظهرت حول الشمس نهارا وعن حلم مؤثر رآه فى الليلة التالية مما جعله يصنع الصليب المرصع ويستخدمه راية لجيشه[٧].

أما جونز فيرى أن قسطنطين قد تخيل هذه الرؤية أخيرا، ويتأكد ذلك من الطريقة التى يقدم بها يوسيبيوس القصة من أن الإمبراطور لم ينشر هذه الحادثة بل أفضى له بها فى لحظة من لحظات الألفة والمودة، ويقول إن ما يحتمل أن يكون قسطنطين قد رآه ليس سوى ظاهرة نادرة لهالة طبيعية مشابهة لقوس قزح نتجت عن سقوط – لا المطر ولكن – كرات الثلج خلال أشعة الشمس، وهى عادة تأخذ شكل شموس مصطنعة أو حلقات من الضوء تحيط بالشمس، وربما تكون الفترة التى تبدى فيها ذلك قصيرة. والعرض غير مكتمل المشاهدة، ولكنه كان بالنسبة لخيال قسطنطين المكدود المنهك ذا دلالة كبيرة، فهى الشمس التى يقدسها، وفى ساعة من ساعات احتياجه بعثت إليه الشمس بعلامة، وكانت العلامة الصليب شعار المسيحيين، وأيما كانت تعنى .. المسيح مظهرا للشمس التى لا تقهر، أو أن

---

(٦) راجع مقدمة الترجمة العربية لكتاب " تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة " بقلم القس هنرى هس.

(٧) موسهيم، حاشية ١ ص ١٢٧-١٢٨.

الشمس هى رمز القوة الإلهية التى إياها يعبد المسيحيون، فقد كان واضحا أن المسيح، سيد الصليب، قد أصبح بالنسبة لقسطنطين بطله وحاميه(٨). أما ديفز Davis فيشك فى الرواية إطلاقا وإن كانت تحمل فى رأيه معانى هامة(٩).

والآن .. تعالوا بنا نناقش بهدوء رواية شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى حول هداية قسطنطين إلى المسيحية، لندرك إلى أى حد مدى الصدق فيها من عدمه، وما الهدف الأساسى من وضعها .. وما هى أبعادها الحقيقية، وما النتائج البعيدة التى ترتبت على روايتها.

فالشيء الذى يدعو للتساؤل حقا أن يوسيبيوس قد أورد لنا هذه القصة فى كتابه حياة قسطنطين على لسان الإمبراطور نفسه، ولما كان هذا الكتاب قد وضع بعد وفاة الإمبراطور عام ٣٣٧، فإن خمسة وعشرين عاما تفصل بين الحادثة وذكرها، أما فى تاريخه الكنسى والذى أنهاه فى عام ٣٢٤، أى بعد الحادثة بأثنتى عشرة سنة فقط. فلم يذكر لنا شيئا، وكل ما يقوله عن الفترة التى سبقت الحرب بين قسطنطين وماكسنتيوس نصه: "أما قسطنطين الذى كان متقدما فى المقام والمركز الإمبراطورى فإنه فى بداية الأمر إذ أشفق على من ظلموا روما، وإذ لجأ بالصلاة إلى إله السماء وكلمته يسوع المسيح مخلص الجميع كعون له، تقدم بجيشه.." (١٠). ويكاد يكون هذا القول هو نفس ما يذكره يوسيبيوس عن ليكينيوس فى صراعه ضد ماكسيمينوس(١١). أما لاكتانتيوس فلم يكن ليسكت عن شيء من هذا القبيل لو أن خبرا كهذا ذاع آنذاك، خاصة وأنه كان قد استدعى ليصبح معلما لكريسبوس بن قسطنطين، وقد عهدناه يخبرنا بما يجرى وراء أستار القصر الإمبراطورى فى نيقوميديا، فلا عليه إذن أن يحدث عما لابد وأن يكون قد شاع وقتها بين العسكر والناس حول هذه الرؤية، ولكن لاكتانتيوس لا يذكر شيئا البتة عن هالة من نور

---

(8) Jones, Constantine, p. 96.
(9) Davis, op. cit. p. 14.
(10) EVSEB hist. eccl. IX, 9.
(11) Ibid. 10.

تحيط بصليب ظهر فى السماء، بل كل ما يذكره أن قسطنطين أرشد فى حلم رآه إلى اتخاذ علامة المسيح شعارا يضعه على دروع جنده، وأن يتقدم به إلى المعركة، فصدع قسطنطين بالأمر(١٢). وكان ملاك الرب الذى تبدى لقسطنطين فى حلمه هو نفسه الذى زار ليكينيوس فى نومه ولقنه صيغة الصلوات والدعوات التى تضمن له النصر على خصمه(١٣). ومن ثم فالمسألة عند لاكتانتيوس لا تعدو حلما رآه كل من قسطنطين وليكينيوس قبل أن يدخل كل منهما الحرب ضد منافسه، وأن ملاكا للرب جاء إليهما فى نومهما أعطى الأول شارة النصر ولقن الثانى أدعية الانتصار.

وهكذا نرى يوسيبيوس يعطينا روايتين تخالف كل منهما الأخرى، وكلاهما يختلف ورواية لاكتانتيوس إلا فى مسألة "الحلم" فقط، واضطراب الروايات عن هذين الكاتبين، بل عند يوسيبيوس وحده تدعونا إلى الشك فى قبول أى منها.

ولكن ما لنا نناقش حول قصة يوسيبيوس وقد أنبأنا فى بداية مؤلفه عن "حياة قسطنطين" أن من العار عليه ألا يحدث عن إمبراطور فاق الجميع فى محبته لله، "محبوب الرب" ذلك الذى اختارته العناية الإلهية ليقر السلام على الأرض"(١٤)، ولم يكن لرجل هذا شأنه أن يهتدى إلى المسيحية على لسان قس مسيحى أو مبشر، وإلا لما تفرد الإمبراطور بشىء عن غيره من ولد آدم، وإنى لأخال يوسيبيوس يضع لقادم الأجيال قصة رجل أنقذ من الضياع المسيحية، يضفى على أفعاله إرادة السماء لا رغبات البشر، وعناية الرب لا عون الإنسان، وفرق كبير بين أن تعى الأجيال المسيحية أن معتقدها على الأرض قد رسخ بيد إمبراطور هدته السماء، وبين إدراكها أنها حيت نتيجة إرادة حاكم جذبته إلى صفها ألسن بنى البشر!!.

دخل قسطنطين دخول الظافر روما، فرفعه الشعب والسناتو إلى عليين، فأمر فى الحال أن يوضع فى يد تمثاله صليبا لآلام المخلص تذكارا، ونقش على قاعدته

(12) LACT. Mort. Pres. 44.
(13) Ibid. 47.
(14) EVSEB. vita Const. III, 2.

"بهذه العقيدة المقتدرة، رمز الشجاعة الخالصة، أنقذت مدينتكم، ومن نير الطاغية فككت عقالها، وحررت السناتو وشعب روما وأعدتهم إلى قديم مجدهم وشرفهم"(١٥).

بهذا السلوك أظهر قسطنطين تسامحه مع المسيحيين، ولكنه لم يقف عند حد المسامحة بل ذهب - بعد دخوله روما مباشرة - إلى ما هو أبعد من ذلك، فأظل الكنيسة بوارف رحمته، وشملها بعطفه ورعايته، وهذا بين من رسالة بعث بها فى شتاء عام ٣١٢/٣١٣ إلى أنوللينوس Anullinus بروقنصل أفريقيا، يقول:

"أنوللينوس .. عزيزى . تحياتى . نظرا لما كشفت عن ظروف كثيرة من أنه عندما تُزدرى ديانة فيها يكمن أعظم التقدير للقوة السماوية المقدسة، يتعرض الصالح العام لأفدح الأخطار، على حين ينعم بالخير والرخاء الاسم الرومانى وكل مصالح بنى البشر، تهديهما رحمة الرب إذا ما حظيت بالإحياء والحماية ذات العبادة، فقد تقرر يا عزيزى أن ينال أولئك الذين يقدمون خدماتهم بالقداسة الواجبة وبمراعاة هذا القانون، متبعين هذه الديانة الإلهية، تعويضا عن هذه الخدمات، ويسرنى أن يعفى تماما من أداء الواجبات العامة، أعضاء الكنيسة الجامعة التى يرأسها كايكليانوس Caecilianus والمدعوون رجال الدين، القائمون بخدمة هذه الديانة المقدسة، المقيمون فى دائرة ولايتك، حتى لا تلهيهم عن خدمة الرب خطية، أو يصرفهم دنس، ولشرائعهم بلا أى عائق يجب أن يكرسوا أنفسهم. فكم من خير تفيده الدولة حالما للإله قدم هؤلاء خالص العبادة. صحبتك السلامة عزيزى المحبوب أنوللينوس"(١٦).

بهذا القول أعتق قسطنطين رجال الاكليروس من ربقة الواجبات العامة التى كانت تمثل عبئا ثقيلا ناءت به كواهل سراة القوم فى الامبراطورية، وكانت تلك من جانب قسطنطين خطوة موفقة بارعة سبح له وبحمده نتيجة لها رجال الكنيسة، وصرفهم بها عن المشاركة فى شئون الدولة، وكف أيديهم بصورة لبقة عن التدخل

(15) EVSEB. hist. eccl. IX, 9; Vita Const. I, 40.
(16) EVSEB. hist. eccl. X, 7.

فى أمور ولاية تعد آنئذ من أهم الولايات بالنسبة له من الناحية الاقتصادية، وحثهم على نحو لا يدع مجالا للشك أن ينصرفوا إلى ممارسة شعائرهم وطقوسهم، ولا يعوقهم عن توقير ربهم عائق، متطهرين من كل ما قد يعلق بأرواحهم جزاء انشغالهم بتلك الواجبات العامة. ولابد أن قسطنطين كان يدرك مدى الأثر الكبير الذى يمكن أن يتركه رجال الدين المسيحى فى نفوس رعيتهم لتعضيد الحاكم أو التمرد على سطوته، ومن ثم أراد أن يكتسب إلى صفه رجالا ذوى نفوذ كبير فى أنفس الجموع المسيحية، لما يعلمه من أهمية هذه الفئة ومدى تأثيرها على مشروعاته القابلة، وقد أفصح هو نفسه عن ذلك صراحة فى ذات الرسالة حين اعتبر المسيحية مسألة حيوية بالنسبة لكيان الإمبراطورية، فقهرها واضطهاد اتباعها لم يجر على الدولة سوى الخراب والفوضى، على حين أفرخ الصفح عنها ضياء الرخاء والاستقرار، ولا شك أن قسطنطين كان يقرأ قرطاس الواقع الذى شهدته عيناه أيام كان فى القصر الإمبراطورى بنيقوميديا زمن دقلديانوس وجاليريوس، وما سمعه عن اضطهادات ماكسيمينوس فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية، لذا لم يكن عجبا أن يربط قسطنطين بين العطف على المسيحية والأخذ بيد أتباعها، وبين "الصالح العام" للدولة.

وشبيه بهذه الرسالة تلك التى بعث بها من بعد إلى أهالى فلسطين يمجد فيها الرب ويشيد بالعقيدة المسيحية[١٧]، ثم يرسم صورة للاضطهادات التى سادت قبل عصره والتى مارسها ضد المسيحية أباطرة سبقوه، ثم كيف أدت هذه السياسة إلى هلاك الكثيرين وإشعال نيران العداوة والبغضاء بين الجميع[١٨]، ويوضح الإمبراطور بعد ذلك أنه مبعوث السماء إلى الأرض، الذى اختاره الرب يبدد دياجير الظلام منذ كان فى بريطانيا، وليضرب بيد العنف على كل من يقترف الشر، تؤيده فى ذلك وترعاه يد إله مقتدر[١٩].

(17) EVSEB. vita Const. II, 24.
(18) Ibid. 25-27.
(19) Ibid. 28.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فإذا كان قسطنطين قد حرر رجال الاكليروس من عبء صدورهم به ضاقت، وهيأ لهم الفرصة الإجبارية لممارسة طقوسهم والشعائر، إلا أن هؤلاء كانوا يتطلعون فى حسرة إلى دور عبادتهم وملحقاتها التى نقلتها عاصفة الاضطهاد إلى أيدى أفراد أخر، ولم يغب عن فطنة قسطنطين حيرة تلك العيون وتطلعاتها، فكانت أوامره لنائبه بأن يرد على الكنيسة ما كان قبل الزوبعة لها حقا. قال:

"سلاما عزيزى أنوللينوس .. إن طبيعتنا التى جبلت على حب الخير أيها العزيز تأبى إلا أن ترد على الآخرين حقوقهم، لذا فمقصدنا حالما تصلك هذه الرسالة أن تقوم على التو تعيد إلى الكنيسة المسيحية الجامعة كل ما كان ملكا لها وهو الآن فى حوزة المواطنين أو غيرهم، حيث قررنا أن تعود تلك الأشياء إلى أصحابها. ولما كان فطنتك يدرك مدى وضوح سياق أمرنا فأعد إلى الكنائس كل ما كان فى السابق لها ملكا، حدائق ودورا وأملاكا، حتى نعلم أنك قد وضعت أمرى هذا موضع الطاعة والتنفيذ بكل حرص. ولتنعم بالسلامة أيها العزيز المحبوب أنوللينوس[٢٠].

وهكذا ثنى قسطنطين خطوته الأولى، ولكن بقى شىء كان على الإمبراطور حتما أن يفعله ليأسر بجميل فضله الكنيسة ورجالاتها ورعاياها، ذلك أن يهب الكنيسة ما حرمت منه سنين عددا، وهو عطف الدولة عليها عطفا واقعيا لا يقتصر على الناحية المعنوية بمنع الاضطهاد، بل يمتد للناحية المادية بالمساهمة فى رفع القواعد من بيوت العبادة لهؤلاء المسيحيين، وكان ذلك فى حد ذاته شيئا يبهر أعين جماعة لم تحظ من الدولة قبلا إلا بأوامر تهدم كنائسها، وتصادر أملاكها وتضطهد أفرادها، فإذا بقسطنطين يحرر الأنفس، ويعيد الأملاك، ثم ينعم بالأموال، فكيف للكنيسة بعد أن ترفع للدولة رأسها متمردة ثائرة؟! وكيف لا تسبح بحمد مبعوث العناية الإلهية على الأرض وفى هذا المجال تلقى أسقف قرطاجة Carthage رسالة من الإمبراطور جاء فيها:

(20) EVSEB. hist. eccl. X, 5.

" قسطنطين أوغسطس إلى كايكيليانوس أسقف قرطاجة .. لما كنا قد قررنا أن نخصص فى كل ولايات أفريقيا ونوميديا وموريتانيا منحا يستعين بها على سد نفقاتهم خدام الكنيسة الكاثوليكية، لذا سطرت إلى أورسوس Ursus مأمور الحسابات فى أفريقيا آمره أن يدفع إلى فطنتكم ثلاثة آلاف فلس Folles ... وإذا تبين لك أن عجزا هناك يحول ورغبتنا فى هذا الخصوص تجاه الجميع، فاطلب وبلا تردد من هراكليدس Heraclides وكيل أملاكنا، ما أنت إليه فى حاجة، فقد أمرت شخصه أن يقدم دون تأخير أى مبلغ يطلب جنابكم(٢١)".

سلوك هذه مرآته حقيق أن يضع فى قبضة قسطنطين ولاء طائفة من الناس ذات نفوذ على جموع رعايا المسيحيين، وكان سيد الغرب فى تلك الآونة أشد ما يكون حاجة لمثل هذا الولاء، وإلى أن يأتلف قلوب الأهلين فى تلك المنطقة التى كانت قبلا تحت سيادة ماكسنتيوس واقعا، ومن أملاك ليكينيوس قانونا. أما وقد نال الأول هزيمة فلابد أن تقع هذه الأقاليم وغيرها تحت سطوة المنتصر وتدخل ضمن دائرة نفوذه بمنطق القوة والغصب. أما ليكينيوس صاحب الحق الشرعى فما عليه أمام هذا المنطق إلا أن يوجه نشاطه نحو ناحية ثانية فى الشرق يطبق عليها الشريعة ذاتها. ومن ثم كان على السيد الجديد قسطنطين أن يقدم على مذبح الولاء قربانا. ولنا أن نتصور ما شاء لنا التصور ذلك الأثر النفسى الذى يحدثه انتشال جماعة، قاست صنوف العذاب ألوانا، من غيابة الاضطهاد، ثم رده إليها ما كان لها، والإغداق عليها من جانب إمبراطور كان أسلافه الذين قذفوا بها فيها. وكان قسطنطين بارع الدعائية، فقد احتزت رأس ماكسنتيوس وطيف بها ولاية أفريقيا تعلن جهارا نهاية عصر "الطاغية" فى روما، وتومئ ضمنا أن ذلك جزاء من يقاوم السيد الجديد، وفى الناحية الأخرى إعفاءات تمنح وهبات.

ويلفت النظر فى رسائل قسطنطين إلى أنوللينوس وكايكيليانوس قوله "الكنيسة الجامعة"(٢٢)، تلك العبارة التى ترددت دوما فى تلك الرسائل، ثم يزيد

(21) EVSEB. hist. eccl. X, 6.
(22) EVSEB. hist. eccl. X, 5-6.

الأمر وضوحا عندما يحدد ما يعنيه بهذه الكنيسة من أنها تلك "التى يرأسها كايكيليانوس"(٢٣)، وقد دفع قسطنطين إلى هذا التحديد ما يذكره هو نفسه فى رسالته إلى أسقف قرطاجة كايكليانوس يقول: "لما كانت مسامعى قد صكتها أنباء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصرف الجموع عن الكنيسة المقدسة الجامعة بخزى المزاعم ودنسها"(٢٤). وهو يشيرها هنا إلى الدوناتيين الذين سنتحدث عنهم فى الفصل التالى. ولنا بالطبع أن نتساءل عن المصدر الذى وجه قسطنطين إلى تخصيص رعايا "الكنيسة المقدسة الجامعة" بالذات دون اتباع دوناتوس؟

جاء فى رسالة الإمبراطور السالفة إلى أسقف قرطاجة: "متى تسلمت المبلغ المشار إليه، فإنى أرى أن يوزع على جميع المذكورين أعلاه وفقا للقائمة التى بعث إليك بها هوسيوس Hosius"(٢٥) ونعلم من سقراط(٢٦) أن هوسيوس هذا كان أسقفا لقرطبة، وأنه كان عندئذ مستشار قسطنطين للشئون الدينية، ومجىء اسمه هنا دليل على أنه كان فى معية قسطنطين على أقل تقدير قبل معركة القنطرة الملفية(٢٧). ويذكر بوركهارت أن هوسيوس كان ذا دور كبير فى استمالة الإمبراطور إلى جانب المسيحيين بداءة(٢٨). ومهما يكن من أمر فسنجد هوسيوس ناصحا لقسطنطين، متحركا نشطا فى الأحداث التى وقعت بعد ذلك خاصة فى مسألة الصراع الآريوسى، وسيظل كذلك إلى أن يفقد مكانته عندما يهوى الآريوسيين فؤاد الإمبراطور قسطنطيوس من بعد.

ولا أظن شيئا من المغالاة يصاحب قولنا إن قسطنطين وقد فتح على نفسه باب عقيدة جديدة، كان فى حاجة إلى من يُهدى الخطى منه فى دروب هذا الدين الجديد. حقيقة لقد رسم لنفسه طريق هدايته بضياء من عل، أما التفاصيل الأخرى

(23) Ibid. 7.
(24) Ibid. 6.
(25) EVSEB. hist. eccl. X. 6.
(26) SOCRAT. hist. eccl. I, 7.
(27) Jones, Constantine, p. 82.
(28) Burkhardt, op. cit. p. 301.

الخاصة باتباع الدين الجديد فلا ضير أن يتلقاها من البشر فهم بها أعلم. وكما أن بلاطه وجيشه ودواوين حكومته كانت تعج بالوثنيين وإلى جواره منهم المستشارون، فلابد أن يكون إلى جانبه بضع أناس من ذوى المكانة بين أصحاب هذه العقيدة الجديدة، وهذا هو ما يخبرنا به يوسيبيوس نفسه(٢٩) وربما كان اختيار قسطنطين لهوسيوس بالذات مستشارا دينيا راجعا إلى أن كنيسة قرطبة لم تكن على درجة من الشهرة فى الأوساط المسيحية الغربية كبيرة، وبالتالى كان أسقفها، إذا ما قورنت بروما والبابا، ولما كان قسطنطين يكره أن يكون لأحد ما أى سيطرة عليه فى توجيه دفة مختلف شئونه، ويخشى إذا استعان بأسقف كنيسة ذات مكانة مرموقة أن يستغل هذه الفرصة للتدخل فى سياسات قسطنطين، كان "هوسيوس" المغمور هو خير من يحقق لقسطنطين حب الانفراد بالسلطان وبلا منازع، ودليلنا على ذلك أنه كانت فى الغرب أسقفيات ذات شهرة ومركز ممتاز، لكنه أغفل أساقفتها، بل تغاضى عن أن يجعل أسقف روما هاديه حتى بعد دخوله روما، وظل مبقيا على هوسيوس يستشيره الرأى فى المسائل الكنسية والدينية التى عرضت له لفترة طويلة من عهده، وكان أولها كما رأينا ما يختص بقصر هبات الإمبراطور على الكنيسة الكاثوليكية فقط دون أتباع دوناتوس.

لم يمكث قسطنطين فى روما بعد انتصاره على خصمه، إلا عدة أشهر، ثم شخص فى مارس ٣١٣ إلى ميلانو حيث وافاه ليكينيوس هناك، ويقول جاكسون أن اختيار قسطنطين لميلانو بالذات مكانا للقائه مع ليكينيوس يرجع إلى رغبته فى الابتعاد عن روما بتقاليدها الوثنية وادعاءات رجال السناتو(٣٠)، ولم يشغل صخب وضجيج احتفالات الزواج التى شهدتها المدينة الإمبراطورين عن عقد اجتماعات انتهت إلى تقرير سياسة معينة اتفق الطرفان على التزامها، وكان من بين الموضوعات التى تناولتها المحادثات بين الزعيمين، مسألة معاملة الرعايا المسيحيين فى الإمبراطورية، وتعهدا بمنح الحرية الدينية لكل سكان الإمبراطورية

(29) EVSEB. vita. Const. I, 32.

(30) F. Jackson, op. cit., p. 283.

شريطة ألا تتعارض هذه الحرية مع الصالح العام للدولة. ولم تصلنا سجلات تلك الاجتماعات، ولكن هذه النية حفظتها لنا رسالة بعث بها ليكينيوس إلى نائبه فى نيقوميديا بعد انتصاره على ماكسيمينوس(٣١)، تضمنت السياسة التى رأى الطرفان اتباعها فيما يختص بالمشكلة الدينية، ولهذا شاع بين المؤرخين خطأ تسمية هذه الرسالة "بمرسوم ميلانو"، والحقيقة أنها ليست بيانا رسميا صدر عقب انتهاء المحادثات بين قسطنطين وليكينيوس، ولكنها رسالة أذاعها النائب الإمبراطورى فى نيقوميديا بعد أن جاءته من سيد الشرق الجديد، وأحد قطبى ميلانو، وقد حفظ لاكتانتيوس نص الرسالة، وأورد يوسيبيوس ترجمة يونانية لها(٣٢). وقد ظهرت هذه النظرية أولا، وهى أن مرسوما لم يصدر البتة من ميلانو، على يد العالم الألمانى O. Seeck سنة ١٨٩١(٣٣). على أية حال فقد كانت رسالة ليكينيوس هذه تعبيرا عما استقر عليه الطرفان فى ميلانو سنة ٣١٢، وقد جاء فيها:

"لما كنا قد أدركنا منذ عهد أن أحدا يجب أن لا يحرم من حريته العقائدية بل يحق أن تترك لإرادته وفطنته حرية اختيار مقدساته الدينية، فقد أصدرنا قبلا أوامرنا بأن تحفظ للمسيحيين عقائدهم وشعائرهم ولكن عددا كبيرا منهم منع من ممارسة هذه الشعائر نتيجة لما تعرضت له هذه الحرية من قيود، بعد صدور ذلك المرسوم الذى به حصل المسيحيون على حريتهم".

والإشارة هنا إلى مرسوم صدر قبل اجتماع ميلانو، ولكننا لا نعلم شيئا من هذا القبيل، وأغلب الظن أن المرسوم المشار إليه هنا هو ذلك الذى صدر سنة ٣١١ باسم الأباطرة الثلاثة، وهو المرسوم الذى لم تتح له الفرصة ليوضع موضع التنفيذ نتيجة للصراع العنيف الذى شب عقب وفاة جاليريوس.

وتمضى الرسالة قائلة:

(31) LACT. Mort. Pers. 48.
(32) EVSEB. hist. eccl. X, 5.
(33) Vasiliev, op. cit., I, p. 51.

"وعندما أتينا ميلانو، وتأملنا كل ما يجلب الصالح العام ورفاهية الجميع، اعتزمنا ابتداء أن نصدر من الأوامر ما يعود بالخير على كل نفس، وفى سبيل ذلك يمنح المسيحيون وسائر الناس الحرية فى اتباع ما ترضاه من الديانة نفوسهم، وأن لا يحرم أى إنسان من حرية الاختيار فى اتباع عقيدة المسيحيين أو فى اعتناق الديانة التى يراها متناغمة وهواه حتى يتفضل علينا الرب بجميل نعمائه".

على هذا النحو بدأت الرسالة بإطلاق حرية العقيدة لكل رعايا الإمبراطورية بلا تمييز، وأقرت حق الفرد فى الإيمان بما يتفق وقلبه، ويتأكد هذا المعنى بصورة أكثر وضوحا فى النص الذى يقول: "إن السلام الشامل فى أيامنا هذه يستوجب أن يمتلك كل فرد حرية عبادة أى إله يريد، دافعنا إلى ذلك أن لا يتوهمن إنسان أنا لأى من الديانات أسأنا". وجاء فى الرسالة أيضا: ".. وكل من يهوى اتباع ديانة المسيحيين فله ذاك دون ما مانع .. لقد منحنا المسيحيين فى ممارسة شعائر ديانتهم كامل الحرية".

بهذا الاعتراف الحكومى غدت المسيحية والديانات الأخرى داخل الإمبراطورية على قدم المساواة، وأضحت دينا شرعيا شأن قريناتها(٣٤) وآن لها بعد ثلاثة قرون أن تتنسم عبير الحرية، وساد الكنيسة سلام طالما إليه تاقت، وقد هللت الكنيسة لهذه الفترة الجديدة التى توشك شمسها أن تبزغ، ولا أدل على ذلك مما عبر به يوسيبيوس عن هذه الفرحة التى تملكت نفوس المسيحيين آنئذ بقوله:

"أخيرا .. أشرق نهار صحو جميل لا يعكر صفوه غمام، وبأشعة نور سماوى أضاء فى العالم كنائس المسيح، وحتى أولئك الذين ليسوا من جماعتنا لم يحرموا من نعمة البركات، أو على الأقل من الانتفاع بمزاياها والتمتع بجزء من النعم التى أغدقها الرب علينا(٣٥)".

وفى هذا القول الأخير إشارة إلى أن الحرية الدينية لم تكن قاصرة على

(34) Cochrane, Christianity and classical culture, p. 178.

(35) EVSEB. hist. eccl. X, 1.

المسيحيين فحسب بل تمتع بها كل فرد فى الإمبراطورية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد. بل تضمن الاتفاق أيضا ضرورة عودة كل ممتلكات المسيحيين إليهم أو تعويضهم عنها، وهو ما ورد فى صدر رسالة ليكينيوس:

"وأخيرا فقد رد على المسيحيين ما كان منهم قد أخذ: فإذا حدث أن أماكن المسيحيين التى درجوا على الاجتماع بها .. قد اشترتها خزانتنا أو أشخاص آخرون، وجب ردها إلى المسيحيين على الفور دون عوض، وحتى أولئك الذين حازوا مثل هذه الأماكن هبة أو هدية، عليهم تسليمها لأصحابها، بلا تردد أو تأخير، وليذهبوا إلى نائبنا إن شاءوا لينالوا من عطائنا ما يرضيهم، ولما كان معلوما أن هؤلاء المسيحيين لم يتملكوا مجرد هذه الأماكن، بل أماكن أخرى تعتبر من أملاكهم كجماعة، وجب ردها أيضا دون إبطاء".

تلك أهم النقاط التى من حولها دار البحث بين الإمبراطورين فى ميلانو، وعليها قر رأيهما، وحملتها إلينا رسالة نيقوميديا، على أن الشىء الذى يجب أن تعيه ذاكرتنا أن اتفاق ميلانو لم يكن أول اتفاق من نوعه على جعل الديانة المسيحية شرعية فى الإمبراطورية ، بل سبقه إلى ذلك مرسوم سنة ٣١١، حتى يجوز لنا القول إن ما جاءت به رسالة ليكينيوس ليس إلا تأكيدا لمرسوم جاليريوس ورفيقيه. فهذا الأخير قد تضمن الصفح والعفو عن المسيحيين الذين ناوءوا الحكومة متمسكين بعقيدتهم وسمح لهم بإقامة الشعائر، وأباح لهم إعادة بناء وتعمير دور اجتماعاتهم وعبادتهم[٣٦]، ولم تزد رسالة نيقوميديا عن ذلك شيئا اللهم إلا النص على إطلاق الحرية الدينية لكل الأفراد، وذلك شىء لم يكن مرسوم سنة ٣١١ فى حاجة إلى توضيحه. لأن هذه الحرية يتمتع بها فعلا أتباع الديانات الأخرى، ولم يكن منها محروما إلا المسيحيون. ولذلك منحهم المرسوم إياها، وإلا تكفل الدولة بأن تدفع تعويضا للأفراد الذين سيتخلون عما أخذوه آنفا من الكنيسة، أما فيما عدا ذلك فليس اتفاق ميلانو إلا إقراراً لما سبق إليه مرسوم جاليريوس الذى لم يدخل

(36) EVSEB. hist. eccl. VIII, 17.

قط دائرة التنفيذ، وذلك شيء تعترف به منذ البداية الرسالة التى بين أيدينا، حيث تذكر على لسان الإمبراطورين: "فقد أصدرنا أوامرنا قبلا بأن تحفظ للمسيحيين عقائدهم وشرائعهم، ولكن عددا كبيرا منهم منع من ممارسة هذه الشعائر نتيجة لما تعرضت له هذه الحرية من قيود عدة بعد صدور ذلك المرسوم الذى حصل به المسيحيون على هذه الحرية". وحتى ذلك الذى تم عليه الاتفاق فى ميلانو لم يؤخذ هو الآخر مأخذ الجد، فقد رأينا ليكينيوس يعود من جديد لاضطهاد المسيحيين.

خلاصة القول إنه ليس هناك حتى الآن ما يسمى بمرسوم ميلانو، وكل ما لدينا رسالة تلقاها نائب الإمبراطور فى نيقوميديا من سيد الشرق الجديد ليكينيوس تفصح لنا عما دار بين الإمبراطورين فى ميلانو. المهم أن هذه الرسالة أفصحت فى جلاء عن البواعث التى دفعت الزعيمين إلى انتهاج تلك السياسة قبالة المسيحيين، فقد جاء فيها: "إن السلام الشامل فى أيامنا هذه يستوجب أن يمتلك كل فرد حرية عبادة أى إله يريد"، واختتمت الرسالة على النحو التالى فى صيغة الأمر للنائب الإمبراطورى: "لكى يعم الهدوء ويسود السلام، ابذلوا كل جهدكم لإتمام أوامرنا بسرعة لأننا بهذا السبيل نضمن دوام رحمة الرب، وذلك أمر فى كثير من الأمور وعيناه".

وبشىء من التحديد يمكن القول إن "سلام" الإمبراطورية و "وحدتها" و"صالحها العام" كان دافع قطبى ميلانو للمبادرة باختطاط هذه السياسة، وهذا المعنى ورد فى رسائل قسطنطين العديدة التى بعث بها إلى شمال أفريقيا فى ذلك الحين. وتلك التى كتبها بعد أن غدا إمبراطورا على الإمبراطورية فردا. ولكنا نقنع الآن بما جاء فى رسالته إلى أنوللينوس والتى سبق الحديث عنها، وفيها يذكر قسطنطين الضرار التى يمكن أن تتعرض لها الإمبراطورية بمهاجمة هذه الديانة واتباعها، ومدى ما يمكن أن تفيده الدولة إذا ما وقرت المسيحية. والذى لا شك فيه أن الأباطرة الرومان أدركوا أنه رغم موجة العنف التى مارسوها رسميا منذ منتصف القرن الثالث الميلادى ضد المسيحيين، لم تصرف هؤلاء عن عقيدتهم، ولم تدفع بهم إلى الوثنية ثانية، وأن هذه السياسة العنيفة لن تؤدى إلا إلى المزيد من

الصداع المستمر فى رأس اللإمبراطورية . ومن ثم فلا ضير من التحول عنها إلى سبيل آخر يحقق فى المقام الأول سلام الإمبراطورية وسلطان الحاكم.

كان يوسيبيوس وفيا بعهده الذى قطعه على نفسه منذ البداية بأن يحدث عن فضائل قسطنطين وأياديه البيضاء التى قدمها للكنيسة طيلة فترة حكمة، فذكر أن الإمبراطور قرر عودة المسيحيين الذين نفتهم السلطات الحكومية قبلا إلى جزر نائية أو مناطق جبلية موحشة(٣٧)، وعفا عن أولئك الذين حكم عليهم بالعمل فى المناجم أو سخروا فى الأعمال العامة(٣٨)، وحرر هؤلاء الذين كانوا ينتمون إلى المجتمع الراقى ثم أنزلوا إلى مرتبة العبودية وأجبروا على الخدمة فى المنازل(٣٩)، وسمح للجنود أو الضباط الذين حرموا من رتبهم العسكرية إما بالعودة إلى مناصبهم مرة أخرى وإما بالعيش الهادئ بعد أن يرد اعتبارهم(٤٠)، وأمر بأن تعاد مقابر الشهداء إلى ملكية الكنيسة وأن تصبح تحت إدارتها(٤١)، وأن تعود أملاكهم المصادرة إلى أقرب أقربائهم فإن لم يكن لهم ورثتهم الكنيسة(٤٢)، وأباح لهذه الحصول على الهبات والتبرعات التى يقدمها المواطنون(٤٣)، ورد إلى الذين انتزعت منهم بسبب عقيدتهم أملاكهم من الأراضى والحدائق والدور(٤٤) حتى ولو كانت هذه قد أصبحت فى حوزة الخزانة الإمبراطورية(٤٥)، وعلى الذين ابتاعوا ممتلكات تخص الكنيسة أو تسلموها هبة المبادرة إلى تسليمها ثانية(٤٦)، وفتح أمام المسيحيين باب الوظائف الحكومية وسلم الترقى فيها(٤٧) ومنح المحاكم الأسقفية

---

(37) EVSEB. vita Const. II, 30-31.
(38) Ibid. 32.
(39) Ibid.34.
(40) Ibid.33.
(41) Ibid.40.
(42) Ibid.35
(43) Ibid. 36.
(44) EVSEB. vita Const. 37.
(45) Ibid. 39.
(46) Ibid. 41.
(47) Ibid. 44; SOCRAt. hist. eccl. I, 18; SOZOM. hist. eccl. I, 8.

امتيازات هائلة حيث أصبح من حق أى فرد، باتفاق طرفى الخصومة، رفع دعوى مدنية لدى المحاكم الأسقفية حتى ولو كان قد تم السير فى إجراءات تلك الدعوى أمام المحكمة المدنية، وعلى مشارف نهاية حكم قسطنطين وسع اختصاصات المحاكم الأسقفية حيث عد حكم الأسقف نهائيا فى مختلف الدعاوى، وغدا فى الامكان إحالة أية دعوى مدنية إلى المحكمة الأسقفية فى أى مرحلة من إجراءاتها حتى ولو لم يقبل أحد الخصوم، وأوجب تصديق القضاة المدنيين على أحكام المحاكم الأسقفية، وبذا زادت سلطات الأساقفة فى المجتمع(٤٨)، وبعث قسطنطين إلى عماله فى مختلف الأقاليم يوجههم إلى المساعدة فى إقامة الكنائس، وأن لا يبخلوا بشىء فى سبيل ذلك حتى من الخزانة الإمبراطورية ذاتها، وأرسل إلى الأساقفة أيضا رسائل تتضمن هذا المعنى، وكان يوسيبيوس بالطبع من بين هؤلاء الأساقفة، ويذكر أنها كانت أول رسالة تلقاها من الإمبراطور(٤٩)، وتضمنت - وهى على غرار رسائله الأخرى إلى باقى الأساقفة - حديثا عن نهاية العهد الذى كانت فيه الكنائس عرضة للتدمير والتخريب، أما الآن وقد أظل الإمبراطورية من السلام عهد جديد فلهم أن يقوموا بإصلاح ما عطب من دور العبادة هذه، وإنشاء كنائس أخرى جديدة، وإذا ما أعوزتهم للنقود الحاجة فما عليهم إلا أن يلجأوا إلى حاكم الولاية التى تقع فيها دائرتهم(٥٠).

ويضيف يوسيبيوس أن الإمبراطور خط بيمينه رسالة إلى سكان الإمبراطورية جمعاء يدين فيها الوثنية ويمجد المسيحية(٥١)، أورد فيها تقريرا عن الأخطاء الناجمة عن القول بتعدد الآلهة أو الشرك بالله، وبدأها بمقدمة عن الفضيلة والرذيلة، وقارن بين ورع والده وتقواه وعطفه على المسيحيين، وخبث دقلديانوس وماكسيميانوس واضطهادهما لهم، ويعدد قسطنطين صنوف المخاطر وألوان التعذيب الذى تعرضت له هذه الجماعة على أيدى تلك الطغمة الآثمة، ويذكر -

(48) Vasiliev, op. cit. I, p. 53.
(49) EVSEB. vita Const. II, 45.
(50) Ibid. 46; SOCRAT. hist. eccl. I, 9.
(51) EVSEB. vita Const. II, 47.

والعار يملأ حديثه - كيف كانت معاملة البرابرة لأولئك المسيحيين الهاربين حسنة رقيقة، فى الوقت الذى لقوا فيه الاضطهاد من العالم الرومانى المتمدين، ويعود الإمبراطور ليؤكد من جديد الانتقام الإلهى الذى لحق بهؤلاء المضطهدين جزاء ما قدمت أيديهم، ثم لا يلبث أن يذكر ما فعله هو من أجل تمجيد الرب وإعلاء شارة الصليب، وكيف أنه كان يصلى دائما من أجل الكنيسة والجموع، بل لقد كانت صلاته دعاء إلى الرب أن يهدى إلى المسيحية العالم أجمع، ولكنه فى الوقت نفسه لا يجبر أحدا على ذلك، فلما نظر الرب إلى هذه الفعال من جانب الإمبراطور أنعم عليه بهذه الحكومة العالمية، ويختتم رسالته بتحذير يعظ به الجميع حاثا إياهم على العيش فى سلام والإخلاد إلى الهدوء(٥٢).

هكذا .. وعلى قيثارة "المن" راح قسطنطين يعزف للكنيسة لحن "الخيرات" التى أغرقها فى أنغامها، ويردد على مسامع جمهورها دائما تلك المقطوعة التى لم يمل منها وجيز برهة، وأرهفت الكنيسة أذنيها لتسمع، فقد كان لابد لها أن تسمع بل وأن تعى من اللحن كل نغمة، ولم يفت الإمبراطور أن يذكر دوما فى أنشودته أنه مبعوث الرب، وأن الإله الأعلى هو الذى فى البدء هداه، وهاهو ذا يسدد خطاه .. فما على الكنيسة إذن إلا أن تسبح بحمد هذه الرحمة الإلهية، ولها تدعو وإياها توقر!!

وكأنى بقسطنطين يريد أن يضع أمام أعين رجالات الكنيسة صورة لمدى عون الرب له بمنحه هذه "الحكومة العالمية" التى يحدث عنها، والتى لم تكن لتشمل الرومان وحدهم، بل تخضع البرابرة أيضا. ففى رسالة بعث بها إلى مجمع الأساقفة المنعقد فى صور سنة ٣٣٥ يقول قسطنطين:

"بفضل جهدى، ولأنى لله نعم الخادم، آمن البرابرة بعبادة الرب، وما ذلك إلا لأنهم أيقنوا أنه حافظى وحامينى فى كل خطو ودرب. ولأنهم من خشيتنا أدخلوا إلى المعرفة الحقة للإله الذى هم الآن بعبادته قائمون(٥٣)".

---

(52) EVSEB. vita Const. II, 48-60.
(53) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.

وتنتاب قسطنطين من الحماس فورة فيكتب إلى ملك فارس رسالة(٥٤) يردد فى صدرها من جديد أنغام فضله على المسيحيين وما نالهم تحت حكمه من جم الفوائد وأعظمها، فيفتتحها قائلا:

"إنى كما تبرهن أعمالى اعترف بأقدس عقيدة، فهذه العبادة ذاتها تقودنى إلى معرفة الرب القدوس، الذى بعونه وقوته أنهضت من الرقاد من أقاصى المحيط، كل أمة فى هذا العالم لتلمح الأمل فى الأمان، وعليه فإن كل أولئك الذين يئنون تحت وطأة العبودية ويقاسون أعظم الويلات لأشد الطغاة قسوة، قد بعثوا من جديد بفضل حكمى وإرسائى قواعد أسعد دولة".

ولا يختلف هذا المعنى - كما نرى - عن سابقه، وتلك على التتابع كانت عادة قسطنطين. فما من رسالة كتبها أو أمر بها إلا وفيها لأنشودة فضل حكمه على المسيحيين مقام معلوم، والمقصد من هذا كله بين جلى.

وإذا كان قسطنطين قد ساق بالقوة البرابرة - كما يدعى - إلى حظيرة المسيحية وهو مالم يحدث مطلقا فى دنيا الواقع، فنال بذلك تهليل الكنيسة واستحسانها، فلا أقل من أن يستحث ملك فارس على رفع الظلم عن كواهل رعاياه المسيحيين، فدعاه فى رسالته إلى معاملتهم معاملة طيبة وأن يشملهم بعطفه ورعايته، حتى ينال بذلك رضا ربهم وجميل نعمائه، فيقول الإمبراطور:

"إنى لأضرع أن يحل عليك الرخاء وإياهم، وأن تشملكما على قدر واحد البركات، فبهذا السبيل سوف تعاين حب الله وعطفه، الرب أب الجميع والسيد. والآن. وأنت صاحب السلطان أوصيك بهم خيرا، فلتسعهم رحمتك ولتكلأهم رعايتك، فتقواك للعيان بادية، ولتبسط عليهم جميل فضلك وعطفك، فإنك بهذا السبيل تضمن لك ولنا عظيم النعم".

ولكن الرسالة تضمر غير هذا المعنى معانى أخرى:

(54) EVSEB. vita Const. IV. 9-3.

"هذا الرب .. وأنا على ركبتى جاث، إياه استعيذ من هول دماء تلك الأضحيات، وإليه أبتهل أن يبدد رائحتها الكريهة المقيتة، ويطهر من الأراضى كل نار شيطانية، وما ذلك إلا لأن هذه الشعوذات الدنسة الرجسة بشعائرها المستهجنة، قد أوردت جل لا بل كل أمم العالم الوثنى ورد الهلاك. فرب الكل السيد، وهبها البركات، ومن ثم لا يرضى جلاله ولا يسمح لقلة تعبث بها وتنحرف إرضاء لخاص الشهوات. وليس للرب على الإنسان إلا نقاوة عقل، واستقامة روح، وهو بهذا المعيار يزن صالح الأعمال وفاضلها، فمسرة الله لكياسة من البشر واعتدال. يحب الحليم ويبغض اللئيم .. يبتهج للإيمان ومن الكفر يقتص. يهوى بجبروته كل عات، ومن صلف كل متكبر ينتقم. وفى الدرك الأسفل يطيح بكل متعجرف غطريس، ولكنه يجزى المتضع، وبما استحق من جزاء يثيب، وبمثل هذا يمد الرب عونه لمملكة بالعدل قائمة، ويدعمها ومليكها بسكينة السلام ... وبعد يا أخى .. فأنا على يقين بأنى غير مخطئ فى اعترافى بهذا الإله الواحد. المبدع، الأب لكل الأشياء، الذى جافاه كثير من أسلافى، مقودين بجنون الخطيئة، مما جر عليهم رادع العقاب حتى راح ما تلاهم من أجيال يتندر بما حل بهم تحذيرا لمن تداعبه الرغبة فى سلوك الدرب، ومن عداد هؤلاء واحد حدث به صاعقة العذاب الهون، فراح من هنا طريدا، وكانت أراضيكم له المنفى والمصير. وكان العار الذى لحق بسمعته مدعاة لذيوع صيت انتصاركم(٥٥) وأنها لمن اليقين مناسبة طيبة حيث أضحى الانتقام الذى حل بكل أولئك – على النحو الذى أوضحت – بينا للجميع فى عصرنا، ذلك أنى قد عاينت نهاية أولئك الذين، بكافر مراسيمهم، ناكدوا عباد الرب. وبهذه النهاية وجب تقديم الشكران لله. فبعونه الفياض سعد بشر يرعون ناموسه المقدس بعد أن عاد من جديد هناء السلام. وعليه فإنى لموقن بأن الأمور كافة قد اتخذت الوضع الأفضل الآمن. فإذا ما اتقى الناس وآمنوا وتمسكوا بناموس الرب ولم يتفرقوا، يقدسون ذاته، تعطف الرب فآواهم إلى رحابه".

---

(٥٥) يشير قسطنطين هنا إلى ما كان من أمر هزيمة الإمبراطور الرومانى فاليريان (٢٥٧ – ٢٦٠) على يد الفرس وأسره. راجع ص ٤٠.

بهذا الترديد فى رسالته يقدم قسطنطين لشيء واحد يريد قوله منذ البدء، ذلك هو حث سابور الثانى Sapor II على أن يرفع عن كواهل المسيحيين فى مملكته نير الاضطهاد، ولم يكن قسطنطين ليذكر ذلك جملة فى رسالة مقتضبة تحمل معنى عرف الساسة، ولكنه بعث بهذه الرسالة المسهبة منصبا من نفسه داعية إيمان يعظ أمام المذبح جموعا!!.

لقد كان فى مقدور الإمبراطور الرومانى أن يهيب بالملك الفارسى إنصاف عباد الإله الواحد بداءة وينتهى. ولكنه آثر أن يأتى بما يبتغى فى ختام رسالته، وإذا جاز لنا أن نسبر غور نفس الإمبراطور لرأيناه عمد إلى ذلك قصدا مقصودا. فهو يعلم يقينا أن سابور لا يدين بذلك الإله الواحد الذى ملأ قسطنطين الدنيا ضجيجا من أنه بعبادته قائم، وأن لم يفصح أبدا صراحة عن ماهية هذا الإله، ولا يرتاب فى أن ما امتلأت به رسالته من ابتهالات لهذا الرب وضراعة لا تعنى البتة شيئا لدى هذا الملك الثنوى، وأن صراخ قسطنطين حول صحة اعترافه بمبدع كل الأشياء لا تهم سيد فارس من قريب أو بعيد. رغم علمه بكل ذلك، إلا أنه ذكره مقرنا إياه بصور أخرى مضادة عن أولئك الأسلاف الذين ناهضوا هذه العبادة وأذوا ناسها، ولا تكاد فقرة من الرسالة تخلو من تصوير غضب سيد الجميع. وكم من أمة وثنية عصفت بها يد القادر، وكم من متجبر طاغية أطاحت به قوة العلى. وكأن قسطنطين أراد بذلك أن يضع أمام أعين الملك الفارسى صورة لما يمكن أن تصبح عليه مملكته وعليه هو يمسى، طالما أنه لا يؤمن بالواحد، وطالما كان يضطهد عباده. أما قسطنطين فالرب على الدوام أخذ بيده، ويبارك خطاه، وينصره على أعدائه أعداء الرب، لأنه يسلك سبل دينه، ويهتدى بنور شرعه. وإلا فبماذا نعلل كل هذا السياق إذا لم يكن قسطنطين قد قصد إلى ذلك فعلا؟.

شيء آخر لا نظنه من الحقيقة ببعيد، فقسطنطين يريد أن يضيف إلى مآثره على الكنيسة فضلا جديدا بأن يجعل من نفسه للإيمان داعية، وأن يظهر بصورة حامى ذمار هذا الدين فى داخل دولته وعبر أسوارها، وعند عدو للرومان لدود وكأنه يريد بذلك أن يدخل فى روع الكنيسة حرصه على ضم بيعة جديدة إليها، فيمتد بذلك نفوذها إلى جهة كانت توقن أنها عن أيديها بعيدة المنال.

ومهما يكن من أمر فقد أحدثت الرسالة رد فعل عنيفاً فى الأوساط الفارسية، وساورت الشكوك الملك الفارسى فى نيات إمبراطور الرومان وولاء هذه الطائفة من رعاياه معتبرا إياهم صنائع عدوه(٥٦) وربما يعود ذلك لما نمى إلى علم الإمبراطور من خاصته بأن كل المسيحيين فى مملكته يمثلون حزبا مؤيدا للامبراطورية الرومانية، وأن سمعان أسقف سلوقية Seleucia يرسل إلى القسطنطينية أخبارا عن كل ما يحدث فى فارس(٥٧). ولعله مما يرجح هذا القول ما جاء فى رسالة قسطنطين سالفة الذكر إلى سابور حيث يقول: "إنه لفى روعى والسرور يملأنى، بعد أن أتتنى أنباء سارة تتناغم ورغبتنا، إن أكثر بقاع فارس تزخر بأولئك الرجال الذين من أجلهم أتحدث إليكم الآن .. أعنى المسيحيين"(٥٨). ويرجع هذا الارتياب فى نفس سابور إلى وقت طويل عندما تسلم زمام السلطة فى المملكة، فهاله انتشار المسيحية بين رعاياه وخاصة فى بابل وسلوقية وجنديسابور وآشور وغيرها(٥٩) فأنزل بهم اضطهادات واسعة النطاق ثلاث مرات فى سنوات ٣١٧، ٣٢٩، ٣٣٠، واستمر الاضطهاد الأخير أربعين عاما(٦٠). وعقد فى سنة ٣٢٥ مجمعا زرادشتيا يضم كهنة الدين الفارسى أقر فيه نصا رسميا نهائيا لكتاب الأفستا(٦١).

ومما زاد فى ارتياب الملك الفارسى أن تيريداتس الثالث Tiridates III (٢٦١ - ٣١٧) ملك أرمينيا، الذى أعاده دقلديانوس إلى عرشه، قد تحول فى مطلع القرن الرابع إلى المسيحية، وفرض بحماس جارف عقيدته الجديدة على رعيته(٦٢). مما أدى بالتالى إلى حدوث التباعد والنفور بينه وبين مملكة الساسانيين(٦٣)، ومن ثم

(56) Jones, Later Roman Empire, I, p. 85.

(٥٧) موسهيم: تاريخ الكنيسة المسيحية، ص ١٣٥.

(58) EVSEB. vita Const. IV, 9 - 13.

(٥٩) أسد رستم: الروم جـ١، ص ٧٥.

(٦٠) موسهيم: تاريخ الكنيسة المسيحية، ص ١٣٥.

(٦١) أسد رستم: المصدر السابق، ص ٧٥.

(62) Jones, Later Roman Empire, I, p. 85.

(63) Cary, op. cit. p. 732.

لم يدخر قسطنطين وسعا فى تعضيد هذا الشريك المسيحى وإحياء التحالف القديم ثانية(٦٤). ولاشك أن ذلك كان يشكل خطورة ليست بالقليلة على الملك الفارسى ودولته. وهكذا تطورت الخصومة بين سابور الثانى وزميله الرومانى مما دفع الملك الفارسى إلى القبض على تيجرانس Tigranes ملك أرمينيا المسيحى واحتلال بلاده، فاستنجد الحزب الموالى للرومان والمسيحية بقسطنطين وعرض عليه المملكة، فقبل على الفور وتوج عليها هانيباليان Hannibalianus ملكا، وكان هذا بالطبع يعنى الحرب مع فارس، ولم يؤخر انفجارها إلا موت قسطنطين(٦٥).

لهذا لا نستبعد أن يكون قسطنطين فى رسالته إلى ملك فارس يتحرش به ويستفزه، ليدخل معه فى جولة من جولات الصراع يجرب فيها للمرة الثالثة قوة ذلك الإله الذى خبره قبل ذلك على ضفاف التيبر وتحت أسوار خريسوبوليس. ولكن قدره لم يسعفه، فترك لخلفه مهمة اتمام هذه التجربة.

لم يقف عون قسطنطين للمسيحية عند حد الدعم المادى بصوره المختلفة، والتأييد المعنوى البادى فى رسائله العديدة، بل تخطاه إلى حيز الواقع العملى، أعنى إقامة دور العبادة، فينبئنا يوسيبيوس أن الإمبراطور بعد ارفضاض مجمع نيقية سنة ٣٢٥ نذر نفسه لعمل جديد فى خدمة المسيحية فى منطقة فلسطين بالذات، وكان هذا العمل هو إنشاء كنيسة فى الموضع الذى "قام فيه المسيح ثانية من بين الأموات"، ويقول مؤرخنا أن قسطنطين لم يكن يصدر فى عمله هذا عن تفكيره المحض بل كان يتحرك بروح من المخلص نفسه(٦٦)، وقد أمر الإمبراطور بإزالة القمامة والمخلفات التى كانت تغطى ذلك المكان(٦٧)، وذهب إلى أبعد من ذلك وأمر أن تحفر الأرض إلى عمق معين حتى تتطهر من كل رجس يكون قد علق بها من جراء الدنس الذى أقدم عليه أعداء الرب(٦٨)، وكانت مفاجأة للجميع عندما عثر

(64) Jones, Later Roman Empire, I, p. 85.
(65) Id.
(66) EVSEB. vita. Const. III, 25.
(67) Ibid. 26.
(68) Ibid. 27.

أثناء الحفر على القبر المقدس(٦٩)، وقد أردف قسطنطين ذلك برسالة بعث بها إلى حكام الولايات الشرقية يأمرهم فيها أن يقدموا الأموال لإتمام بناء الكنيسة عند القبر المقدس، وأن لا يبخلوا فى هذا المقصد بشيء، وحملت نفس المعنى رسالته إلى مكاريوس Macarius أسقف أورشليم(٧٠)، وأوضحت مدى اهتمام الإمبراطور واحترامه وسعيه الدائم، لإتمام هذا العمل بصورة تليق بالمخلص(٧١)، وإقامتها بصورة تبز بها سائر كنائس العالم المسيحى المعروف آنذاك فى جمال عمارتها(٧٢). ويضيف يوسيبيوس أن الإمبراطور زين هذه الكنيسة بما لا يمكن وصفه من الذهب والفضة والأحجار الكريمة(٧٣). وقام الإمبراطور أيضا بإنشاء كنيستين أخرتين فى بيت لحم وفوق جبل الزيتون(٧٤) وزارت هيلينا Helena أم الإمبراطور، الشرق لتسير فى نفس الطريق التى سار فيها المسيح يحتمل الصعاب والآلام، ولتشرف بنفسها على تشييد وتزيين هاتين الكنيستين(٧٥).

ونتيجة لهذه الرحلة التى قامت بها هيلينا، أو هيلانة كما يسميها الشرقيون، من صقلية إلى أورشليم، اعتبرت أول حاجّة فى التاريخ المسيحى، ولتصنع بذلك ومن بعدها القديس جيروم طقس الحج فى المسيحية وحظيت مناطق أخرى عديدة بما نالته فلسطين، وخاصة نيقوميديا وأنطاكية(٧٦). ويذكر يوسيبيوس أيضا أن الإمبراطور قام فى سنة حكمه الأخيرة بإنشاء كنيسة الرسل فى القسطنطينية، ويعطينا وصفا دقيقا لفخامة هذه الكنيسة وعظمتها(٧٧).

وفى الناحية الأخرى أقدم قسطنطين على هدم عدد من معابد الوثنية، مثل

---

(69) Ibid. 28.
(70) Ibid. 29.
(71) Ibid. 30; SOCRAT. hist. eccl. I, 9.
(72) EVSEB. vita Const. III, 31.
(73) EVSEB. vita Const. III, 40.
(74) Ibid. 41.
(75) Ibid. 42, 43; SOCRAT. hist. eccl. I, 17.
(76) EVSEB. vita Const. III, 50; SOCRAT. hist. eccl. I, 18,
(77) EVSEB. vita Const. IV, 58 - 59.

معبد أسكليبيوس Asclepius فى ايجى بكيليكيا Aegae (Cilicia) ومعبدى Apheca و Hiliopolis فى فينيقيا Phoenicia واقتلع أبوابها وأسقط أسقفها وامتدت يداه فيما وراء ذلك لتنزع عنها ما زانها قبلا من نفائس وآيات فنية رائعة(٧٨). ويعلق جونز على ذلك بقوله أن قسطنطين استغل ما انتزعه من الذهب والفضة من تلك المعابد فى إصلاحه النقدى(٧٩). ويرجح أيضا أن يكون قسطنطين قد صادر ضياع هذه المعابد(٨٠)، ويذكر يوسيبيوس أن هذه الإجراءات التى أقدم عليها الإمبراطور أطاحت بهيبة الأرباب القديمة، وأضحت مثارا للسخرية، وقد ظهر عجزها فى دفع الأذى عن نفسها، وكان ذلك داعية لهجر كثير من الوثنيين ديانتهم وتحولهم إلى المسيحية(٨١).

بهذا كله غدا قسطنطين فى نظر الكنيسة ومؤرخيها رسولا، تخيرته السماء ليمجد الرب فى الأعالى، وليحل على الأرض السلام، وليعيد للكنيسة عهدا من الأمان حرمت منه منذ ولدت، ولتنتشر بفيض رحمة الرب تعاليم المخلص وهديه، وقد عبر قسطنطين عن ذلك أحسن تعبير فى تلك الرسالة التى بعث بها إلى فلسطين حيث يقول:

"لقد كنت عدة الرب التى اختارها، وقدر صلاحها لإنفاذ مشيئته. وعليه فإنه ابتداء من المحيط البريطانى البعيد والأقاليم التى وفقا لقانون الطبيعة، تستتر الشمس فيها بالأفق، وبمدد إلهى، أقصيت تماما وأزلت كل صنوف للشر سادت، آملا، وأداتيتى للرب تنير خطوى، أن يرعى البشر ناموس الإله المقدس، ويزدهر بهدى يديه المقتدرة معتقدنا الطوباوى"(٨٢).

وبعد أن يعترف قسطنطين بفضائل الإله عليه، واعتبار كل خدمة توكل إليه من عند الرب هبة، يضيف قائلا:

(78) EVSEB. vita Const. III, 54, 56, 58.
(79) Jones, Later Roman Empire, I, p. 92.
(80) Id.
(81) EVSEB. vita Const. III, 57.
(82) EVSEB. vita Const. II, 28.

"هاأنذا إلى أقاليم الشرق أسعى. حيث أمست تحت نير الكوارث الجسام تتحرق لطباب شاف على يدى(٨٣)".

وبعد .. فهذه رحلة طويلة سرناها مع قسطنطين، متخذين من شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى دليلا ومرشدا فيما يتعلق بما فعله الإمبراطور مع المسيحيين، وذلك من خلال كتاب مؤرخنا "حياة قسطنطين " والذى يعد قصيدة شعر نظمها الرجل فى مدح محبوبه، ولم ينكر هو ذلك فى افتتاحية كتابه هذا، حيث ذكر أنه سوف يحدث عن كل فضيلة للإمبراطور، ولن يعرج على أية نقيصة، وقد سرنا معه هذه الرحلة .. ولكن علينا الآن أن نناقشه فيما ذكر، وأن نسبر غور نيات قسطنطين فيما فعل.

قد يبدو غريبا أن يظهر قسطنطين تعاطفه بهذه الصورة مع المسيحيين وهو يعلم يقينا أن المسيحيين يمثلون قلة فى الإمبراطورية، بل وفوق ذلك قلة مستضعفة، وهى لا تتجاوز فى تعدادها عشر سكان الإمبراطورية. وكان أغلبهم ينتمى إلى الطبقات الشعبية التى كانت على أقل تقدير تمثل سياسيا واجتماعيا الطبقات المتوسطة والأدنى فى المدن، وكان السناتو الرومانى كله تقريبا، وهو معقل الأرستقراطية الرومانية، وثنيا، كما كان كبار الموظفين. وأهم من هذا جميعا كان جل الجيش ضباطاً وجنودا يدينون بالوثنية(٨٤). فهل كان قسطنطين فى انجذابه للمسيحيين يصدر عن إيمان حقيقى بإله المسيحية؟ أم أن ذلك سلوك فرضته الظروف واقتضته طبيعة الأحداث آنئذ؟

لم يكن قسطنطين على قدر كبير من الثقافة(٨٥)، وكان بمولده ونشأته الأولى وثنيا(٨٦)، وذلك بحكم بيئته التى شب فيها، فوالداه يحملان نفس العقيدة، وإن كان أبوه قد لجأ إلى صورة من صور التوحيد الوثنى حيث كان من عباد إله

(83) Ibid. 29.
(84) Jones, Constantine, pp. 79 - 80.
(85) Cantor, op. cit. p. 46.
(86) Boak, op. cit., p. 432.

الشمس(٨٧)، أما هيلينا فيبدو أنها لم تعرف المسيحية قبل وليدها(٨٨).وقد بقى قسطنطين مع أمه فى Drepanum (مدينة على الساحل الغربى لصقلية وتسمى الآن Trapani) موطنها الأصلى إلى أن غدا والده قسطنطيوس سنة ٢٩٣ قيصرا وطلق هيلينا(٨٩) ليتزوج من ربيبة ماكسيمينوس تيودورا(٩٠). فأخذ قسطنطين إلى نيقوميديا ليقيم فى القصر الامبراطورى هناك بحجة تثقيفه وتهذيبه، ولكن الحقيقة أنه كان رهينة لدى دقلديانوس حتى يضمن حسن سيرة قيصر الغرب(٩١). ولعلنا نلمس هذه الحقيقة فيما أورده لاكتانتيوس(٩٢) عن ذلك الإلحاح المستمر الذى أبداه قسطنطيوس للسماح لولده باللحاق به عقب وفاة دقلديانوس، وما كان من رفض جاليريوس وعنته.

ولما كان البلاط النيقوميدى يسوده المعتقد الوثنى، وليس للمسيحية فيه إلا بضع موظفين، لم تتح بالتالى الفرصة لقسطنطين ليعرف المسيحية عن كثب، وزاد فى ذلك أيضا اشتراكه فى عدة حملات كان أشهرها تلك التى صاحب فيها دقليديانوس إلى مصر، ولعل ذلك كله يفسر عدم معرفة قسطنطين بأمور العقيدة المسيحية. ويدعم ذلك حقيقتان، فقسطنطين بعد ما تراءى له فى السماء أثناء صحوه، وعلى الأرض إبان غفوته، على حد زعمه أو ادعاء يوسيبيوس، قبل معركة القنطرة الملفية، دعا إليه، حاملى أسرار الديانة المقدسة، كما أخبرنا يوسيبيوس، وطلب إليهم تفسير ذلك، فأخبروه حقيقة الأمر كما قدمنا، وهذا فى حد ذاته يدل على أن قسطنطين لم يكن حتى هذا الحين يعى من أمر العقيدة المسيحية شيئا، رغم وجود أساقفة مسيحيين فى معيته آنذاك مثل هوسيوس. ورغم أن يوسيبيوس يذكر أن حالة قسطنطين اثناء إقامته بالبلاط الإمبراطورى فى نيقوميديا

(87) Burckhardt, op. cit., p. 202.
(88) Boak, op. cit., p. 432.
(89) Richardson, op. cit., p. 411.
(90) Jones, Constantine, p. 14.
(91) Richardson, op. cit., p. 412.
(92) LACT. Mort. Pers. 24.

لا تختلف عما كان عليه الحال بين موسى وفرعون وأنه كان لا يكف عن الصلاة والضراعة، ولم يكن يشارك الإمبراطور وقيصره أى لون من ألوان حياتهم المفتقرة إلى التقوى والصلاح(٩٣). والحقيقة الثانية أن فكر قسطنطين حتى سنة ٣٢٤ لم يكن يدرك شيئا من مسائل اللاهوت المسيحى، وذلك واضح كل الوضوح فى رسالته(٩٤) التى بعث بها إلى كل من اسكندر وآريوس رجلى الدين المسيحى فى كنيسة الاسكندرية، عندما أتاه نبأ تخاصمهما حول مسائل كريسولوجية، فكانت الرسالة كلها تقريعا للرجلين، بسبب السماح لنفسيهما يفتح باب المناقشة فى هذا "الموضوع الذى لا طائل وراءه" والخوض فى "مسائل جدلية لا توائم العقل" والجدل حول "أمر تافه للغاية" و "ليس له أدنى أهمية جوهرية". وتلك أمور لا يمكن لباحث أن يسقطها من حسابه عندما يثور الجدل حول مسيحية قسطنطين.

ويبدو أن قسطنطين قد سار على خطو والده فى هذا الاعتقاد التوحيدى الذى اختطه لنفسه(٩٥)، ذلك أن أباه يرجع فى نسبه لأمه إلى الإمبراطور كلوديوس القوطى Claudius Gothicus (٢٦٨ - ٢٧٠) (٩٦)، فلما غدا لماكسيمينوس قيصرا سنة ٢٩٣ حمل لقب الأسرة التى يكنى بها ذلك الأوغسطس، وكان ماكسيميانوس قد نسب نفسه، توثيقا لعرى الصداقة بينه وبين دقلديانوس، إلى هرقل Hercules الذى كد تحت هدى أبيه جوبتر Jupiter لنفع البشرية، وقد وضع دقلديانوس نفسه بذلك أبا لماكسيميانوس حيث أرجع أصله لرب الأرباب(٩٧)، وقد فعل قسطنطين مثلما فعل أبوه من قبل، فأصبح ضمن عداد الأسرة الهرقلية منذ قبل صداقة ماكسيميانوس وتحالفه عام ٣٠٧، وكان ذلك شيئا طبيعيا يتمشى مع السياسة التى رسمها لنفسه قسطنطين فى تلك الآونة، فلما دخل روما عقب وقعة القنطرة الملفية نزع نفسه من قائمة الهرقليين وأعلن انحداره من سلالة كلوديوس، وعليه

---

(93) EVSEB. vita Const. I, 12, 19.
(94) Ibid. II, 69.
(95) Ostrogorsky, history of the Byzantine State, p. 43.
(96) Burckhardt. op. cit. p. 45.
(97) Jones, Constantine, pp. 13 - 14.

فقد أظهر نوعا خاصاً من التعبد للشمس التى لاتقهر، العبادة الفضلى لدى سلفه الأثير وأبيه(٩٨). وظهر ذلك فى العملة التى ظل يضربها حاملة هذا الرسم حتى عام ٣٢٣(٩٩).

وفى سنة ٣٢١ قرر قسطنطين جعل يوم الأحد عيدا أسبوعيا(١٠٠)، ولكن الإمبراطور لم يدع هذا اليوم أبدا بيوم السيد، بل أسماه يوم الشمس dies solis مؤكدا بذلك قدسيته بالنسبة للشمس، وعلى ذلك يمكن القول أن قسطنطين قد عمد إلى هذا الاسم الذى لا يمكن أن يضايق مسامع رعيته الوثنية(١٠١). ولا زال يوم الأحد يحمل الاسم نفسه فى اللغات الأوروبية حتى يومنا هذا!!.

ولم يكن ما تم الاتفاق عليه بين قطبى ميلانو عام ٣١٣ ونشرته رسالة نيقوميديا، فى جانب المسيحيين أو انحيازا لهم كما قد يبدو، ولكن الحقيقة أن الزعيمين أعطيا لهذه الفئة المستضعفة حقا كانت قد حرمت منه فترة من الزمن طويلة، وذلك جلى فيما كانت تضغط عليه الرسالة بإصرار فى منح الحرية الدينية للأناسى جميعهم حسبما تهوى افئدتهم، ولم يكن قسطنطين ورفيقه فى هذا المضمار صاحبى سبق، فقد سبقهما إلى ذلك جاليريوس سنة ٣١١ بل وجاللينوس أيضا فى القرن الثالث. وكانت البواعث التى حفزت الإمبراطورين على انتهاج هذا السبيل هو الحفاظ على سلام الإمبراطورية وأمنها كما أفصحت عنه رسالة نيقوميديا كذلك، وهى فى حقيقة أمرها دواع محض سياسية(١٠٢). وفى ذلك يقول فازيلييف "لقد منح قسطنطين وليكينيوس المسيحية نفس الحقوق التى كانت تتمتع بها الديانات الأخرى بما فيها الوثنية(١٠٣).

---

(98) Ibid. 66.
(99) Latourette, Christianity, p. 92.
(100) EVSEB. vita Const. IV, 20.
(101) Gibbon, op. cit. II, p. 308, n. 8.
(102) C.M.H. I, p. 5; Thompson & Johnson, op. cit., p. 31.
(103) Vasiliev, op. cit. I, p. 52.

معنى ذلك أن المسيحية لم تحقق على الديانات الأخرى تفوقا ملحوظا، وإن كان إنهاء الكيان غير الشرعى للمسيحيين فى الإمبراطورية، وإعلان الحرية العقائدية التامة قد قلل من شأن الوثنية بصفتها السابقة ديانة الدولة الرسمية وذلك بوضعها فى مصاف العقائد الأخرى(١٠٤)، ولم نشهد من قسطنطين مراسيم تحرم عبادة الأرباب الوثنية، أو توقع بالوثنيين من أجل ديانتهم لونا من الاضطهاد كتلك التى عاناها المسيحيون على عهد الأباطرة الأسلاف. حقيقة منع قسطنطين – كما أنبأنا يوسيبيوس – بعض الطقوس الخاصة بتقريب الأضحيات، أو بتقديمها على الاطلاق(١٠٥) ولكن المعابد الوثنية ظلت مفتوحة للعبادة العامة(١٠٦) وإذا كان قد أقدم على هدم معبدين – كما أسلفنا، فإن ذلك لم يكن راجعا لأسباب دينية، بل لأسباب أخلاقية بحتة، فقد أمسى المعبدان مباءة يمارس فيها الفجور بعد أن هجرهما الأرباب!! هذا على حين أصدر قسطنطين مرسومين ضد بعض الفرق المسيحية، التى تنعتها الكنيسة بالهرطقة، مخافة الانقسام فى الدولة. وقد جاء فى المرسوم الأول:

"على رنين هذا انتبهوا الآن معاشر النوفاتيين Novatians والفالنتينيين Valentinians والماركيونيين Marcionites والبيالصة Paulians أنتم أيها البلهاء Cataphrygians وجميعكم يا من تعضدون الهراطقة ولهم تخططون فى اجتماعاتكم السرية. انتبهوا إلى أنكم بنسيج زيف وغرور، وسأم الضلالة ومهلكها، تحيكون عقيدتكم. من أجل ذلك، وبكم تصاب بالداء كل روح طيب، ويمسى الحى فريسة هلاك مقيم . يا كارهى الحق. يا أعداء الحياة. يا أحلاف الخراب. أن آراءكم كلها للحقيقة ضد، تنضح بالخسة، تغص بالسخافات والأوهام. بها تصوغون النفاق، وتجيرون على البرىء وتحجبون الضياء عن ذوى الإيمان. بآثامكم ذوما تحت قناع التقوى، تملأون بالدنس كل شىء، وتنفذون بعميق الجراح فى نقى الضمائر، وتسلبون من أعين البشر ضياء النهار. ولكن مالى أطيل؟ إن الحديث

(104) Id.
(105) EVSEB. vita Const. II, 45, IV, 23.
(106) Richardson, op. cit. n., 1 c. 45 p. 511.

عن جرمكم يتطلب من الوقت والفراغ مزيدا عما أعطيه. فكم هى مفعمة قائمة خطاياكم وكم هى شنيعة مقيتة .. يقصر عن سردها يوم، وكم يحسن بالمرء أن يصم الآذان عنها ويغمض العيون لئلا تضار بالخوض فى هذه الآثام نضارة مؤمن حسن. إنى لأسائل نفسى .. علام الصبر إذن على شر مستطير، خاصة أن هذا الحلم تسبب فى أن يتسخ بعض الأصحاء بهذا الداء الوبيل. لم إذن لا يجتث من الجذور هذا الخبث؟ وما ذلك إلا بأن نعلن على الملأ الاستياء(١٠٧)".

ومكث قسطنطين غير بعيد ثم أردف مرسومه هذا بآخر يقرر فيه ما سبق أن حذر به فى السابق يقول:

"أما وقد ضاق الصدر عن تحمل ويل ضلالكم، فإنا بهذا المرسوم نحرم عليكم الآن وبعد الآن عقد أى اجتماع. وبهذا أصدرنا أوامرنا .. نخرجكم من ديار جمعتكم، وامتدت إرادتنا لتبسط الحرمان أيضا على مقابلات لكم فى السر والعلن بالخزعبلات طفحت والخرافة. فلتدعوا إذن ذلك النفر منكم، الراغبين فى اعتناق دين الحق، ليسلكوا سبيل الصواب بالانضواء فى الكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معها فى زمالة مقدسة حيث يستأهلون الوصول إلى الحقيقة. ومهما يكن من أمر فإن هوس فهمكم الأضل لابد وأن يحجم عن أن يشوب أو يعطب غبطة زماننا، نعنى ميلا مزدوجا لدى الهراطقة والمنشقين تعسا ملحدا. فإنه من واجب الوفاء بالنعمة، التى بفضل الرب منحنا، أن ندأب لنخرج أولئك الذين عاشوا فى الماضى يحلمون بنعمة المستقبل، من الشذوذ والآثام إلى الصراط المستقيم، من الظلمات إلى النور، من الضلال إلى الحق، من الهلاك إلى النجاة، وحتى يصبح هذا الحل ذا شأن أصدرنا أوامرنا - كما قيل من قبل - بانتزاع بيوتات لقاءاتكم المشعوذة، أقصد دور الصلاة، إن جاز استخدام هذا اللفظ، التى يملكها الهراطقة وبرصدها على الفور للكنيسة الجامعة، ومصادرة أى مواضع لصالح الدولة، ولن يشهد المستقبل لكم أية تسهيلات للقاء. فمن اليوم وبعده لن يسمح لاجتماعاتكم غير الشرعية أن تعقد فى السر أو العلن وليكن ذلك للجميع معلوما(١٠٨).

---

(107) EVSEB. vita Const. III, 64.

(108) EVSEB. vita Const. III, 65.

وأول ما نسجله على هذين المرسومين، والثانى منهما بخاصة أنهما يعتبران خروجا على السياسة التى جرى فى ميلانو رسمها سنة ٣١٣، فقد منحت رسالة نيقوميديا المتحدثة باسم سياسة ميلانو "سائر الناس الحرية فى اتباع ما ترضاه من الديانة نفوسهم، وأن لا يحرم أى إنسان من حرية الاختيار فى اتباع عقيدة المسيحيين، أو فى اعتناق الديانة التى يراها متناغمة وهواه". ومن ثم فقد تخلى قسطنطين بقراراته هذه عما وعد بانتهاجه إزاء سائر العقائد. بل لقد ذهب إلى حد اضطهاد أتباع فرق المسيحيين هذه أو تلك، وليس حتما أن يتمثل الاضطهاد بإيقاع العذاب البدنى بهم، ولكنه أخذ هنا شكلا آخر فى تحريم اجتماعاتهم ما ظهر منها وما بطن، ومصادرة دور عباداتهم، وهى إجراءات طالما قاسى منها المسيحيون جميعهم قبل ذلك. ولا شك أننا نلحظ هنا تغييرا فى سياسة الدولة تجاه المسيحية بصفة خاصة. فقد ذكرنا أن الإمبراطورية كانت تنظر إلى المسيحية بجميع فرقها المختلفة نظرة واحدة كلية، ولم يكن يعنيها أن تنقسم الكنيسة إلى عدد من الفرق فى قليل أو كثير - أما الآن وقد أصبحت المسيحية ديانة شرعية فى الدولة، وأضحى لأتباعها صوت مسموع إلى جوار أتباع الديانات الأخرى، فإن أى انقسام فى الرأى بين أولئك الأتباع لابد وأن يضر بالوحدة العامة للإمبراطورية. ومن ثم عول قسطنطين على القضاء على أى مظهر من هذا النوع، ولا يعنى هذا أن قسطنطين كان على علم بأسرار عقيدة هذه الفرق الصغيرة - باستثناء النوفاتية - التى أصدر ضدها هذين المرسومين لكن قسطنطين كان يصيخ السمع هنا لمستشاره فى الشئون المسيحية، هوسيوس الأسقف القرطبى، وهذا شيء نعلمه من مواقف كثيرة سوف يأتى ذكرها، ولكن كل ما كان يريده قسطنطين أن يظهر للكنيسة الكاثوليكية التى كان يمثلها مستشاره، وتبدو لعينى الإمبراطور أنها تمثل السيادة على الرعايا المسيحيين فى دولته، أنه يقف إلى جانبها، ليضمن بذلك خضوع كل رعاياه المسيحيين لسلطانه وتلك كانت سياسته دوما مع المسيحية.

هذان إذن مرسومان أصدرهما قسطنطين ضد فرق مسيحية وقفت من الكنيسة الكاثوليكية مناوئة، تفوح من جنباتهما رائحة عنف وتهديد، وصيحات حرمان وتجريد ومصادرة، على حين لم يصدر تجاه الوثنية وتابعيها شيئا من هذا

القبيل، ولم يخاطبهم بهذه اللهجة من العنف والصرامة، وما فعل قسطنطين ذلك إلا خوفا من تعميق هوة الفرقة فى الكنيسة، ورأبا لصدع يزلزل وحدتها، وقد يمتد أثره فيصيب بالهزات الدولة، وبالانقسام إمبراطورية ظل يكدح زهرة شبابه ورجولته من أجل وحدتها وحكمها فردا.

لقد كان أخشى ما يخشاه قسطنطين انقساما فى إمبراطورية أتم على التو توحيدها، فأدخل فى روع نفسه وجموع رعيته المسيحية أن خلافا بينهم لابد مصيب دولته بالدوار، ومن ثم ما كان ليقبل مطلقا أى شقاق يقع فى صفوف الكنيسة، وهذا واضح من صيغة هذين المرسومين، ومن موقفه إزاء المشكلتين الدوناتية والمليتية، والنزاع الآريوسى كما سيأتى تفصيله.

ولكن ماله يحرص على وحدة الكنيسة ويربط بها وحدة الدولة، والمسيحيون كما علمنا يمثلون فى الإمبراطورية أقلية مستضعفة، والوثنيون رغم كثرتهم أشد منهم انقساما فى أربابهم؟

يجيب المؤرخ الإنجليزى هربرت فيشر H. Fisher عن ذلك بقوله: "لم يغب عن بصيرة إمبراطور حصيف مثل قسطنطين، أن اتخاذه الأولياء من فئة قليلة من الناس يحدوها النظام، ويهديها الإيمان الراسخ، وتسندها كتب مقدسة وعقيدة واضحة، أجدى عليه من فئة كبيرة ذات عقائد شتى"[(١٠٩)]. ويقول ول ديورنت: "حقيقة أن أتباع هذا الدين كانوا لا يزالون قلة فى الدولة. ولكنهم كانوا بالقياس إلى غيرهم قلة متجدة مستبسلة قوية، على حين أن الأغلبية الوثنية كانت منقسمة إلى عدة شيع دينية، وكان من بينها عدد كبير من النفوس لا نفوذ لها فى الدولة ولا عقيدة"[(١١٠)]. ولقد أمست الوثنية دينا باهتا، وهيهات لمن تلك صورته أن تنجو على ظلاله الإمبراطورية أو يبعث فيها الحياة.

وقد لمس قسطنطين هذه الناحية بنفسه إبان تلك الفترة التى قضاها فى

(١٠٩) فيشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى جـ١ ص ٧.

(١١٠) ديورنت: قصة الحضارة، مجلد ٣ جـ٣ ص ٣٨٨.

نيقوميديا، حيث شهد بعينى رأسه تلك التحديات التى أبدتها القلة المسيحية فى وجه السلطات الحاكمة، ومدى ما تحملته الجموع المسيحية من ويلات دون أن يتزعزع إيمانها أو تنكص على عقبيها، وأدرك أيضا أن الوثنية التى يجاهد الأباطرة لبعثها، قد دخلت فى طور من الكهولة مميت، وعلى ذلك أيقن قسطنطين أن القدر يجرى فى صف هذه القلة المستضعفة، ولو وجدت من البشر أحدا يمد لها يد عون لسمت على ما عداها، ولسبحت دوما بحمده، وهذا بعينه ما أدركته بصيرة قسطنطين.

ولم يمد قسطنطين للمسيحية فقط يد عون، بل بسط لها راحتيه لتعلو بهما لا عليهما – سمت رفعة وازدهار. لقد كان قسطنطين يدرك مثل سلفه العظيم أوغسطس أن الإمبراطورية فى حاجة إلى بعث أخلاقى جديد، بعد أن هوت فضائل الرومان الأقدمين خلال عصر قد سلف، شهد فقدان الرومان الثقة فى أربابهم، نتيجة لحروب أهلية وضعت على التو أوزارها، ولفوضى عامة تردت فيها الدولة وجهازها الادارى بعد أن اثبت نظام الحكومة الرباعية الدقلديانى فشله، ولأهواء ومطامح رفاق كان كلهم يتوق إلى حكم الإمبراطورية. وكانت وسيلة البعث الأخلاقى بعد هذا الانهيار تعتمد على الدين، وترسم قسطنطين خطا سلفه، فبينما أحيا أوغسطس العبادات القديمة، واحتضن ديانات جديدة من الشرق جاءت، أبقى قسطنطين على الوثنية وأعان أيضا ديانة من الشرق أتت، وكان يوقن تماما أنه بعونه إياها قادر على أن يضيف إلى جنده فيلقا آخر يسبح بحمده ويشكر له جميل نعمائه، فى وقت لا تجد فيه الفيالق الأخرى مبررا واحدا للتخلى عنه ما دام هو على دينها مُبق.

ولقد استطاع قسطنطين أن يأسر الكنيسة بما أغدقه عليها من الخيرات، وبما أولاها من نعم، فكسب ولاء رجالاتها وتأييدهم، وكان الإمبراطور فى مسيس الحاجة لمدد هؤلاء القوم يعتمد عليهم فى تسكين خواطر رعاياهم لما يعلمه عن نفوذهم الكبير عليهم. لقد غدا رجال الكنيسة فى حكومة قسطنطين "شرطة نبيلة" أمل فيها الإمبراطور أن تحفظ بالهدوء الأمن، وتنشر بالسكينة السلام. ويقول سباين لقد كان السبب الحقيقى لاعتراف قسطنطين للكنيسة بمركز قانونى خاص هو ما تخيله عن قدرتها على مد تأييدها للدولة(١١١)".

(١١١) تطور الفكر السياسى، جـ٢، ص ٢٧٢.

يقول ول ديورنت[١١٢] :- "لقد أعجب قسطنطين بجودة نظام المسيحيين، وطاعتهم لرؤسائهم الدينيين، وبرضاهم صاغرين بفوارق الحياة رضاء مبعثه أملهم فى أنهم سيحظون بالسعادة فى الدار الآخرة، ولعله كان يرجو أن يطهر هذا الدين الجديد أخلاق الرومان، ولقد تعلم المسيحيون على يد رؤسائهم واجب الخضوع للسلطات المدنية، وكان قسطنطين يأمل أن يكون حاكما مطلق السلطان، وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين. وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاما روحيا يناسب نظام الملكية، ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها"، وليس ببعيد عن هذا الحديث قول صاحب كتاب "المسيحية والثقافية الكلاسيكية" من أن الاستبداد والحكم المطلق الذى يتطلب كبت الحرية السياسية لا يحمل بالضروزة عداء للعقيدة، ففى هذا النظام من الحكم وجدت الكنيسة، وما كان قد تبقى من التقاليد الجمهورية القديمة، القواعد التى يمكن أن يتقارب عليها الاثنان. وفى قسطنطين وجدا حاميا لهما، لقد كانت جسارة الإمبراطور تكمن فى تلك الحقيقة الواضحة وهى أنه وجد الفرصة السانحة فاهتبلها[١١٣].

من هذا الجانب نظر الدارسون إلى مسيحية قسطنطين، معللين عونه للمسيحية تعليلا سياسيا، متكئين على ما واكب عطفه على المسيحيين من سلوك كانت وحدة الإمبراطورية هدفه ومنتهاه، وإرضاء كل العناصر فى الدولة وسيلته ومسعاه.

يقول استروجورسكى Ostrogorsky .. من اليسير على المرء أن يجد من الأدلة ما يدعم وجهتى النظر المتضادتين بشأن مسيحية قسطنطين. ولكنه بدا واضحا للعيان أن سياسة الاضطهاد التى مارسها دقلديانوس لم تثمر غير الفشل، وظهر أن الاتجاه الشرقى فى الإمبراطورية يعد مستحيلاً مع استمرار العداء نحو الديانة المسيحية، وقد أثبتت الأحداث أن قسطنطين كان رجلا ذا خبرات مع كل من الوثنية والمسيحية، ولم يكن اتخاذه جانب المسيحية فى عام ٣١٢ يعنى أنه كرس

(١١٢) ديورنت: نفس المصدر والصحيفة.

(113) Cochrane, op. cit. p. 182.

نفسه لهذه العقيدة وحدها محطما كل التقاليد الوثنية، وأنه أصبح مسيحيا فى إحساسه على النحو الذى سيصبح عليه خلفاؤه من بعد، فقد سمح بممارسة الطقوس الوثنية، بل وشارك فى بعضها أحيانا وخاصة ما يتعلق بإله الشمس، وكان اعتبار المسيحية دينا وحيدا فى الدولة يبدو شيئا غريبا بعيداً عن العقل فى عصر كانت أبرز صفاته ميوله إلى المفاضلة، ولابد أن ذلك هو عين ما بدا لقسطنطين(١١٤).

أما جونز فيقول أن تحول قسطنطين إلى المسيحية يرجع إلى خبرة دينية، ولو أن دوافعه الأولى كانت إتمام السيادة العالمية، ومن أجل هذا ظل حتى النهاية يستمد عونه من الرب لا من البشر، ورغم ذلك لم يكن يهتم أو يعرف شيئا عن فلسفة المسيحية وآدابها عندما أصبح مهتماً بإله المسيحيين، وكان ببساطة يرغب فى أن يسجل إلى جانبه دائما تلك القوة الإلهية التى اعتقد أنها هدته(١١٥).

على حين يحدث نورمان كانتور قائلا . . من الواضح أن قسطنطين لم يكن قديسا، ولكنه رأى نفسه رجلا صاحب رسالة، دُعى لينقذ الدولة الرومانية ويعضد الكنيسة المسيحية، وجمعت أفكاره المهتمين فى خط واحد، ووعى قسطنطين بإحساسه أن الكنيسة يمكن أن تكون للدولة عمودها الفقرى، ومن ثم فقد بذل محاولات يائسة ليحتفظ بوحدة الكنيسة مؤمنا أن الإله قد وهبه تفويضا شخصيا من أجل هذا المبتغى(١١٦).

ويجىء دور بوركهارت ليدلى بدلوه فى هذا الموضوع فيخبرنا أنه كثيرا ما تبذل محاولات للتغلغل فى ضمير قسطنطين العقائدى ولرسم صورة للتغييرات التى يحتمل أنها طرأت على معتقداته الدينية، وهذه كلها محاولات لا طائل وراءها. إذ أنه فى حالة هذا الرجل العبقرى، الذى شغلت مطامحه وتعطشه للسلطان كل لحظة من لحظات عمره، من المحال أن يتواجد موضوع حول مسيحية ووثنية، حول تدين نابع عن إيمان أو عدم تدين على الإطلاق، مثل هذا الرجل بالضرورة لا

(114) Ostrogorsky, op. cit.p. 43.
(115) Jones, Constantine, p. 102.
(116) Cantor, op. cit. p. 47.

ديني، إذا توقف للحظة واحدة ليختبر شعوره الديني الحق لأدى ذلك إلى التهلكة.؟ فعندما أدرك قسطنطين أنه كان مقدرا للمسيحية أن تغدو قوة عالمية اتخذها أداة من وجهة النظر تلك على وجه التحديد. لقد كان قسطنطين على استعداد لأن ينجز ويحتضن كل ما من شأنه أن يوسع دائرة سلطانه الشخصي(١١٧).

ويجزم فيشر بأنه ليس في استطاعة باحث أن يجرؤ على التأكيد بأن ذلك الإمبراطور العسكري القادر كان على الدين المسيحي، لأنه وإن لم يكن من المستطاع اتهامه بإلقاء الأسرى من الجرمان للوحوش الضارية بالملعب العام لتسلية النظارة. فمن المؤكد أنه قتل زوجه وابنه. على أن جرائم القتل لا تلبث أن تصير نسيا منسيا في عصر يطفح بحوادث العنف والحرب. وسرعان ما اختفت نقائص قسطنطين تحت ستار الأعمال المجيدة التي جعلته الحواري الثالث عشر في عداد الحواريين(١١٨).

ويتساءل في النهاية ول ديورنت . . ترى هل كان قسطنطين حين تحول إلى المسيحية مخلصا في عمله هذا؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية؟ أم هل كان هذا العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية؟ أكبر الظن أن الرأي الأخير هو الصواب. لقد أحاط قسطنطين نفسه في بلاطه ببلاد غالة بالعلماء والفلاسفة الوثنيين، وقلما كان بعد تحوله إلى الدين الجديد يخضع لما تتطلبه العبادة المسيحية من شعائر وطقوس، ولم يكن يتردد في القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية، وكان يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون، يستدعيهم إليه، ويرأس مجالسهم، ويتعهد بتنفيذ ما تقره أغلبيتهم، ولو أنه كان مسيحيا حقا لكان مسيحيا أولا وحاكما سياسيا بعدئذ، ولكن الآية انعكست فكانت المسيحية وسيلة لا غاية(١١٩).

خلاصة القول أن الكنيسة المسيحية كانت في مطلع القرن الرابع أشبه شيء بغريق ألقاه قدره في بحر لجي، يتقاذفه الموج من كل ناحية، ويغشاه الموت من

(117) Burckhardt, op. cit. pp. 292-293.

(١١٨) فيشر: المصدر السابق جـ١، ص ٦.

(١١٩) ديورنت: المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣، ص ٣٨٧.

مكان، وهو يأبى هذا ويصارع ذاك، يتلفت يمنة ويسرة علّة يجد فى النجاة بارقة أمل . . وكان قسطنطين قارب النجاة للكنيسة المسيحية والمسيحية . . فلم تلبث أن تعلقت به، بل وألقت بنفسها فيه جملة واحدة، بلا تردد، وبلا وعى، وفضلت أن تغوص فى القاع بدلا من أن يبتلعها اليم ، وأدرك قسطنطين بثاقب نظره كل ذلك . بل ولابد أنه كان يدركه كله قبلا، ومن ثم مد فى اللحظة الحاسمة يده لانتشال الكنيسة وقد أشرفت على الهلاك، وساعده على ذلك مجريات الأحداث، فحفظت له الكنيسة جميل أنعمه، ففرض هو عليها بالتالى قاهر إرادته.

لقد حاولت الحكومة الوثنية أن تستأصل شأفة الكنيسة المسيحية، فأخفقت فى ذلك، وكان النجاح حليف قسطنطين حين حاول أن يربط الحكومة الوثنية مع الكنيسة المسيحية برباط الصداقة(١٢٠).

فعندما اختار يوم الأحد عيدا أسبوعيا، أسماه يوم الشمس، وما زال حتى يومنا هذا يحمل الاسم نفسه Sunday، ولما اختار الصليب – كما تقول الرواية التى دبجها يوسيبيوس القيسارى مؤرخه ومداحه – شعارا لجنوده، تصوره فى هيئة لا تغضب الوثنيين، وهم كل جيشه، فجاء صليبه يضم الحرفين الأولين من اسم المسيح فى اليونانية. وهو شكل مألوف للوثنيين بحيث لم يثر أحد منهم ضده. والحرفان هما "الخى X " و "الرو. P." [خريستوس Christos] تجمع حوله بهذا قلوب المسيحيين فى الغرب – على قلتهم – ولم يغضب فى الوقت نفسه رعيته الوثنية، وجاء شكل صليبه نحو وضع الحرفين داخل بعضهما .

على أن الذى تجدر الإشارة إليه، ما يذكره مؤرخو الكنيسة من أن قسطنطين قد تناول سر المعمودية وهو على فراش الموت، ويعتبرون هذا دليلا واضحا على مسيحية قسطنطين، ويشايعهم فى ذلك عديد من المؤرخين المحدثين الذين يعتبرونه أول إمبراطور مسيحى، باعتبار أن الكنيسة لم تكن حتى القرن الرابع الميلادى وبعده تصر على إتمام طقس العماد خلال العام الأول من الميلاد، حتى تترك الباب

(١٢٠) بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥.

مفتوحا أمام من شاء من الوثنيين للدخول فى المسيحية، وليس أدل على ذلك من أن أشهر رجالات الكنيسة اللاتينية فى القرن الرابع الميلادى، القديس أمبروز Ambrosius أسقف ميلانو عندما وقع عليه الاختيار للمنصب الكهنوتى تبين أنه لم يكن قد تلقى سر المعمودية(١٢١). وبالمثل أيضا كان نكتاريوس Nectarius بطريرك القسطنطينية.

وتناول قسطنطين المعمودية على فراش الموت لا ينهض دليلا فى صف من ينادون بمسيحيته، بل على العكس من ذلك، فلا يصلح القول أن الرجل كان مسيحيا، بل يمكن القول - تجاوزا - أنه مات مسيحيا - وفرق كبير بين هذه وتلك؛ لأن الرجل بعد أن عُمّد - إذا صحت الرواية - لم يصبح بل مات!!.

وحتى لو سلمنا بفرض صحة هذه الرواية التى جرت بها أقلام مؤرخى الكنيسة، لنشأت مشكلة عقيدية لها خطورتها . . مفادها أن قسطنطين تلقى العماد على يد أسقف آريوسى - كما تلمح على استيحاء هذه الروايات نفسها - وتلك قضية أخرى.

(١٢١) للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع للمؤلف: الدولة والكنيسة - الجزء الرابع.

الفصل الرابع

المسألة الدوناتية

لم يكن قسطنطين يدرى حالة سمح لنفسه أن يرى فى الأفق ضياء وصليبا، أن وراء الأفق هذا يكمن الخطر، وما دار بخلده لحظة اتفق مع حليفه ليكينيوس فى ميلانو، أن يضعا عن المسيحية إصرها والأغلال التى كانت عليها، أن رجالات كنيستها سيحملون إلى جفنيه الأرق ويسلبون عينه الكرى، ولا أمل حين فك عقال عبادها أن أولئك الأشياع ستعصف بوحدتهم حرية الفكر والجدال، وذلك شىء يخفق له قلب الإمبراطور رعبا وهلعا، فوحدة الرعية أساس وحدة الدولة .

كانت دنيا الإمبراطور التى يحياها آنئذ غرب الإمبراطورية، والإمبراطورية كلها عالمه الذى يأمل . أما وهو الآن سيد الغرب فحسب بعد أن دحر منافسه ماكسنتيوس، فلا أقل من أن تكون الوحدة شاملة هذا الغرب .

فى سبيل ذلك حرر المسيحيين، ولم يضطهد الوثنيين، فضمن أن يقف إلى جواره فى مشروعات له آتية لا ريب فيها، عنصرا قاطنى جزء الإمبراطورية الغربى، إنه يتطلع إلى الشرق، وفؤاده يهفو إليه، ولابد أن يتراص الغرب كله وراءه يدفعه ويسانده، لا محل لخلاف أو نزاع، ولا مجال لفرقة أو انقسام .

ولكن قسطنطين انتقل إلى الشرق وترك وراءه غربا قد كلم، يئن لجراح انقسام ألمت به، ولم يستطع الإمبراطور إزاءها أن يفعل شيئا . حقيقة حاول الكثير، ولكن جهوده لم يقدر لها نجاح، ولم يكتب لها فى عهده إخفاق، بل كانت أشبه شىء بسياسة تهدئة . وصلت فى نهاية أمرها إلى حد العنف ثم هوت إلى لا شىء !

كان ذلك نتيجة طبيعية للسياسة الجديدة التى اتبعتها الدولة فى مسألة العقيدة، فلم يكن الأباطرة قبلا يهتمون بما يجرى بين جماعة المسيحيين وأنفسهم، بل كانت نظرتهم لهم كلية، تختلف من إمبراطور لآخر عداوة أو مسامحة، أما نزاعات المسيحيين العقائدية ومحاوراتهم الجدلية فلم يكن لها عند الدولة الوثنية قليل اهتمام،

أما وقد اعترفت الدولة الآن بحق المسيحيين فى حياة عقائدية حرة، فإنه أصبح لزاما عليها أن تنظر بعين الاعتبار إلى كل ما يجرى بين هذه الجماعة من جدل أو تخاصم قد يضر بالدولة مباشرة أو مواربة .

علمنا أن قسطنطين بعد ظفره عند القنطرة الملفية قد ضم إليه أقاليم خصمه ماكسنتيوس وبها ولاية أفريقيا، ثم شخص إلى ميلانو ليزف إلى ليكينيوس أخته، وليحالفه إلى حين، وعلمنا أيضا ما انتهى إليه تحالفهما من إطلاق حرية العقيدة لرعايا العاهلين الكبيرين، وبدا لقسطنطين أنه قد وضع فى جيبه ورقة ربح جديدة، ولكن سرعان ما جاءته الأنباء فى بادئ الأمر تمشى على استحياء تقول إن فى كنيسة أفريقيا انقساما، وتدعوه إلى تدارك الخطر، وما تلك إلا رسالة [1] بعث بها أنوللينوس حاكم الشمال الأفريقى متضمنة شكايات فريق الدوناتيين الذى كان على خلاف مع الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة والتى يرأسها كايكيليانوس آنئذ.

وربما كان قسطنطين على علم يسير مسبق بحدوث هذا الانقسام، كما يتضح من رسائله إلى نائبه فى أفريقيا وإلى أسقف قرطاجة [2]، ولكنه لم يكن يتصورها بهذه الخطورة التى ستعلن بها بعد ذلك بقليل عن نفسها .

وتعود بنا الأحداث إلى ذلك الوقت الذى اشتدت فيه وطأة الاضطهاد الدقلديانى عندما صدرت الأوامر الإمبراطورية بإحراق الكتب المقدسة، فاختلف موقف رجال الكنيسة من هذه التعليمات وتباين سلوكهم بين ستر وعلن، وهوادة وعنف . فبعضهم آثر حياة الحرمان والضياع فأسرى بما تحت يديه من أسرار الديانة المسيحية، وآخر استمع فى دهاء للنغمة الإمبراطورية فألقى فى النار كتبا أخرى تنعتها الكنيسة بالهرطقة . وثالث رافه آثر الحفاظ على العز والجاه فأسلم ما لديه للحريق من كتب مقدسة وأودع ما تبقى فى قلبه من إيمان معها قسرا أو طواعية، عندما سعى إلى الأوثان يضحى على مذبحها ، وأخيرا رفض الإذعان وناوأ جبروت السلطان فلقى الشهادة، وامتدت بالإنقاذ للقلة منهم يد السماء !

---

(1) Jones, Constantine, pp. 103-104 .

(٢) راجع الفصل الثالث .

وكان منسوريوس Mensurius أسقف قرطاجة معتدلا، فلقد فضل أن يتوارى ومعه الكتب المقدسة . تاركا فى كنيسته بعض كتب تخالفها الكنيسة الرأى لتستولى عليها السلطات الحاكمة إرضاء لرغبات الإمبراطور، وعلى ناحية يقف سكوندوس Secundus أسقف تيجيسيس Tigisis مطرانية نوميديا، يعارضه الرأى ويستهجن هذا السلوك، وبينما لام الأول من دفعوا أنفسهم إلى ساحة الشهادة بإعلانهم أن فى حوزتهم كتبا مقدسة رافضين تسليمها، مدح سكوندوس هذه الفئة ممجدا استشهادها [٣] . وكان موقفه حازما تجاه موظفى البلاط الذين أتوه يطلبون إليه تسليم ما لديه مما يبتغون، فصاح فيهم بأنه مسيحى وليس مارقا عن الدين [٤].

وانقضت سنو الاضطهاد بقسوتها وعنفوانها، وساد الكنيسة سلام ولكن خلافات العقيدة والكنيسة أبت ألا تعكر صفو هذا الهدوء الذى تمنته الكنيسة طيلة قرون ثلاثة فازدادت حدة الخلاف بين حزبى منسوريوس وسكوندوس، وأخذ كل منهما يحدد موقفه إزاء من زلت فى الخطيئة أقدامهم إبان فترة الاضطهاد، فقربوا الأوثان، أو دفعوا بالكتب المقدسة حتى يرفعوا عن أنفسهم الموت أو العذاب . وقد احتدم الخلاف حول جواز تعميد الطغاة وقبولهم فى رعية الكنيسة .

ويقر القديس أوغسطين مع ذلك الدوناتيين على ضرورة العماد لديهم كما هو حادث فى الكنيسة الكاثوليكية، ولكن ينكر عليهم مراسيمه . وإن طالب المعمودية عليه أن يعى حقيقة الخلاف بين وجهتى النظر حتى يتم تعميده على نحو سليم يتوافق وطقوس الكنيسة الجامعة ويستقيم جوازه [٥] . ونرى أوغسطين يستطرد مؤكدا " .. فالعماد قائم فى الكنيسة الكاثوليكية . . هذا ما نجهر به وهم له منكرون، وطقوس العماد فى الكنيسة الكاثوليكية على نهج قويم . . ذلك شىء آمنا به وهم به كافرون، أما عندهم فلا تحظى مراسيمه بالصواب فى شىء، تلك حقيقة نعيها وهم عنها معرضون " [٦] .

---

(3) S.M.Jackson. The new Schaff-Herzog encydopedia of religious knowledge, III; F. Jackson. op.cit. pp. 190-

(4) Jones, Constanine, p. 105.

(5) AVG, bapt. I, 4.

(6) Ibid. 1, 3, 4.

" وإذا ما أخفق إنسان فى التوفيق بين إصرارنا على أن العماد لا يتم على حق اليقين عند جماعة دوناتوس، وبين اعترافنا بأنه قائم بينهم فعليه أن ينتبه إلى أننا ننكر تماما وجوده بينهم على نهج قويم، وذلك فى مقابل عدم اعترافهم بكيانه بين الذين لا يشتركون فيه وإياهم " (٧).

وكانت المسألة فى جوهرها تمس شخص من يقوم بالشعيرة، وتصل إلى أغوار خلقه، وتوغل فى صلاحه، ونادى الدوناتيون بأن من يفتقد الطهارة والقداسة لا يمنحها، ونظروا إلى الاضطهاد كما لو كان قد طبعهم بميسم الكنيسة الحقة الواحدة، يقفون والضد من الكنيسة الكاثوليكية، أما هذه فتفرق بين فريقين من الخارجين عليها، الهراطقة، والمنشقين، وتعتبر الدوناتين فصلا فى الأخيرين، وإن كانت تنعى عليهم تعليمهم لبعض التعاليم الهرطقية (٨) . واحتج الدوناتيون على وضعهم فى عداد الهراطقة، ذلك أنه يمكن القول إن كل الهراطقة منشقون على الكنيسة . . فى الوقت الذى لا يجوز فيه اعتبار كل الانشقاقات الكنسية هرطقة (٩). إذ إن الانشقاق يقع لخلاف فى النظام الكنسى أو التعاليم . . على عكس الهرطقة التى تمس جوهر العقيدة .

ومما هو جدير بالذكر، أنه بينما غرق الشرق الرومانى فى لجة عميقة من الصراع الدينى حول طبيعة المسيح، واكتسى بحلة الجدال قرونا طويلة، أفلت الغرب من دائرة هذا النزاع الفكرى العميق العقيم، وحصر نفسه وخلافاته فى دائرة البحث عن وضع أسس التنظيمات الكنسية . ولا شك أن هذا يعود فى الدرجة الأولى إلى التكوين الحضارى والفكرى لكل من المنطقتين، فقد ازدهرت مدن الشرق وخاصة الإسكندرية وأنطاكية وبرجامة إلى جانب أثينا، بالمدارس الفلسفية العديدة، والثقافات الإغريقية. بالإضافة إلى الأصول الحضارية القديمة للشرق الهلنستى، بينما خلا الغرب الرومانى من مثل هذه المدارس الفلسفية .

(7) Ibid. 4.

(8) S.M. Jackson, op. cit. Art. Donatism.

(9) A dictionary of Christian biography, art/ Donatism.

على هذه النظرة كانت المشكلة بين الدوناتيين وخصومهم تنحصر فى صلاحية أو شرعية الأعمال الكهنوتية التى يقوم بها غير المقدسين أو غير الثقاة من رجال الأكليروس ذاتهم، وبينما أصر الدوناتيون على أن صلاحية الطقوس الكنسية تعتمد على أخلاق وشخصية رجل الأكليروس القائم [١٠] . لم تطلب الكنيسة الكاثوليكية القداسة فيمن يباشرون المعمودية، فكل رجل دين سواء [١١] .

ويوقفنا المؤرخ نورمان كانتور على أسباب هذا النزاع ويعلق عليه فيقول أنه لما كان زمن الاضطهاد الدقلديانى سلك حاكم ولاية أفريقيا جادة اللين، فطلب إليهم أن يقدموا، رمزا لنكران العقيدة، الكتب المقدسة فارتضى ذوو اليسار المسيحيون هذا الرأى، فلما انقشعت غمة هذا الاضطهاد، ألفى هذا الفريق نفسه وقد وصم بالعار مارقا على الدين من جانب زمرة من المتحمسين غالبهم يندرج فى عداد الطبقات المعدمة، راحت تحاج بأن القديسين الأطهار، ولم يصب إيمانهم دنس، هم وحدهم عمد الكنيسة، وأشاع الدوناتيون المطهرون أن المارقين قد فقدوا أهليتهم ومسيحيتهم لذلك، وراحوا ينادون بحتمية إقامة المعمودية على يد قسيسين شفافى النفوس، هذا وأكدت الكنيسة الكاثوليكية حجية التبعية الإكليركية سندا لحسن المعمودية، لا السجايا والخلال . ذلك الخلاف . كنيسة للأطهار، والكنيسة الجامعة[١٢].

وهكذا فالدوناتية فكرة تجادل تقليد الكنيسة الكاثوليكية هذا، وكانت مدعاة للشقاق داخل الكنيسة هذه، وهى تمثل تحديا لاتجاه بدأت المعمودية بمقتضاه تنتقل على مر الوقت إلى محفل من البشر ينتظم مختلفا أخلاقيا مقدمة للخلاص الحق وسيطا هو الفضيلة، غير أن هذه الفكر الدوناتية ووجهت بمدافعة كاثوليكية تصر على طقس العماد فى حد ذاته بعيدا عن ممارسيه، وتفصل فصلا تاما بين طهارة الكنيسة وقداسة رجالها .

على هذا النحو راحت هوة الخلاف تتسع بين الكنيسة الكاثوليكية والخارجين

(10) Latourette, expansion of Christianity, I, p. 348.

(11) McGiffert, op. cit. p. 380 n. 16.

(12) Cantor, op. cit. p. 49.

عليها، ألا أن ذلك كلة لم يعد خلافا فى الرأى . وكان لابد من حادثة بعينها تفجر الصراع وتنقله إلى حيز الواقع العملى، وما لبثت الأحداث أن قذفت بشراكها عندما التقط الموت منسوريوس أسقف قرطاجة عام ٣١١ وثار الخلاف من بعده عمن يلى منصبه الشاغر [١٣].

اتجهت أنظار الكنيسة الكاثوليكية إلى رئيس شمامسة كايكيليانوس Caecilianus وكان ساعد منسوريوس الأيمن وعضده فى معارضته لمسلك أشياع كنيسة القديسين، كما كان شديد التحمس لمبادئ الاعتدال فى النظام الكنسى[١٤] . وكانت العادة قد جرت على أن يحضر مندوبون عن كنائس نوميديا للمشاركة فى اختيار أسقف قرطاجة [١٥]. ولكن أساقفة الفريق الكاثوليكى تغاضوا عن هذا العرف، وأقدموا فى شيء من العجلة على اختيار كايكيليانوس للأسقفية[١٦]، ويمكننا أن نعلل سلوكهم هذا بعلمهم أن أسقف تيجيسيس لن يوافق على مثل هذا الاختيار، فقد كان سكوندوس ومنسوريوس على طرفى نقيض، ولما كان كايكيليانوس تلميذا لمنسوريوس فقد كان من البديهى أن يكون سكوندوس ورجال كنيسته أول المعترضين على اختياره لهذا المنصب . ومن ثم أرادت كنيسة قرطاجة أن تضع خصومها أمام الأمر الواقع .

من هنا عمد رجال الأكليروس فى قرطاجة إلى سرعة إتمام إجراءات اختيار كايكيليانوس، وقد قام بهذا العمل ثلاثة من أساقفة المدن المجاورة هم فيلكس Felix أسقف أبتونجا Aptunga ونوفللوس Novellus أسقف تيزيك Tyzicum وفاوستينوس Faustinus أسقف توبوربو Tuburbo . وتولى سيامته فيلكس Felix الأبتونجى [١٧] . وكانت كنيسة نوميديا قد أرسلت من لدنها مندوبين

(13) Palanque-Bardy-
jours III, p. 42; F. Jackson, op. cit. p. 291.
(14) McGiffert, op. cit. p. 391 n.20.
(15) S.M. Jackson (op. cit. III, art. Da\onatism; Hefele, op. cit. I, 1, p. 266.
(16) Jones, Constantine,p.106;Duchesne, Histoire ancienne de l'egise, II, p. 106-107.
(17) Palanque-Bardy--Labriolle, op. cit. III, p. 42; Lietzmann, op. cit. p. 84.

لحضور مراسم الاختيار، وكان بين هؤلاء الرسل دوناتوس Donatus أسقف مدنية Casae Nigrae [١٨] . وهو غير دوناتوس الكبير الذى يتولى الأسقفية بعد ماجورينوس أول أساقفة هذه الطائفة . والذى يرجح أن تكون الطائفة قد اشتقت منه اسمها [١٩] . وإن كان من العسير حقيقة أن نجزم لأى من الرجلين تنسب [٢٠].

ألفى أساقفة نوميديا أنفسهم وقد خرج الأمر من أيديهم، فتملكهم الغضب وراحوا يبحثون عن سبيل ينفذون منه لتحقيق أغراضهم، ولما لم يجدوا فى شخص كايكيليانوس ثلمة تمكنهم من مهاجمته وتجريحه، أشاعوا أن الطريقة التى تم بها اختياره جرت على نهج سقيم، فقلة من الأساقفة فقط هم الذين اختاروه لهذا المنصب، ولكن هذا لم يكن شيئاً إلى جوار الاعتراض الآخر القائل بأن فيلكس مارق، لما أتاه إبان فترة الاضطهاد [٢١] . وعليه يغدو رسم كايكيليانوس غير ذى صلاحية . وقد حاول أسقف قرطاجة الجديد تهدئة خواطر الفريق المضاد، فعرض عليهم أن يمر من جديد بعملية رسم ثانية . ولكن أساقفة نوميديا رفضوا بالطبع هذا الملتمس، ولجوا فى عنادهم [٢٢] . والتأموا فى مجمع عقدوه فى قرطاجة ضم سبعين أسقفاً، قرروا فيه عدم الاعتراف بشرعية اختيار كايكيليانوس أسقفاً وعزله، وقاموا برسم أسقف جديد يدعى ماجورينوس [٢٣]، ثم قام المجمع بإرسال رسالة إلى جميع أساقفة أفريقيا يطلعهم فيها على ما تم إجراؤه [٢٤]، وهكذا انقسمت كنيسة قرطاجة إلى حزبين متضادين أحدهما معتدل يمثل الكنيسة الكاثوليكية، ويتزعمه كايكيليانوس والآخر يمثل كنيسة القديسين ويرأسه ماجورينوس Magorinus .

وعلى مدى عامين من وقوع هذه الأحداث استفحلت شقة النزاع بين الجانبين،

(18) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(19) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III. 43; Hefele, op. cit. I, 1, p. 270.
(20) A dictionary of Christian biography, art. Donatism.
(21) Ibid. MsGiffert, op. cit. p. 280 n. 16.
(22) Lietzmann, op. cit. p. 84.
(23) Id.
(24) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 42.

وراح كل فريق يجذب إلى صفه الأنصار، وينادى بأنه على الحق المبين، وتلك كانت الصورة التى أضحى عليها الشمال الأفريقى غداة انتصار قسطنطين على " طاغية روما " سنة ٣١٢ . وإنه لجدير بالملاحظة أن سيد الغرب كان على علم بهذا الانقسام الذى أمست فيه الكنيسة الأفريقية، ويتضح ذلك من أنه قصر أعطياته ومنحه على الجانب الذى أخبر أنه على الحق، وهو الكنيسة الكاثوليكية (٢٥) . وكان المصدر الذى استقى منه الإمبراطور هذه الإيضاحات هوسيوس أسقف قرطبة (٢٦) . ولكن قسطنطين لم يكن يدرى حقيقة النزاع فى الشمال الأفريقى، فلا هو أحيط علما بفحوى الجدل، ولا كان على بينة من طبيعة الخلاف، وظل الإمبراطور هكذا إلى أن جاءته المكاتيب من الفريق الدوناتى تخبره حقيقة الأمر (٢٧) . وفى الحقيقة يبدو أن الدوناتيين كانوا يحتجون على القرار الذى اتخذه قسطنطين بلفظهم خارج دائرة الهبات الإمبراطورية التى أنعم بها قسطنطين على الكنيسة (٢٨) .

غير أن شيئا آخر لابد وأن يكون دافع الدوناتيين فى احتجاجهم لدى قسطنطين ولنبحث عن هذا الشىء عند الإمبراطور ذاته . ففى رسالته إلى كايكيليانوس، والتى يحدد فيها مبلغا من المال للكنائس (٢٩) . اختتم قسطنطين هذه بقوله :

لما كانت مسامعى قد صكتها أنباء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصرف الجموع عن الكنيسة المقدسة الجامعة، بخزى المزاعم ودنسها، حق أن تعلم أنى قد زودت أنوللينوس البروقنصل، وباتريكيوس Patricius نائبه، عندما كانا فى حضرتنا، بأوامر فحواها أنه إلى جانب كل مسئولياتهم الأخرى، عليهم أن يبذلوا لهذا الأمر فائق عنايتهم، وأن لا تغفل للحظة أعينهما عن تدارك أى حدث، وعليه . فإن عاينت أناسا ماضون فى عتههم، فاشخص على التو إلى

(25) EVSEB, hist. Eccl. X, 6-7.
(26) Jones, Constantine, p. 81.
(27) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 42.
(28) C.A.H. XII, p. 692.

(٢٩) راجع الفصل السابق

موظفينا هذين، وأجل لهما القضية، فيسلكان معهم حسب رأيى، وليحفظك لأهوب الرب العظيم سنين عددا (٣٠) .

واضح من مقتطف رسالة قسطنطين انحيازه إلى جانب واحد دون أن يتحقق فحوى القضية، وهو فى اتخاذه جانب الكنيسة الكاثوليكية يفصح عن مدى وحى ذلك الأسقف الأسبانى إليه . وسلوكه سبيل العنف إزاء فريق لم يسمع بعد شكايته، تعطينا معنى واحدا لسياسته، ذلك أنه لم يكن يسمح بحدوث أى صدع فى رعية تملك زمام أمرها البارحة . وهذا هو ما يجعلنا نميل إلى القول إنه بالإضافة إلى حرمان الفريق الدوناتى من الهبة الإمبراطورية فإن إحساس هذا الفريق بميل دفة الدولة إلى خصومه دون تقص للحقيقة أو تمحيص، جعله يبعث إلى الإمبراطور ملتمسا .

كان رجاء الدوناتيين إلى الإمبراطور يتضمن الطلب بتعيين أسقف من غالة لنظر القضية، فالدوناتيون لم يلجأوا للبابا مباشرة لعلمهم أنه رأس الكنيسة الكاثوليكية، وإن لم تكن البابوية بعد قد حققت سموا فى المرتبة، وعلى ذلك فهو يخالفهم الرأى(٣١)، ولكنهم لجأوا إلى الإمبراطور رأس الدولة، ولكن لا ليفصل هو بنفسه بينهم، بل ليكل القضية برمتها إلى أحد الأساقفة الغاليين ضمانا للحيدة . ذلك أن غالة لم تكن قد قاست كغيرها من ولايات الإمبراطورية أثناء الاضطهاد (٣٢) . ويعلق المؤرخ جونز على ذلك بقوله : " إنه لمما يجدر ذكره أن الأساقفة المنشقين لم يلجأوا إلى قسطنطين بكونه هو نفسه مسيحيا، فربما لم تكن هذه الحقيقة المفزعة قد حازت بعد الثقة فى أفريقيا (٣٣).

على أن ما يعنينا من هذه الحقيقة أن تلك كانت المحك الأول فى علاقة الدولة بالكنيسة بعد التسامح . وكانت سابقة خطيرة فى تاريخ الكنيسة إذ عدت دعوة صريحة للتدخل فى شئونها الداخلية (٣٤) . لقد كانت الكنيسة طوال القرون

(30) EVSEB, hist. Eccl. X, 6.
(31) Davis, op. cit. p. 16; Duchesne, op. cit. II, p. 109.
(32) Leitzmann, op. cit. p. 85.
(33) Jones, Constantine, p. 104.
(34) Backhouse, Early Church history to the death of Constantine, p. 372.

الثلاثة الماضية قد أغلقت على نفسها باب خلافاتها الداخلية وعقدت المجامع المكانية العديدة لمعالجة الانشقاقات أو لعن الهرطقات . ولم تكن الدولة تدرى من أمر ذلك الاصطراع الداخلى بين المسيحيين وأنفسهم شيئاً، بل لم يكن يعنيها فى شىء البتة. أما الآن، وقد أصبح على رأس الإمبراطورية حاكم يظهر ميله تجاه المسيحية، فلا عجب إذا رأينا الكنيسة تسعى إليه، تعرض عليه خلافاتها، وتضع أمامه ما يعتمل فى داخلها، وتطلب إليه الرأى . وكان قسطنطين ذكياً غاية الذكاء، أراد أن يرسى من البداية ثابت القواعد فى هذه العلاقة حتى يستطيع أن يسير أمور دولته بما فيها الكنيسة، حسب إرادته ووفق صالحه . وكانت تلك الفرصة جاءته على غير توقع، فاستغلها بغير انتظار . ومنذ هذه اللحظة وحتى منتصف القرن الخامس عشر، عندما دالت الدولة البيزنطية، لم يتخلف إمبراطور واحد من السير فى الطريق الذى حدد معالمه منذ البدء قسطنطين وارتبطت أمور الدولة بشئون الكنيسة، وهذه بتلك، حتى أصبح من الصعب أن نفصل بينهما، وقد لمس هذه الحقيقة حتى فى فترة مبكرة، سقراط مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس الميلادى، حيث يقول : " إذا ما ساد الاضطراب أمور الدولة، عمت الفوضى شئون الكنيسة، وكأن انجذاباً روحياً يربط بينهما " .

الدوناتيون إذن يرغبون فى الاحتكام إلى أسقف غالى، وقسطنطين يبتغى إثبات ذاته فى القضية وسطوته للوهلة الأولى، فعهد بفض النزاع إلى البابا فى روما واشترك معه ثلاثة من أساقفة غالياً . وبعث برسالة إلى أسقف روما ضمنها عدة معان :

" قسطنطين أوغسطس إلى ملتيادس Miltiades أسقف روما ، وإلى مرقس[٣٥] Marcus، حيث أن رسائل عدة قد أتتنى من أنوللينوس العظيم، بروقنصل أفريقيا، يتبدى فيها أن كايكيليانوس أسقف قرطاجة قد وجه إليه من الاتهامات الكثير من جانب زملائه فى أفريقيا، ولما كان الأمر يبدو لى جد خطير، حيث أنه فى هذه الأقاليم التى وضعت العناية الإلهية ثقتها فى إخلاصى لإدارتها،

(٣٥) شخصية غير معروفة وربما كان مساعدا لملتيادس المسن.

راجع: Jones, Constantine, p. 107.

وحيث أنها منطقة بالأهلين آهلة . سوف يجد الناس أنفسهم فى حالة من الشقاق، وفى حال من الكآبة دائم، والأساقفة فيما بينهم منقسمون، ولذا قررت أن يبحر على الفور إلى روما كايكيليانوس وبصحبته من الأساقفة عشرة يرى من المناسب تواجدهم لقضيته وعشرة آخرون ممن يبدون له الاتهام، فهناك يمكن سماع أقواله بما تجده يتناغم وجلال القانون المهيب . وذلك فى حضرتكم وزملائكم رتيكيوس Reticius [٣٦]، وماتريوس Materius [٣٧] ومارينوس Marinus [٣٨] الذين أمرتهم بالإسراع إلى روما لذات الغرض . وحتى تكون على علم تام بهذه الأمور فقد ضمنت رسالتى نسخا من الوثائق التى بعث بها إلى أنوللينوس، وأرسلت، منها صورا كذلك إلى زملائك المشار إليهم، وحالة تسلمك إياها يمكنكم نظر هذه القضية بعناية والفصل فيها بالعدل، حيث لا يخفى على فطنتك أنى أكن كل إجلال للكنيسة الكاثوليكية الشرعية، ولى كبير الأمل أن لا تخلفوا وراءكم أى صدع أو انقسام، ولتحفظك يا سيدى العزيز عناية الإله العظيم أعواما طوالا "[٣٩].

من هذه الرسالة يتضح لنا مدى الدور الذى لعبه قسطنطين فى أول اتصال مباشر بين الكنيسة والدولة، فهو الذى اختار القضاة وعين مكان التقاضى وزمانه، وحدد عدد المتقاضين من كلا الحزبين، ورسم الخطوط العامة لسير القضية، وأوحى إلى القضاة بمنطوق حكمهم عندما أعلن فى رسائله إليهم أن قلبه يحمل كل الاحترام " للكنيسة الكاثوليكية الشرعية " . حقيقة لقد كان قسطنطين يتفق أساسا والرأى القائل به هوسيوس عن الحالة فى أفريقيا من اعتبار خصوم كايكيليانوس مردة منشقين، وكان شديد الاقتناع بما ينطوى عليه الانشقاق من أخطار وبلاء، وظل هذا الاقتناع قرين فكره حتى يوم رحيله إلى عالم الموتى . ولكنه من ناحية أخرى أقدم الآن على خطوة مستقلة، واتجاه قضائى فى مسألة الفريق الذى أحدث

---

(٣٦) أسقف Auton فى غالة. ويخبرنا جيروم أنه كتب تعليقا على نشيد الانشاد وأخرج عملا ضد النوفاتيين راجع. HIER. Vir. Ill. 82.

(٣٧) أسقف كولون.

(٣٨) أسقف أرل. راجع. McGriffert, op. cit. n. 23, 24 p. 381.

(39) EVSEB. Hist. Eccl. X, 5.

الشقاق، وقرر من عندياته وجوب فحص القضية . فاختار القضاة، ودعا الفريقين، وكانت رسالته إلى ملتيادس تحمل فى طياتها نغمة تفيض " مكتبية "، لقد كانت حسب تعبير جونز أشبه شيء بمذكرة بعثت إلى موظف مدنى " (٤٠) !! وليس أدل على صحة هذا القول من أن قسطنطين قد وجه رسالته إلى ملتيادس وآخر يدعى مرقس على قدم سواء، ولا ندرى من هو مرقس هذا، وربما كان أحد مساعدى البابا، ولكن ذكره مع البابا قرينا يدل على مدى النظرة التى ينظر بها الإمبراطور إلى رأس الكنيسة الكاثوليكية الشرعية " التى يكن لها كل إجلال " !!.

شيء آخر يجذب الاهتمام، ذلك أن قسطنطين يبنى انزعاجه لهذه الأحداث على شيئين جاءت بهما رسالته، فتلك مناطق عهدت إليه بحكمها عناية الرب القدير، وهذه نغمة ألفناها من قبل، وهى أيضا أقاليم قد غصت بالسكان، واختلاف أساقفتها فيما بينهم سيجر بالتالى إلى تحزب الأهالى إلى أى الفريقين . وتلك نقطة على جانب كبير من الأهمية . فقسطنطين كان قد فرغ لتوه من حملته على الراين لتأديب قبائل الفرنجة هناك . وأصبح السلام فى غالة مستقرا بعد ذلك لفترة طويلة(٤١) . والإمبراطور يعد لجولة جديدة فى الشرق . فلا أقل إذن من أن يضمن هدوء هذه المنطقة التى خضعت له حديثا حتى ينصرف لإنجاز المرحلة التالية من مشروعه الكبير، خاصة وأن هذا الإقليم " الآهل بالسكان "، على حد قوله، يمكن الاعتماد على رجاله الأشداء فى قابل الأيام . فإذا ما أدخلنا فى اعتبارنا أن قمح روما كان يأتيها من شمال أفريقيا (٤٢)، وأن حدوث أى اضطراب فيها يمكنه أن يحرم روما أقواتها، أدركنا لماذا كان قسطنطين حريصا أشد الحرص على استتباب الأمن والنظام، وفوق هذا وذاك وحدة الدولة .

اجتمع الأساقفة فى روما فى ٢ أكتوبر ٣١٣ (٤٣)، لا بالطريقة التى أرادها قسطنطين، ولكن بالصورة التى ارتآها البابا ملتيادس، والتى جرت عليها الكنيسة

---

(40) Jones, Constantine, p. 108.
(41) C.A.H. XII, p. 69.
(42) Jones, Later Roman Empire II, p. 828.
(43) Backhouse, op. cit. p. 373.

قبلا فى بحث مثل هذه المسائل التى تهم الكنيسة عقيدة أو تنظيما . ولم يشأ قسطنطين أن يعترض على إجراء البابا لعلمه التام أن ذلك لن يغير من الأمر شيئا، وإنما هو إجراء شكلى ارتضته الكنيسة . فلا ضير من اتباعه . فقد قام ملتيادس بتحويل ذلك المجلس الإمبراطورى إلى " مجمع كنسى " بعد أن ضم إلى أعضائه خمسة عشر أسقفا من كنائس إيطاليا المختلفة (٤٤) فى ريمنى وفلورنسة وبيزا وكابوا وبنفنتو وتراكينا (٤٥) . وبحث المجمع القضية المطروحة أمامه، وفى النهاية تمخضت مناقشاتهم عن تبرئة ساحة كايكيليانوس من التهم التى وجهت إليه ورفض دعوى الفريق الدوناتى (٤٦) .

ومن رسالة قسطنطين إلى أسقف سيراكوز نتبين أن الدوناتيين لم يقبلوا قرار مجمع روما، محتجين بأن أعضاءه لم يفحصوا القضية على الوجه الصحيح، وأنهم تعجلوا فى إصدار حكمهم، فى هذه الرسالة شرح الإمبراطور للأسقف الأمور من بدايتها وأطلعه على سير الأحداث منذ اللحظة التى وصلته أنباء هذا النزاع ، قال :

" ولما كان البعض فى خبث وزيغ قد أفسح للشقاق بينهم مكانا، فيما يتعلق والعبادة الطاهرة، وقوة السماء، والعقيدة الجامعة، حدتنى الرغبة فى أن أحسم هذا الجدل، فأصدرت أمرى بأن يجىء من غالة بعض أساقفة، وأن يستدعى من أفريقيا الحزبان المتنازعان دوما وعنادا . ففى مثولهم وحضرة أسقف روما يمكن فحص داعية ذلك الاضطراب بعناية فائقة . ولكن الذى حدث أن بعضا قد تناسى خلاصه والتوقير الخليق بالعقيدة المقدسة، فلم يضع للعداوة حدا، ولم يمتثل لحكم سبق صدوره، وزعم أن أولئك الذين أدلوا بفكرهم وقراراتهم كانوا قلة، أو أنهم كانوا على عجلة من أمرهم فأصدروا حكمهم قبل أن تفحص بدقة أمور غاية فى الأهمية. من أجل هذا فإن هؤلاء الذين كان من الحتم تشبثهم بالأخوة والوئام، أمسوا، ويا للعار والشناعة، على أنفسهم منقسمين، وغدوا أضحوكة رجال أرواحهم عن

(44) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. p. 45.

(45) Lietzmann, op. cit. p. 86.

(46) Hefele, op. cit. I, 1, p. 273; Duchesne, op. cit. II, p. 122.

العقيدة المقدسة بعيدة . لذلك يبدو لى ضروريا أن هذا الانقسام، الذى كان من الواجب توقفه نتيجة القرار الذى سبق لجماعة اتخاذه بمحض اختيارهم، يتعين على الفور، إذا كان ذلك ممكنا، شجبه بحضور الكثيرين " (٤٧).

وأول شىء نلمسه فى نبرات قسطنطين رنة الأسى والحزن تتملكه وتسيطر عليه فى كثير من فقراتها، وما ذلك إلا لخشيته من انقسام قد يودى بجهوده ويحطم آماله . وعبارة قسطنطين الأخيرة دالة على ذلك، فرغبته الجامحة فى وضع حد لهذا النزاع " على الفور " تفصح عن مدى قلقه وهلعه . فنحن الآن فى عام ٣١٤، وإذا علمنا أن الإمبراطور قد وجه الدعوة إلى أساقفة الغرب لعقد اجتماع جديد فى مدينة آرل Arles قبل نهاية أغسطس، وأن الحرب الأولى بينه وبين حليفه ليكينيوس قد نشبت فى أكتوبر (٤٨)، وأنه كان يعلق على هذه الحرب أهمية بالغة لما يبتغيه من ضم أقاليم جديدة غنية باقتصادها والرجال (٤٩)، أدركنا لماذا كان قسطنطين يذوب رعبا لأنباء هذا الانقسام الأفريقى، ويتحرق شوقا لرأب ذلك الصدع فى صفوفه الخلفية . فما كان له أن يواجه عدوه وظهره بسهام الفرقة تطعن!

لهذا كتب الإمبراطور فى رسالته السالفة يقول :

" لما كنا قد أمرنا بأن يجتمع فى مدينة آرل الأساقفة من مختلف المناطق، وذلك قبل نهاية أغسطس، فقد رأيناه مناسبا أن نكتب إليك أيضا لكى تحصل من العظيم لاتورنيان Latornianus والى صقلية على عربة عامة مصطحبا معك اثنين من ذوى الرتبة الكهنوتية الثانية . يقع عليهما اختيارك مضيفا إليهم ثلاثة من الخدم ليقوموا على راحتك طوال رحلتك . واسع جاهدا لتكون فى المكان المحدد قبل الميعاد المضروب، ونحن على يقين أنه بحزمك وحكمة الباقين وائتلافهم سوف يحسم هذا الشقاق، ذلك الذى لا زال بشكل معيب قائما، وما جلبه إلا جدل مخجل .

---

(47) EVSEB. Hist. Eccl. X, 5.
(48) Gibbon, op. cit. I, p. 464.

(٤٩) راجع الفصل الثانى .

فليصغ كل لما يدلى به الحزبان المتنازعان، وليع ذلك أيضا من أمرناهم بالحضور، ولينته الأمر وفق الإيمان الأمثل، وليعد من جديد أخوى الوئام . متعك بالصحة سنين عددا إله مقتدر " (٥٠) .

وإلى أرل، ومن كل بقعة يمتد إليها فى الغرب سلطان قسطنطين توافد الأساقفة (٥١) لحسم هذا الجدل، وإعادة النظر فيما سبق أن قرره مجمع روما، ويعلق نورمان بينز Norman H. Baynes على ذلك بقوله " لم ترفع الكنيسة صوتها معترضة على مراجعة القرار الرومانى والذى صادقوا عليه بكامل حريتهم"(٥٢) .

كان مجمع آرل الخطوة الثانية التى أقدم عليها الإمبراطور للخلاص من هذه المشكلة بعد أن أخفقت خطوته الأولى فى ذلك . وإذا كان قسطنطين قد فوض المسألة فى أول الأمر إلى ثلاثة من أساقفة غاليا، يترأسهم أسقف روما الذى أضاف إلى المؤتمرين خمسة عشر أسقفا إيطاليا، فإنه فى هذه المرة قد وسع دائرة قضائه حتى يكون الحكم الذى يصدر عنهم عاما وشاملا ونهائيا . فمجمع آرل إذن يمثل من هذه الزاوية " العالمية " . ولكن فى النطاق الذى يسيطر عليه قسطنطين وهو نصف الإمبراطورية الغربى (٥٣) . وقد حرص الإمبراطور على إبراز هذه الناحية فى رسالته مرتين فى قوله " يتعين على الفور إذا كان ذلك ممكنا، شجبه (الانقسام) بحضور الكثيرين " والأخرى عندما ذكر أنه أمر " أن يجتمع فى مدينة آرل الأساقفة من مختلف المناطق " .

وفى أول أغسطس ٣١٤ اجتمع فى آرل ثلاثة وثلاثون أسقفا (٥٤) . ومع أن الحاضرين لم يقصروا نشاطهم على المسألة الدوناتية فحسب (٥٥)، إلا أن هذه هى

(50) EVSEB. Hist. Eccl. X, 5.
(51) C.A.H. XII, 693.
(52) C.A.H. XII, 693.
(53) Hefele, op. cit. I,1, p. 277.
(54) McGiffert, op. cit.p. 382 n. 32; Palanque-Bardy-Labriolle, op. cit. II, pp. 46-47.
(55) Lietzmann, op. cit. p. 88; Hefele, op. cit. I, 1, pp. 280-295.

التى تعنينا هنا، وقد قرر المجمع تبرئة ساحة فيلكس وكايكيليانوس من التهم التى وجهها الدوناتيون (٥٦)، وأيد الحكم الذى أصدره قبلا مجمع روما . وكان ذلك بالطبع يعنى إدانة الدوناتيين ثانية (٥٧) . وأرسل المجمع تقريرا عما دار فى جلساته وصورة من قراراته إلى البابا سلفستر حتى يمكن نشرها فى مختلف الكنائس (٥٨) .

قرت عين قسطنطين بما قر عليه رأى المجمع، وهيئ له أن حكما اشترك فيه أساقفة الغرب اللاتينى على هذه الصورة من الإجماع لقمين بأن يردع الدوناتيين ويعيد الوحدة والسكينة إلى هذه المنطقة، وما لبث قسطنطين أن هاجم أراضى حليفه ليكينيوس سنة ٣١٤ ولم ينته العام حتى كان قد حقق انتصارات رائعة ضم بها كل ما فى حوزة ليكينيوس فى أوروبا عدا تراقيا . فحقق بذلك بعض حلمه، وراح يستعد لجولة جديدة وأخيرة يقفز بها عبر البسفور إلى جناح الإمبراطورية الشرقى، ولم يكن قسطنطين يتصور أن مسيحيى أفريقيا سيقتحمون عليه هدوءه ثانية بعد مجمع آرل . غير أن الأحداث سرعان ما خيبت فأله وجاءته بما لم يكن يتوقع أو يهوى، ذلك أن الدوناتيين رفضوا الانصياع لقرارات المجمع الأخير، وسلكوا هذه المرة مسلكا مخالفا، إذ لجأوا إلى الإمبراطور ذاته يطلبون قراره الشخصى فى هذا النزاع (٥٩) .

وجد قسطنطين نفسه إزاء موقف جديد تماما . فالدوناتيون قد رفضوا لمرتين على التوالى حكم رجالات الكنيسة، وهاهم الآن يحتكمون إلى الإمبراطور طالبين إليه نظر قضيتهم بنفسه، ولم يقبل قسطنطين ذلك بداءة، ولم يرفضه فى الوقت نفسه جملة، بل ظل مترددا لفترة طويلة بين الإقدام والإحجام (٦٠)، غير أنه فى نهاية الأمر قرر إجابة ملتمسهم ونظر قضيتهم . فدعا الحزبين للمثول بين يديه فى روما سنة ٣١٥ حيث كان الإمبراطور يحتفل بمرور عشر سنوات على حكمه(٦١)،

(56) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(57) Jones, Constantine, p. 112.
(58) Lietzmann, op. cit. p. 89.
(59) C.A.H. XII, p. 693, Hefele, op. cit. I, 1, p. 296.
(60) Id.
(61) Lietzmann, op. cit. p. 90; Hefele, op. cit. I, 1, p. 297.

فلبى الدوناتيين الدعوة ولكن كايكيليانوس لم يظهر (٦٢) فوجدها الدوناتيون فرصة سانحة لإصدار حكم غيابى ضد أسقف قرطاجة، واستعدوا لمغادرة المدينة، ولكن قسطنطين اعتقلهم (٦٣)، وفى نوفمبر ٣١٦ انتقل الإمبراطور إلى ميلانو (٦٤)، وإليها أحضر الأساقفة الدوناتيين، واستدعى إليه كايكيليانوس الذى سارع بالذهاب إلى حضرة الإمبراطور (٦٥) . وفصل قسطنطين بين المتنازعين، وما كان ليخرج فى قراره عما أقره قبلاً مجمعاً روما وآرل . ويتساءل البعض فى عجب بعد أن يوضحوا موقف قسطنطين تجاه الحزبين المتصارعين وإهماله إياهما، والتلاعب بهما من روما إلى بريشا إلى ميلانو، هل كانت المسألة تستحق هذه السنوات الثلاث، وأن تطرح للبحث من جديد الأحكام الكنسية التى صدرت فى روما وأرل للوصول إلى هذه النتيجة التى انتهى إليها الإمبراطور (٦٦) !

على هذه الشاكلة تسنم قسطنطين مرتبة مرموقة بعد أن احتل مركز الفيصل فى شئون الكنيسة . ومنذ اللحظة هذه وقسطنطين لم يتراجع عن غنمه هذا قيد أنملة، فقد غدا مهيمناً على أمر دين هذا الفريق الجديد من رعاياه، ولم تحتج الكنيسة على ذلك ولم تطلب إليه أن يعيدها حقاً سلبه إياها . فقد أعطاها الكثير . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى ما هو أخطر من ذلك، ألا وهو تعيين الأساقفة !.

ذلك أن قسطنطين بعد أن أعطى تأييده لكايكيليانوس، وأنكر على الدوناتيين حججهم، رأى أن يخلص هذا الإقليم من أسباب هذا النزاع، فأبقى لديه زعيمى الفريقين كايكيليانوس ودوناتوس الكبير خليفة ماجورينوس، وأرسل من لدنه أسقفين هما يونوميوس Eunomius وأوليمبيوس Olympius إلى قرطاجة ليقوما برسم أسقف جديد يرتضيه طرفا النزاع لحسم هذا الخلاف (٦٧) . غير أن سياسة الحل

(62) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(63) Jones, Constantine, p. 118; Hefele, op. cit. I, 1, p. 297.
(64) C.A.H. XII, p. 693.
(65) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(66) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, pp. 48-50.
(67) Ibid. 48.

الوسط هذه لم تؤت شيئا مما علقه قسطنطين عليها، إذ سرعان ما فر دوناتوس عائدا إلى أفريقيا حيث تبعه كايكيليانوس [٦٨] . وعند ذلك فقد قسطنطين صوابه وخاصة بعد أن جاءت الأنباء من نائبه فى أفريقيا توضح له سوء الأحوال واضطراب الأمور هناك بين أتباع الفريقين [٦٩]، وبدأ الرجل الذى أقر فى ميلانو سياسة المسامحة مع مختلف العقائد، أول اضطهاد فى المسيحية، فقد أمر قسطنطين بمصادرة كنائس الدوناتيين وبيعهم [٧٠]، وجرت كثير من الاضطهادات والمذابح بين أفراد هذا الفريق [٧١] مما جعل الدوناتيين يعتبرون ضحاياهم الذين قتلوا نتيجة هذا القمع العسكرى فى عداد الشهداء [٧٢] . ويبدو أن الفوضى فى الولاية قد بلغت حدا عجزت معه السلطات المحلية عن قمعها مما اضطر الإمبراطور إلى إرسال قوة عسكرية بقيادة أورساكيوس Ursacius [٧٣] . لم يتوان دوناتوس الكبير عن مقاومتها والتصدى لها .

بعد قسطنطين بإجراءاته هذه عن الصواب، وجر على نفسه وإقليمه هذا كثيرا من الويلات، فقد راح الدوناتيون يسلكون هم الآخرون مسلكا يتسم بالعنف دفاعا عن مبادئهم وكيانهم، وأخذت مبادئ الدوناتيين تلقى رواجا كبيرا بين الجموع الفقيرة المعدمة التى آلمها ما أضحت عليه الكنيسة الكاثوليكية من ثروة ورخاء نتيجة العطايا التى حصلت عليها من الإمبراطور، والتى لم تتذوق منها هذه الطبقات شيئا . فتألفت جماعات من الفلاحين وعامة الناس، وتحزبوا للدوناتيين ودافعوا عنهم بقوة السلاح، وأشاعوا القتل والفوضى فى ولاية أفريقيا [٧٤] ويعلق أحد المؤرخين على ذلك بقوله " لابد لنا أن نعترف أن كل هذه الأحداث كانت أولى

(68) Jones, Constantine, p. 119.
(69) Palanque, Bardy, Labhiolle, op. cit. III, p. 49.
(70) C.A.H. XII, 693; Hughes. A history of the Church. p. 5.
(71) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(72) C.A.H. XII, p. 693.
(73) Lietzmann, op. cit. p. 91; Backhouse, op. cit. p. 375.
(74) F. Jackson, op. cit. p. 294.

ثمار التحالف بين الكنيسة والدولة (٧٥) "، وبلغت ذروة التحدى من جانب الدوناتيين للإمبراطور ذاته عندما أرسل إليه أساقفتهم يقولون إنهم لن يتعاملوا قط مع أسقفه الوغد، وأنهم على استعداد لتحمل أى عذاب يفرضه عليهم(٧٦) .

عندها أدرك قسطنطين أن عليه أن يختط لنفسه سياسة جديدة، بعد أن ضاعت جهود عنفه هباء، فأرسل فى عام ٣١٧ إلى نائبه فى أفريقيا وإلى كايكيليانوس والأساقفة باتباع سياسة جديدة تقوم على الاعتدال والتسامح (٧٧)، وأرسل هو بدوره أوامر بالسماح للأساقفة الدوناتيين المنفيين بالعودة إلى ديارهم(٧٨).

وفى ٥ مايو ٣٢١ أرسل الإمبراطور مرسوما إلى نائبه فى أفريقيا بالعفو عن الدوناتيين وأن ترد إليهم كنائسهم المصادرة (٧٩)، ثم دعا الفريقين إلى حل مشاكلهما عن طريق السلام، وليس أدل على ذلك مما أقدم عليه الإمبراطور ذاته، فقد بني كنيسة للكاثوليك فى Cirta، فقام الدوناتيون بالاستيلاء عليها، فلما احتج الكاثوليك على ذلك لدى الإمبراطور طالبين منه المساعدة، جاءتهم هذه على نحو لم يكونوا يتوقعونه، فقد أمر الإمبراطور بإرساء قاعدة كنيسة جديدة لهم ممتدحا مسلكهم حيث لم يقابلوا العنف بمثله تاركين الانتقام لعدل الرب (٨٠) . ولعل قسطنطين قد أقدم على هذه السياسة لأنه كان على وشك الدخول فى صراع مع ليكينيوس ومن ثم لم يكن يرغب فى أن يترك وراءه الغرب يئن تحت هذه المتاعب التى تشيع الانقسام، كما أنه لم يكن راغبا أيضا فى أن يتحدث عنه الشرق المسيحى الذى كان الإمبراطور يتطلع إليه فى لهفة على أنه إمبراطور مضطهد فراح يعظ الأساقفة الكاثوليك ويطلب منهم الاعتدال تجاه عنف الخصوم(٨١) ولم تحاول الحكومة التدخل فى هذه المشكلة حتى نهاية عهد قسطنطين(٨٢) .

---

(75) Backhouse, op. cit. p. 376.
(76) Jones, Constantine, p. 123.
(77) F. Jackson, op. cit. p. 295; A dictionary of Christian. Biography, art. Donatism.
(78) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(79) Palanques, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 51.
(80) Lietzmann, op. cit. p. 92.
(81) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, 52; Duchense, op. cit. II, p. 124.
(82) F. Jackson, op. cit. p. 295.

كانت المسألة الدوناتية تجربة جديدة فى العلاقة بين الدولة والكنيسة، خاضها قسطنطين ، وتأرجحت سياسته فيها بين اللين والعنف واللامبالاة ! ولئن كانت جهوده قد أتت إليه بغير ما اشتهى، إلا أنه كسب خلالها مكانة جعلته فيصلا أعلى فى شئون الكنيسة، ذاك غنم لم يتنازل عنه قسطنطين طيلة محياه، ولم يتخل عنه خلفاؤه ما بقى للإمبراطورية حياة .

ورغم أن الدوناتية ظهرت على مسرح الأحداث فى الغرب الإمبراطورى نتيجة خلاف فى النظم الكنسية مع الكنيسة الكاثوليكية، إلا أنه لا يمكننا أن نغفل أثر العامل الاقتصادى فى اتخاذها سبيل العنف من بعد . فأثرياء المسيحية هم الذين أذعنوا للأوامر الإمبراطورية زمن الاضطهاد الدقلديانى الجاليري وقربوا للأرباب، فى الوقت الذى لقى فيه العنت نفر كبير من ذوى المسغبة، فلما انقشعت غمة الاضطهاد وأصبح قسطنطين سيد الغرب الفرد، وراح يغدق أنعمه على الكنيسة الكاثوليكية ورعاياها دون غيرهم، وأعيدت للكنيسة والأثرياء أملاكهم، تملك الحقد أفئدة هذه الطبقة المعدمة، فأعلنتها ثورة عنيفة على هؤلاء الأثرياء، والكنيسة الكاثوليكية، متخذة من المبادئ الدوناتية عن التطهر والشهادة وسيلة لها . ويتضح هذا بصورة جلية فى الهجمات التى شنها فقراء الدوناتيين على حقول وقصور سراة المسيحية فى ولايتى أفريقيا ونوميديا .

ولا يبعد أن تكون الدوناتية وسيلة وجد فيها أهالى هذه المنطقة الفرصة التى يبحثون عنها من زمن بعيد، ليخلعوا عن أنفسهم تلك القشرة الرقيقة التى يتحلون بها من الحضارة الرومانية، نتيجة لهذا الكره الدفين الذى جاء نتيجة لعملية الاستنزاف الاقتصادى المستمر من جانب روما لموارد هذه المنطقة، إذ كانت أفريقيا تمثل إلى جوار مصر قبو الحنطة للإمبراطورية . وقد يكون ذلك هو الذى دفع مؤرخا مثل Hughes إلى أن يطلق على أعمال العنف التى قام بها فقراء الدوناتية " حرب الفلاحين " (٨٣) .

---

(83) Hughes, A history of the chuch, p. 6.

الفصل الخامس

الأريوسية والمليتية

توارت بالحجب أنجم ليكين، وهتكت ستر المشرق شمس قسطنطين، وتطلعت الدنيا تتسمع أجراس نصر في خريسوبوليس تعلن في الملأ أن هذا قد أصبح للإمبراطورية العاهل الأوحد، وإذا بقسطنطين يخر ساجداً يسبح بحمد قدر قد واتاه من حيث لا يحتسب، وأغدق عليه نعمة ظاهرة لا باطنة، فإذا الإمبراطورية كلها طوع أمره، وإذا هو لبشرها سيد !!

نفض قسطنطين عن نفسه غبار معركة فرغ منها لتوه، وراح يعود إلى ذلك الوراء البعيد وهو بعد على الناحية الأخرى لبحر الشمال يخترق بصره اليباب والوديان، تجاه تلك البقعة القصية التي يهواها فؤاده، الشرق، ومرت بمخيلته تلك الأحداث المتلاحقة منذ نادى به جند أبيه ورفعوه مكاناً علياً، وكيف حالفه ذلك الطاعن ماكسيميانوس، ثم كيف تألب عليه، وما كان من أمر ماكسنتيوس واندحاره عند القنطرة الملفية ثم دخوله مدينة الظافرين وعهده مع ليكينيوس وحربه ضده . وأفاق من نشوة النصر قسطنطين على رنين تلك الأجراس ليرى نفسه وقد غدا سيد الإمبراطورية الواحدة الأوحد .

ولم يغب عن بال الإمبراطور طيلة هذه الرحلة الشاقة أنه قد أنقذ من الضياع المسيحيين، وشد من أزرهم، وأنعم بالكثير عليهم، وكم آلمه أن يرى وحدتهم في الشمال الأفريقي تنفصم، وأن يرى جهوده في لم شعث هذه الجموع تذهب أدراج العناد، وكم أمل أن يجد في الشرق تلك الوحدة الدينية التي افتقدها في الغرب (١) . وهيئ " لمحبوب الرب " أن وجوده في هذه الأقاليم الجديدة التي تزخر بأشياع المسيحية والتي فيها نبتت هذه، سيهيئ له ضميناً قوياً يمده العون، ويكفل له النجاح، ويرتل له على أنغام الوحدة أنشودة السلام (٢) .

(1) C.A.H. XII, p. 697.
(2) EVSEB. Vita Const. II, 67.

ولكن قسطنطين لم يكن مع المسيحيين فى الشرق بأسعد حظاً منه فى الغرب، فإذا كان دوناتيو أفريقية أفسدوا عليه بهجة نصره على " طاغية روما " فإن آريوسيى المشرق والمليتيين قد عكروا عليه صفو غنمه حليف الأمس ليكينيوس، ولم يكن قسطنطين يسمح لجمهور النظارة فى هذه البقعة أن يشهد مسرحية "الانشقاق " التى كانت فصولها لا تزال تمثل على مسرح كنيسة أفريقيا . ولم يكتمل بعد مشهدها . فقد كان قسطنطين يعى تماماً أن أى حادث كذلك الذى جرى في ولاية أفريقيا يتعرض له الشرق لابد وأن يعصف بجهوده وآماله تماماً . فجمهور الشرق كثير وأبطال مسرحية من هذا القبيل هنا يحظون بالطبع بشهرة فائقة وعظيم الصيت، ولابد أن يهلل المشاهدون لهذا أو ذاك ممن يجذبون روعهم ويلقون الرضى !!

لم يكد قسطنطين يغدو سيد الإمبراطورية الفرد حتى حملت إليه رياح الشرق أنباء حدوث انشقاق فى كنيسة الإسكندرية، وأن هذا قد تخطى هذه ليشمل كنائس سوريا وآسيا الصغرى، ولم يكن قد ذهب من مخيلة الإمبراطور بعد صورة تلك الفوضى الحادثة فى الولاية الأفريقية نتيجة انشقاق كنسى أيضاً، ومن ثم صمم على أن يحسم الأمر بنفسه هذه المرة وبلا توان .

وقد كان طبيعياً أن تنشأ الاتجاهات العقيدية الجديدة فى الإسكندرية فقد كانت لقرون خلت مركز الثقافة فى الشرق حيث تدفق النشاط الفكرى فى تيار جار (٣)، فلما جاءتها المسيحية، لم يكن لها أن تتخلى فى ظل هذه العقيدة الجديدة عن مركزها المرموق، ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب، فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والعديدة . وقدر لها بذلك أن تؤدى دوراً بارزاً فى المسيحية انتشاراً وفكراً، إلى الحد الذى دفع واحدا من المؤرخين (٤) إلى القول بأنه ليس هناك بلد من البلاد، أثر فى تطور العقيدة المسيحية مثلما فعلت مصر بل ليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحى بصورة أشد عمقاً من الإسكندرية .

---

(3) F. Jackson, op. cit. pp. 269-270.

(4) Creed, Egypt and the christian church, p. 300.

وراجع أيضاً كتابنا ، الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، الفصول الثلاثة الأولى .

وقد قدمت الإسكندرية للعالم المسيحى أشهر آبائه فى الفكر اللاهوتى فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد، كان أبرزهم على الإطلاق كلمنت Clemens (حوالى ١٥٠-٢١٥)، وأوريجن Orignes (١٨٥-٢٥٤) وديونيسيوس Dionysius (٢٤٦-٢٦٥)، وأضحى الثغر المصرى مركز نمو الفكر اللاهوتى في الشرق، وأحرزت كنيسته شهرتها فى العالم المسيحى بوصفها كنيسة فكرية لم يعيها البحث فى أدق المشاكل فى الدين والعلم (٥) .

وكان الخلاف فى الرأى بين آريوس Arius رجل الكنيسة السكندرية وإسكندر Alexander أسقفها، حول مسألة شغلت أذهان رجال الفكر واللاهوت وآباء الكنيسة فترة من الزمن غير يسيرة وهى العلاقة بين الآب والابن، الكلمة المتجسدة (٦)، داعية هذا الجدال الذى اشتد أواره بين كنائس الإمبراطورية على حد قول الإمبراطور نفسه فى رسائله إليهما (٧) .

أما معلوماتنا عن آريوس فنستقيها من مخاصميه . وإن لم ينكر عليه هؤلاء واسع علمه واطلاعه وتضلعه من المنطق حتى أنه كما قيل لم يغادر من المعرفة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (٨)، إلا أنهم عارضوه الرأى حول المسألة الكريستولوجية ورموه بالهرطقة، وذلك شأن مؤرخى الكنيسة جميعاً . ويخبرنا سوزومنوس(٩) دون غيره أن آريوس كان أول من وافق مليتيوس Melitus أسقف أسيوط الذى انشق على كنيسة الإسكندرية فى أسقفية بطرس وشايع رأيه، ولكنه تاب وأناب ورسم سنة ٣١٠ شماساً على يد بطرس أسقف الإسكندرية، وفى عام ٣١١ حرمه بطرس نتيجة اعتراضه على سياسة الكنيسة إزاء الأساقفة (١٠) . ولما مات

---

(5) Vasuiliev, op. cit. I, p. 54.

وراجع أيضا للمؤلف، الدولة والكنيسة، جـ٣، الفصل الأول، وله كذلك الفكر المصرى فى العصر المسيحى، الفصل المعنون مدرسة الإسكندرية.

(6) Thompson, op. cit. p. 39; Latourette, expansion of Christianity, I. p. 348; Painter, op. cit. p. 15.

(7) EVSEB. Vita Const. II, 69.

(8) SOZOM. Hist. Eccl. I, 15.

(9) Id.

(10) Id.

بطرس خلفه أشيلاس Achillas على الأسقفية (١١)، وتمكن آريوس من الحصول على الغفران وأعيد في عام ٣١٢ إلى وظيفته الكنسية التى كان عليها قبلاً، ثم رقى إلى مرتبة القسيسين لما لمسه فيه الأسقف السكندرى من فطنة ومقدرة(١٢) .

ومن رسالة بعث بها آريوس إلى صديقه يوسيبيوس أسقف نيقوميديا، نعلم أنه كان تلميذ لوقيان Lucianus الأنطاكى (١٣) . الذى كان قد أسس بها مدرسة لتفسير الكتاب المقدس (١٤) . وتدلنا الرسالة ذاتها على أن آريوس ورفاقه قد تأثروا إلى حد كبير بتعاليم لوقيان، ولقد شاع أخيراً مسئولية لوقيان عن العقيدة الآريوسية(١٥) حتى لقد قيل إن مدرسة أنطاكية لتفسير الكتاب المقدس هى موطن العقيدة الآريوسية، كما كان لوقيان، رأسها، وهو الآريوسى قبل آريوس نفسه (١٦) . ويصفه يوسيبيوس بأنه عاش حياة نقية طاهرة ومات ميتة نبيلة أبية (١٧).

أما تعاليم آريوس فنقف عليها من رسالة لإسكندر أسقف الإسكندرية إلى سميه أسقف بيزنطة، وأخرى بعث بها إلى عموم الأساقفة ينبئهم فيها بفحوى النزاع بينه وبين آريوس والدوافع التى حفزته إلى حرمه من الكنيسة، ومن مقالات أثناسيوس Athanasius خليفته ورسائله ضد الآريوسيين وعرضه لتاريخ الآريوسية وردوده على ما أثاره الفريق الآريوسى حول ما دار فى مجمع نيقية . ثم من رسالة آريوس إلى زميله أسقف صور ووثيقة إيمان آريوس إلى زميله

---

(11) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 5.
(12) SOZOM. Hist. Eccl. I, 15.
(13) THEOD. Hist. Eccl. I, 4.
(14) HIER. Vir. ill.77 .
نشـأت فى كل من الإسكندرية وأنطاكية مدرستان لتفسير الكتاب المقدس وقد اتخذت كل منها اتجاهاً مغايراً للأخـرى، فبينـما اعتمدت مدرسة أنطاكية المنهج العقلى،سلكت مدرسة الإسكندرية سبيل التفسير الصوفى المجازى، وكان أشهر أساتذتها فى هذا المجال اللاهوتى السكندري أوريجن، راجع للمؤلف، الفكر المصرى فى العصر المسيحى؛ وأيضاً الدولة والكنيسة جـ٣ ف١ .
(15) Downey, A history of Antioch in Syria, p. 338; Lietzmann, op. cit. p. 107.
(16) Vasiliev, op. cit. I, p. 55.
(17) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 13; IX, 6.

أسقف نيقوميديا يوسيبيوس، ورسالة هذا إلى باولينوس Paulinus أسقف صور ووثيقة أيمان آريوس التى قدمها إلى قسطنطين بعد عودته من المنفى .

تضمنت رسالة الأسقف السكندرى إلى صديقه الأسقف البيزنطى فى بدايتها أسفاً بالغاً لروح الشر التى نفثت سمومها فى نفوس أناس ضعيفى الإيمان، دفعتهم جسارة وقحة إلى التهجم على الإيمان القويم، وتحذيراً مخافة أن يستطيع هذا البعض الدخول فى الكنيسة بزيف القول وغروره، ثم يفصح بعد ذلك عن زعيمى هذه الحركة وهما آريوس وأشيلاس الكاهن Achillas ويروح بعد ذلك فى إطناب بالغ يشرح لزميله مبادئ آريوس ويورد الأدلة التى اعتمد عليها هذا الأخير من الكتاب المقدس، ويتولى الرد على هذه الفكر الآريوسية محاولاً دحضها، ولا تختلف أقواله بطبيعة الحال هنا عنها فى رسالته إلى عموم الأساقفة فى مختلف الكنائس (١٨) ، ومن الرسالتين معاً يمكننا أن نقف على آراء آريوس كما يراها اسكندر .

فالله عند آريوس لم يكن دوماً آباً، فهناك فترة من الزمن لم يكن فيها الله أباً. وكلمة الله لم تكن دواماً، ولكنها من العدم نشأت، فالله قد جعل هذا الذى لم يكن من ذلك الذى لا وجود له . وعليه فقد كان هناك زمان لم يكن هذا . ذلك أن الابن مخلوق . لا يساوى الآب فى الجوهر، ليس الكلمة الحق الطبيعية للأب، ليس حكمته الحقة . إنما هو أحد الخلائق دُعى الكلمة خطأ والحكمة . فهو قد نشأ بذات كلمة الله . وبالحكمة الكامنة فيه – التى بها سوّاه الله وسوّاه . ومن ثم فهو بطبيعته عرضة للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق . والكلمة غريبة عن جوهر الآب . بعيدة عنه ومنفصلة . والآب . . كيف يصفه الابن ؟ إن الكلمة لا تعرف الآب كنهة . والابن لا يعاين الآب يقيناً . والابن لا يعرف ذات الجوهر هو . من أجلنا جبل . يخلقنا الله به . به إذن يؤدى . لم يكن يوجد لولا أن شاء الله خلقنا . وإذا ما سألهم سائل عن تحول كلمة الله كما هو حادث فى الشيطان ما خجلوا عن الإيجاب، حاجين أنه جبل وخلق، فطبيعته للتحول قابلة (١٩).

(18) THEOD. Hist. Eccl. I, 3.
(19) THEOD. Hist. Eccl. I, 3; ATHANAS. depos. Ar.

أما أثناسيوس ففى رسائله ضد الآريوسيين، وردوده عليهم حول ما دار فى مجمع نيقية، يفسر عقيدتهم بما لا يخرج على الإطلاق عن شروح أسقفه اسكندر . ويضيف صراحة أن الفريق الآريوسى ينكر لاهوت المسيح، فالابن عندهم ليس إلها حقاً (٢٠) .

وتتلخص تعاليم الآريوسية فى أن الآب هو الإله الحق فى مقابل الابن الذى ليس إلهاً حقاً، فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق . ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين، إلهان لا متناهيان (٢١) والابن غير مولود وليس جزءاً من غير المولود، ولا يستمد كيانه من مادة، وإنما بالإرادة والقصد وجد قبل كل العالمين . وأنه قبل أن ولد أو خلق أو قصد، لم يكن، لأنه كان غير مولود (٢٢) .

وعلى ذلك فالله لم يكن دائماً آبا . لأنه كان وحيداً، ولم يكن اللوجوس والحكمة قد وُجدت بعد، ثم أراد الله أن يخلق موجوداً معيناً أسماه اللوجوس، الحكمة، الابن، حتى يمكن أن يخلقنا بواسطته . ولهذا توجد حكمتان : حكمة خاصة بالله وأخرى يشارك فيها الابن . كما أن فى الله لوجوس آخر غير الابن، وقد سمى الابن تكريماً له باللوجوس (٢٣) ولله قوة طبيعية ليس كمثلها شىء، سرمدية . أما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله، وإنما هو إحدى هذه القوى، وفى علاقته بالمخلوقات يعتبر الخالق، أما علاقته بالآب فهو مخلوق، وآلة للخلق وأداة (٢٤) . والآريوسيون فى ذلك يتصورون مسافة شاسعة بين الله والمخلوقات، الأمر الذى يلزم منه أن الخلق المباشر محال . الابن فى رأى آريوس قمة الخلائق غير متغير وثابت، وليس كباقى المخلوقات، ولكن الثبات وعدم التغير هنا لا يعنى ثباتاً فى ماهية الابن ذاتها، ولكنه ثبات بحكم الواقع حسب إرادة الله (٢٥) . ومعرفة الابن

(20) ATHANAS. de decr. III, 6; Epist. C. Arian.
(21) Dict. Theol. Cath. 1, 2, Col. 1784.
(22) THEOD. Hist. Eccl. 1, 4.
(23) Dict. Theol. Cath. I, 2, Col. 1786.
(24) Id.
(25) Id.

بالله معرفة غير كاملة، وذلك لأن الآب غير منظور للابن، فالابن لا يتأمل ولا يعرف تماماً الآب . ما يراه الابن وما يعرفه فإنما يعرفه بالنسبة لقواه، إن الابن لا يعرف حتى طبيعته هو (٢٦) .

خلاصة القول عند الآريوسين أن المسيح لم يعد إلهاً، لأن اللوجوس المتجسد ليس هو الإله الحق . وبالتالي فهم يرتبون على ذلك أن الخلاص يتم على المستوى الأخلاقي أو بالحرى المستوى الإنساني (٢٧).

ويشبه اسكندر أسقف الإسكندرية في رسالته إلى عموم الأساقفة آراء آريوس ورفاقه بآخرين سبقوهم قبل ذلك وأدانتهم الكنيسة (٢٨) ويقول : " إن هؤلاء الأفراد في سعيهم الدائب بكل مغالطتهم لإنكار ألوهية الكلمة قد زكوا موقف من سبقوهم"(٢٩) ومن رسالته إلى اسكندر البيزنطي يشير إلى هؤلاء الأفراد وهم " أبيون Epion وأرتماس Artemas وبولس Paul السميسطائي أسقف أنطاكية الذي نادى بأن المسيح مجرد إنسان وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقي . وأنكر بولس أقنومي الابن والروح القدس، معتبراً إياها مجرد قوتين في الله كقوتي العقل والتفكير في الإنسان، وقد حرم على يد مجمع عقد في سنة ٢٦٢ . ويذكر يوسيبيوس أن كلاً من

---

(26) Id.

(27) Dict. theol. Cath. I, 2, Col. 1786; F. Jackson, op. cit. p. 109; Davis, op. cit. p..17; Ault, op. cit. p. 51; Painter, op cit. p. 16; A dictionary of Christian biography. Art. Arianism.

(٢٨) كان من نتيجة خروج المسيحية عن نطاق التبشير بين اليهود، ومضيها إلى طريق أمم، أن تخلت عن أسلوبها التبشيري البسيط بمعجزات المسيح، واختلطت بأفكار هؤلاء الأميين وفلسفاتهم، وأخذت عنهم وأعطتهم ومن ثم كان على المسيحية أن تتفلسف حتى تستطيع أن تواجه تحديات المفكرين والفلاسفة، ونتيجة لذلك ظهرت في المسيحية منذ نهاية القرن الأول للميلاد فرق عديدة تجادل من حول المسيح، في محاولة لإرساء العقيدة المسيحية على أسس عقلانية . وكان من بينها المرقيونية Marcionism نسبة إلى مرقيون الذي فرق بين إله المسيح والإله يهوه – وأصدر عهداً جديداً غير العهد الجديد المعروف يضم أنجيل لوقا ورسائل بولس فقط . والمونتانية Montanism التي تددت بتعلق المسيحيين بهذا العالم وازدياد سلطان الأساقفة.. واتباع كيرنثوس Cyrinthus القائلين بأن الله لم يكن هو الخالق للعالم بل قوة متميزة عنه . وفي القرن الثالث ظهرت دعوة بولس السميسطائي . وفي القرن الرابع كانت دعوة آريوس.

(29) THEOD. Hist. Eccl. I; 3.

أبيون وبولس ينكران لاهوت المسيح، كما أن أرتماس نادى بنفس العقيدة، وحرم على يد أسقف روما زفيرينوس Zephyrinus (٢٠٢-٢٢١)[٣٠] .

وهذه الآراء احتوتها وثيقة هامة وهى رسالة بعث بها يوسيبيوس النيقوميدى إلى باولينوس أسقف صور جاء فيها :

" البتة لم نسمع بكائنين ليسا بمولودين، وما علمنا بانقسام الواحد إلى اثنين، ولم نع على الإطلاق ولم نعتقد أن الواحد فى صورة بشرية قد تجسد . ولكنا نؤكد أن غير المولود واحد . وواحد كذلك الذى يحيا فيه بالحق . ولكنه من جوهره لم يُجبل، ولم يشترك أبداً وغير المولود طبيعية أو جوهراً . متميزاً تماماً فى الطبيعة والاقتدار . جبل على شبه بالخالق سجية ومقدرة . إنا نؤمن بأن كيف بدايته لا يمكن التعبير عنه بالقول ولا حتى بالفكر، كما أنها على البشر خافية . ومَنْ مِنَ الكائنات منهم أعلى . تلك آراء ندعو بها لا لأنا من نسيج خيالنا استقينا بل من الكتاب المقدس من حيث نعلم أن الابن خلق، ثبت . . . وقد قال السيد " الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم، منذ الأزل مُسحت . . . منذ البدء منذ أوائل الأرض . إذ لم يكن غُمر أبدئت . إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه، من قبل أن تقررت الجبال، قبل التلال أبدئت " (أمثال ٨/٢٢-٢٦) .

" ذلك أنه لو كان من خلاله أو منه . جزء منه أو منبثق من جوهره . لاستحال القول بخلقه . لأن ما هو من غير المولود لا يمكن القول بخلقه، سواء به أو سواه، لأنه غير مولود منذ البدء، ولكن إذا كانت حقيقة تسمية الابن المولود، تدعو البعض إلى الجهر بأنه قد أتى من نفس جوهر الآب ويحمل من الآب فى الطبيعة شبهاً، لأجبناهم أنه ليس وحده الذى تحدث عنه الكتاب المقدس بأنه المولود، بل عن آخرين مخالفين له فى الطبيعة، فقد ورد على لسان بشر " ربيت بنين ونشأتهم . أما هم فعصوا على " (أشعياء ٢/١) وأيضاً " من ولد مآجل الطل " (أيوب ٣٨/٢٨) . والتعبير هنا لا يعنى أن قطرات الندى شريكة لله فى طبيعته،

(30) EVSEB. hist. eccl. III, 27; V, 28.

ولكن المعنى بالحرى أن كافة الأشياء قد تمت وفق إرادته . ليس هناك والحق أقول شيء من جوهره، وإنما كل ما فى الوجود من صنع إرادته . هو الله، كل شيء قد جبل مثيله وعلى وفق كلمته، خلقت بمحض إرادته هو . كل شيء من الله"(٣١).

ويصف آريوس آراء خصومه فى هذا الجدال بقوله " إنهم يقولون بأن الله على الدوم كان . وكذا الابن كان . مثلما يكون الآب . . الابن يكون أزلى . الآب لا يستبق الابن فى الفكر أو لبرهة . أزلى الإله . أزلى الابن . الذى من غير المولود مولود . الابن من الله " (٣٢) .

ويعطينا أسقف الإسكندرية عقيدته ومؤيديه بقوله :

" نؤمن كما تكرز الكنيسة الرسولية، بالآب الوحيد غير المولود، الواجب الوجود، لا يتغير ولا يزول، هو غاية الكمال . لا يتكثر عليه نقصان أو زيادة . معطى الشريعة والأنبياء والأناجيل . رب الأنبياء والرسل وكل القديسين، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود . ليس مولوداً من العدم بل من الآب . على نحو لا يدركه العقل، فوق التعبير . ووجوده غير مدرك عند الكائنات المائتة. والآب غير مدرك لأن طبيعة الخلائق العاقلة لا تقوى على فهم هذه الولادة الإلهية من الآب . ولا تزال فى آذاننا تتردد أصداء قول المخلص " ليس أحد يعرف الابن إلا الآب . ولا أحد يعرف الآب إلا الابن " (متى ١١/٢٧) . الابن لا يتغير، والآب. الابن لا ينقص عن الآب شيئاً سوى أنه ليس غير مولود وهو الابن الكامل وصورة الآب التامة (٣٣) .

هذان خصمان اختصموا فى ربهم، راح كل يبشر بدعواه فى دوائر الكنيسة، ويخبرنا سوزومنوس أن أسقف الإسكندرية لم يرد فى أول الأمر أن يشجب هذا الجدل دفعة واحدة، ولكنه فضل السماح للفريق المضاد أن يعرض وجهة نظره فى

---

(31) THEOD. hist. eccl. I, 5.
(32)Ibid. 4.
(33) THEOD. hist. eccl. I, 3.

حرية تامة حتى يستطيع الجمع المفاضلة على أساس قويم [٣٤] . وسواء صح هذا القول أم أظلته سحابة من الشك، فالذى يعنينا أن عديداً من المجامع قد عقدت هنا وهناك أثيرت فيها تلك النقاط موضوع الخلاف، ولكن اتفاقاً فى الرأى لم يصل إليه الحزبان . وتخلى اسكندر فى النهاية عن اعتداله وأمر آريوس بقبول القول باتحاد الابن مع الآب فى الجوهر ومساواته فى الأزلية . ولكن آريوس لم يذعن لهذا الأمر، فعقد اسكندر مجمعاً فى الإسكندرية سنة ٣١٩ قضى بإدانة تعاليم آريوس[٣٥].

وعلى الرغم من الموقف المتشدد الذى اتخذه اسكندر الآن تجاه آريوس، إلا أنه يبدو أن أفكار الأخير قد لاقت رواجاً بين عدد ليس باليسير من رجال الدين فى كنيسة الإسكندرية . ونقف على ذلك من رسالة اسكندر إلى الأساقفة حيث يذكر أن من ارتدوا عن الدين القويم من القساوسة وتابعوا آريوس هم . . أشيلاس Achillas الكاهن، أيثالس Aeithales كاربونس Carpones، وآخر يدعى آريوس Arius وسارماتس Sarmates، ومن الشمامسة يوزيوس Euzoius، ولوقا Lucius يوليوس Julius ميناس Menas، هيلاديوس Helladius جايوس Gaius [٣٦] . هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من المثقفين قد اتخذ جانب آريوس ورفاقه إيماناً منهم أن عقيدتهم هى الحق، بينما تعاطف معهم بعض آخر مدخلين فى اعتبارهم أن الآريوسيين قد أسيئت معاملتهم وأن حرمانهم ليس من العدالة فى شىء [٣٧] .

كان ذلك هو الوضع فى الإسكندرية فى مطلع عشرينيات القرن الرابع، غير أن الفريق الآريوس رأى من الحكمة والحصافة، على حد تعبير سوزومنوس [٣٨]، أن يبحث عن نصير خارج المدينة، فأرسلوا من لدنهم مندوبين إلى بقية المدن الأخرى فى الإمبراطورية وزودوهم بمكاتيب فحواها عقيدتهم سائلين إياهم، إذا ما ارتأوا أنهم على الحق، أن يرسلوا إلى اسكندر يرجونه أن يحسن معاملتهم، وإذا ما

(34) SOZOM. Hist. eccl. I, 15.
(35) Id.
(36) ATHANAS. depos. Ar. THEOD. hist. eccl. I, 3.
(37) SOZOM. Hist. eccl. I, 15.
(38) Id.

استهجنوا تلك العقيدة فعليهم أن يبعثوا إليهم يعلمونهم الإيمان القويم (٣٩) . ويعلق سوزومنوس على هذا السلوك من جانب الآريوسيين بقوله : لم يكن الإجراء الذى لجأ إليه فريق الآريوسين عديم الأهمية، فقد نقل المشكلة من النطاق المحلى إلى الدائرة العامة وأضحى حديث كل الأساقفة، وكتب بعضهم إلى اسكندر يتوسل إليه ألا يقبل أشياع آريوس فى شركة الكنيسة ما لم يطلقوا آراءهم بلا رجعة، بينما أرسل آخرون يستحثونه أن يكون بهم رحيماً (٤٠).

ومن رسالة آريوس إلى صديقه الأسقف النيقوميدى نعلم مدى انتشار الآراء الآريوسية فى الولايات الشرقية للإمبراطورية، فقد جاء فيها ذكر الأساقفة الذين شايعوا الآريوسية وهم يوسيبيوس أسقف قيسارية، ثيؤدوتوس Theodotus أسقف اللاذقية Laodicea وباولينوس أسقف صور، وأثناسيوس Athanasius أسقف عين زربة Anazarbus أهم مدن كيليكيا Cillica وجريجورى Gregorius أسقف بيروت Berytus وآيتيوس Aetius أسقف اللد Diosopolis . ثم يضيف آريوس قائلاً : وكل أساقفة الشرق عدا ثلاثة هم فيلوجون Philogonius أسقف أنطاكية . هيللانكوس Hellanicus أسقف طرابلس، ومكاريوس Macarius أسقف أورشليم(٤١) .

ولم يكن فيما قاله آريوس شيء من المبالغة، إذ إن هذه المناطق الشرقية من الإمبراطورية هى التى سادتها المدارس الفكرية الفلسفية آنذاك، وانتشرت فيها هذه الفكَر الجدلية التى كانت عنواناً على الحياة العقلية فى النصف الشرقى الرومانى على عكس ما كان حادثاً فى الغرب الرومانى .

حتى ذلك الحين، ورغم هذا الانتشار السريع للعقيدة الآريوسية فى الولايات الشرقية للإمبراطورية، إلا أن الدولة لم تسلك إزاءها بصورة ما، ذلك أن هذا الصراع الدائر فى الكنيسة بين رجالاتها لم يكن ليعنى الدولة عندئذ فى شيء . فقد

(39) Id.
(40) Id.
(41) THEOD. hist. eccl. I, 4.

كان ليكينيوس لا يزال سيد الشرق، وكان قد بدأ في سنة ٣١٩- كما قدمنا يمارس من جديد سياسة العداء نحو المسيحية وأهلها، ومن ثم لم تختلف نظرته لأشياع هذا الفريق عن نظرة من سبقه من الأباطرة وهى النظرة الكلية . ولم يكن إمبراطور الشرق يخشى من هذا الذى يدور فى الكنيسة رحاه، فانقسام الرأى فى الكنيسة المسيحية لا يضيره فى شىء ما دام بين مسيحى وآخر، وحيث إن حكومته تقف من المسيحية جملة موقفاً عدائياً .

أما الكنيسة ذاتها فقد كان يهمها ما يعتمل فى داخلها من صراعات عنيفة، وكان أسقف الإسكندرية على رأس المتحمسين بطبيعة الحال لرأب هذا الصدع الذى أخذ يستفحل ويشتد خطره ويهدد بانقسام خطير، وحتى يتجنب اسكندر وقوع مثل هذا الحدث، دعا إلى عقد مجمع فى الإسكندرية عام ٣٢١ ضم أساقفة مصر وليبيا، وبلغ عدد من حضره أكثر من مائة أسقف قرر لعن آريوس وأتباعه الذين سبق لنا ذكرهم بالإضافة إلى سكوندوس Secundus أسقف بطوليمايا Ptolemais إحدى المدن الخمس الغربية وثيوناس Theonas أسقف مارماريكا Marmrica [٤٢] .

وكان على آريوس أن يتصرف بسرعة حتى يدعم مركزه وآراءه، ومن ثم رحل عن الإسكندرية شاخصاً إلى فلسطين ومنها إلى نيقوميديا حيث صديقه يوسيبيوس الذى كان يحتل مكانة مرموقة فى القصر الإمبراطورى [٤٣]، وراح يشكو بثه وحزنه وما أنزله به ورفاقه اسكندر من اضطهاد . وكانت رسالته السابقة إليه قد أفصحت عن ذلك . حيث يقول آريوس : لقد أمسينا نعانى تلف الحياة لاضطهاد أنزله الأسقف بساحتنا، وما من جحر إلا وقذفت به وجوهنا، لفظونا ملاحدة خارج المدينة " [٤٤].

دعا يوسيبيوس النيقوميدى إلى عقد مجمع سنة ٣٢٢ ضم أساقفة بيثينيا، قرر

(42) ATHANAS. depos. Ar.; THEOD. hist. eccl. I, 3.
(43) SOZOM. Hist. eccl. I, 15.
(44) THEOD. hist. eccl. I, 4.

اتخاذ جانب آريوس وكتب إلى جمهور الأساقفة يدعوهم إلى نصرة الآريوسيين وقبولهم فى الشركة، وطلب إلى الأساقفة أن يسعوا جاهدين لدى اسكندر لإعادة آريوس ثانية إلى الكنيسة (٤٥) . غير أن اسكندر وقف من هذا الرجاء موقف المعارضة، وكتب بدوره إلى أولئك الأساقفة يشرح لهم نواحى الخطيئة فى عقيدة آريوس وعدم الاستقامة فى إيمانه " فأنّا وقد عاينا دنسهم صببنا عليهم اللعنة وأعلنا كفرانهم بإيمان الكنيسة القويم، وقد أحببنا أن نحيطكم أحبابى علماً، فإذا ما تجاسر بعض بالقدوم عليكم فلا تقبلوهم، ولا تنصاعوا لرغائب يوسيبيوس ومشايعيه . وإنه لخليق بنا نحن المسيحيين أن نولى دبرنا كل من يضاد المسيح بالقول وفكرا . أنهم أعداء الرب للأرواح مفسدون (٤٦) .

هكذا تحزب الفريقان، وازدادت فى واقع الأمر هوة الخلاف، وعد الفريق الآريوسى رفض اسكندر قبول زعيمه فى الكنيسة ثانية إهانة بالغة، فساده شعور بالسخط والاستياء واشتد عزم مريديه وحماسهم لتأييد العقيدة الآريوسية (٤٧) . وأرسل آريوس بدوره رسائل إلى كل من يوسيبيوس القيسارى وباولينوس الصورى، وباتروفيلوس Patrophilus البيسانى Scythopolis يلتمس السماح لنفسه وشيعته، حيث كانوا قبلاً قد وصلوا إلى منصب القسوسية، بالتبشير والعظة(٤٨) . وتلاقت آراء الأساقفة الثلاثة وغيرهم من أساقفة فلسطين عام ٣٢٣ حول تأييد وجهة نظر آريوس بالسماح له وأتباعه بلقاء رعيتهم فى الكنائس كحالهم من قبل، شريطة الخضوع لاسكندر، آمرين فى نفس الوقت آريوس أن لا يدخر وسعاً فى إعادة السلام مع الأسقف السكندرى حتى يرفرف على الكنيسة وئام (٤٩) .

على هذا النحو بدا للجميع أن كنيسة الإسكندرية تقف فى جانب، وفى الآخر جل كنائس الشرق الرومانى، ولاقت عقيدة آريوس على النحو الذى رأينا رواجاً

(45) SOZOM. Hist eccl. I, 15.
(46) ATHANAS. depos. Ar:; THEOD. hist. eccl. I, 3.
(47) SOZOM. Hist. eccl. I, 15.
(48) Id.
(49) Id.

كبيراً في الدوائر الكنسية، في فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى، وزاد في قوة آريوس انضمام أساقفة من ذوى الشهرة والمكانة إلى صفه شأن يوسيبيوس النيقوميدى وباولينوس أسقف صور، ويوسيبيوس أسقف قيسارية وغيرهم كثير (٥٠)

وغدت المسألة في غاية الحساسية والأهمية بين الآريوسيين وخصومهم، مجموعة ترتكز على إقناع الرجال المثقفين وأخرى تعتمد أساساً على الجموع، الأولى كانت قلقة تتطلع إلى إرساء العقيدة المسيحية على أساس منطقى عقلى والأخرى تعتمد العاطفة في جوهرها، وكان لابد أن تصطدم الطائفتان (٥١) . وقد تشجع آريوس - خاصة بعد القرار الذى أصدره أساقفة فلسطين فعاد إلى الإسكندرية ثانية، وعقد أنصار كل من الفريقين العديد من المجامع لإصلاح ذات البين، أسفرت في النهاية عن تعميق هوة النزاع بين الجانبين (٥٢). وبذلك تعرضت الكنيسة لما لم تشهده من قبل، حقيقة خرج عليها كثير من رجالها يدعون بآراء جديدة، ويناوئونها السلطان، ولكنها لم تكن على هذه الدرجة من الخطورة . وتأكل الحسرة قلب مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس لهذا الانقسام الذى يراه ماثلاً في الكنيسة بعد أن مّن عليها الرب بقبس من ضياء الحرية وسلام، فيلقى تبعة هذه الأحداث على حساد المسيحية وباغضيها(٥٣).

تلك كانت حال الكنيسة، ولم تكن الدولة أسعد حظاً ؛ ففى مطلع عام ٣٢٣ كانت لا تزال هناك صفحة من صفحات الحرب الأهلية في الإمبراطورية لم تطوها المقادير بعد، وكانت أقلام من الدم مدادها قد أعدت نفسها لتخط عليها قصة حرب طال توقعها بين قسطنطين وليكينيوس . ولم يكد العام يولى حتى هوى في الظل سيد الشرق، وخط يراع قسطنطين صحيفة نصره ونهاية حلم . وكم كانت فرحة الإمبراطور الجديد عندما أيقن أنه قد أصبح بين ظهرانى المستضعفين ممن وهبهم الحياة على حد تعبير يوسيبيوس (٥٤) . وكم كان حزن قسطنطين عميقاً عندما واتته

---

(50) EVSEB. Vita Const. II, 61. SOCRAT. Hist. eccl. I, 6.
(51) Painter, op. cit. p. 16.
(52) SOAOM. Hist. eccl. I, 16.
(53) EVSEB. vita Const. II, 61.
(45) Ibid. 67.

الكتب تحمل له نبأ انقسام استفحل خطره فى كنائس الإسكندرية والمشرق، ولم يكن الإمبراطور قد أفاق بعد من هول صدمة الشقاق الدوناتى، وهاهو ذا يواجه انقساماً أشد منه انقساماً. ولم يكن قسطنطين يعلم أبعاد هذه التفرقة، ولكن ما أثار شجونه أن يرى فى موطن المسيحية، الشرق، أمله ومبتغاه، صدعاً، ويقول سوزومنوس"... لقد شاعت فى نفس قسطنطين الحيرة واستبد به الغضب وساده اضطراب لهذا الذى يرى " (٥٥) . حسب العقيدة تجرى لمستقر لها فى درب الهدوء، فوجد فتنة تسبح فى بحر الشغب .

عزم قسطنطين على أن يتدارك الأمر منذ البداية، وهيأت له نشوة نصره وزهو كبريائه أن بعض كلمات منه كافية لحسم هذا الأمر، فاختار مستشاره فى الدين هوسيوس ليكون مبعوثه إلى اسكندر وآريوس فى الإسكندرية (٥٦) . وحمله رسالة إلى كل منهما تضمنت بالغ الحرص وعظيم القلق من أجل إحلال السلام فى ربوع الإمبراطورية (٥٧) . ونوه بأنه عمل على تسوية النزاع الذى نشب فى أفريقيا(٥٨) مشيراً إلى الدوناتيين بذلك، وأشار إلى الشرق باعتباره مهد هذا الدين، وكيف كان يأمل أن يجد فيه الوحدة والأمان (٥٩) . وأوضح إلى أى حد اغتم وحزن نتيجة هذا الانقسام الذى حل بالكنيسة (٦٠) ثم عرض بعد ذلك وجهة نظره فى هذا الصراع، قال :

" وبعد . . فأنا على يقين أن منبع الجدل الماثل هو ذلك . فأنت يا اسكندر عندما طلبت إلى القسيسين إبداء رأيهم حول أمر بعينه يخص الناموس . أو بالحرى.. يحسن قولى، عندما سألتهم عن قضية ما من ورائها طائل !! فإنك يا آريوس، أصررت بطيش وتهور على أمر ما كان حسناً أن تعمل الفكر فيه، ولئن

---

(55) SOCRAT. hist. eccl. I, 16.
(56) SOCART. hist. eccl. I, 7.
(57) EVSEB. vita Const. II, 65.
(58) EVSEB. vita Const. II, 66.
(59) Ibid. 67.
(60) Ibid. 68.

خامرك ليدفنن فى غيابة الكتمان، وهاهو بينكما الخلف قد نشب، بعد أن أغفلتما حق الأخوة، ووقعت الرعية المقدسة فى تمزق حزبى . ولم يعد للجسد الواحد وجود !

والآن . . أكلاكما على استعداد لتبديا من الرفق والتحمل قدراً واحداً فتقبلان نصح رفيق لكما يقدمه باراً قويماً ؟! (٦١) .

هكذا ألقى قسطنطين على اسكندر وآريوس تبعة الأحداث وحمل إياهما دوافع صراع كان من الممكن تجنبه لو أن آريوس أغلق على الرأى الحر فكره . ويتساءل الإمبراطور .

" كيف يا ترى يكون نصحى ؟!

خطأ فى البدء أن تطرح القضايا على نهج هذا، والخطأ بعد فى نقاشها. فمسائل الجدال هذه وليس لها من الشرعية نصيب، وتمليها روح صراع وليدة فراغ أسىء شغله، حتى ولو قصد بها رياضة الذهن، ينبغى أن تظل حبيسة فكرنا، بعيدة عن آذان الجموع . أليست قلة تلك التى تعى مثلها ؟ فهى أمور علوية ذات طبيعة خفية، ولنقل آن واحدا قادر على إدراكها، فكم يا ترى من الجمع يلم بها ؟ وحتى هذا الذى يعيها تراه لا يحيد عن سَوىّ الصراط ؟ يتحتم علينا من ثم أن نقصد فى القول لأننا لا نقوى وطبيعة الحال على أن نفسر تلك المسائل، ولئن استطعنا إلى ذلك سبيلاً فمن مِنّ السامعين عساه أن يفهم . فالرعية لسبب أو لسبب قد تجدف أو تنشق " (٦٢) .

على هذا النحو يكشف قسطنطين عن عدم معرفة مطلقاً بطبيعة الجدل الدائر بين المسيحيين وأنفسهم، فطائفتان تختصمان حول طبيعة المسيح، رأس العقيدة، بينما الإمبراطور لا يعنيه من أمر هذا الجدال شيئاً، بل ويعتبره نتيجة فراغ أسىء استغلاله، فالخلاف إذن كما يبين من حديث قسطنطين لا يهمه فى شىء قدر ما يعنيه جدل الرعية، فلو أن آريوس واسكندر أغلقا على نفسيهما أبواب الكنيسة

(61) EVSEB. vita Const. II, 69.
(62) EVSEB. vita Const. II, 69.

وراحا يقلبان ظهر الأرض وباطنها وصولاً إلى لقاء، ما حرك ذلك شعرة من رأس الإمبراطور، أما أن ينفتح باب البيعة وتغشى الجموع حكاية الخلاف، فذلك شيء يثير غضب الإمبراطور ويؤرقه ! فالناس على جهلهم سائرون إلى فرقة أو زيغ، ومن ثم أفصح الإمبراطور عن دفين غيظه وراح فى لهجة خالية من كل وقار يكيل للرجلين أقذع العبارات، يحملهما تبعة الفوضى ويحذرهما مغبة ما ورطا فيه نفسيهما والجموع . قال :

" ولنر هل أصبنا حيث اختلفنا فى كلمات العبث والغباوة أن نعادى بعضنا بعضاً، وتمزقت جماعتنا لخلف أصابنا بكُما . أنتما يا من يتعالى صياحكما حول نقاط كم هى تافهة وضيعة، سوقية هى !! وخلة حمق صبيانى، تقف والضد من حصافة الأكليروس والعقلاء !! ذلك حديث أقوله لكما دون رغبة فى قهركما على التوافق حول هذه المسألة العقيمة مهما كان كنه طبيعتها . وفيما يختص بشجاركما على أمور لا جدوى منها، فعليكما إن صعب الوئام، أن تقصرا تلك على دواخل فكركما والعقل " (٦٣) .

واختتم قسطنطين رسالته بقوله " أعيدوا إلى أياما خوالى، وليالى غفت فيها جفونى، حتى ينالنى بهجة الضوء الوهاج ومسرة سكينة الحياة " (٦٤) .

على هذا النحو أبدى قسطنطين رأيه فى أمر الخلاف العقائدى المحتدم بين كنائس الإمبراطورية فى قسمها الشرقى، وواضح من حديثه مدى بعده عن هذه المسائل الكريستولوجية وقلقه البالغ لما نجم عن هذا الصراع من فرقة وانقسام بين رعايا المسيحية، وليس أدل على ما ذكرناه فى الفصل الثالث عن مسيحية قسطنطين، مما جرى به قلم الإمبراطور نفسه، فحامى حمى المسيحية يصف نقاط الخلاف الجوهرية حول طبيعة المسيح بأنها تافهة ووضيعة وسوقية وأمور صبيانية، أى تفتقر إلى العقل بل إلى كل ما هو نبيل وأخلاقى، ترى هل يمكن أن تصدر هذه العبارات عن إمبراطور ملأ الدنيا ضجيجاً أو ملأها باسمه مداحه

(63) Ibid. 71.
(64) EVSEB. vita Const. II, 72.

يوسيبيوس القيسارى، يدعى المسيحية، أو حتى هل يمكن أن تكون المسيحية قد مست ولو جزءاً يسيراً من شغاف قلبه ؟! فكيف يمكن القول فعلاً أن قسطنطين اعتنق المسيحية ؟ وكيف يقيم بعض المؤرخين الدنيا ويقعدونها حول كونه مسيحياً وهو يصف الحوار حول المسيح بـ" الغباوة " و" التفاهة " و" التدنى " ؟! :

جاء هوسيوس برسالة الإمبراطور إلى الإسكندرية، وحاول رأب الصدع الذى هز كنيستها وامتد إلى الكنائس الأخرى . فدعا إلى عقد مجمع دينى فى الإسكندرية عام ٣٢٤ قرر حرم آريوس ورفاقه (٦٥) . وعاد إلى الإمبراطور يحمل إليه أنباء إخفاق مسعاه فى التوفيق بين آريوس واسكندر، وفى طريق العودة توقف فى أنطاكية منتهزاً فرصة وفاة أسقفها فيلوجون Philogonius حيث دعا فى ديسمبر سنة ٣٢٤ إلى عقد مجمع كبير ضم الأساقفة من كل الأقاليم التى تنظر إلى أنطاكية باعتبارها عاصمتها الروحية، من كيليكيا وميزوبوتاميا فى الشمال حتى فلسطين جنوباً، وكان المجمع فى جملته معادياً للآريوسية فقرر اختيار يوستاتيوس Eutstathius خصم الآريوسية العنيد أسقفاً للمدينة خلفاً لفيلوجون (٦٦) . وقرر المجمع أيضاً إدانة العقيدة الآريوسية (٦٧) وثلاثة من مؤيدى آريوس هم ناركيسوس Narcissus أسقف Neronias (بانياس)، وثيودوتوس أسقف اللاذقية Laodicea ويوسيبيوس أسقف قيسارية Caesarea فلسطين، وبعث المجمع بقراراته هذه لا إلى أساقفة الشرق فحسب بل إلى أسقف روما أيضاً لإذاعتها فى الغرب (٦٨) . وقد يتساءل سائل حول إمكانية إدانة آريوس ورفاقه فى مجمع أنطاكية سنة ٣٢٤ رغم ما ذكرناه آنفاً من تأييد عدد كبير من أساقفة الشرق لآريوس ؟ والذى يجب الانتباه إليه أن معظم من أدانوا آريوس كانوا من صغار الأساقفة الذين يطمحون إلى إرضاء مندوب الإمبراطور ومستشاره هوسيوس، توطئة لكسب جانب الإمبراطور، وكان هذا بداية ظهور جماعة الأساقفة السياسيين الذين سوف يتسع نطاقهم فيما بعد، ولعل ما يؤيد قولنا هذا أن كبار أساقفة الشرق قد تمت إدانتهم أيضاً إلى جانب آريوس .

(65) Ibid. 73.
(66) Jones, Later Roman Emire, I, p. 86.
(67) Downey, op. cit. p. 351.
(68) Jones, Constantine, p. 150.

بهذا السلوك نقل أساقفة مجمع أنطاكية صراعاً خاصاً بالقسم الشرقى من الإمبراطورية عدة سنوات إلى الغرب، وأضحى الجدال حول العقيدة الأريوسية يغطى كنائس الإمبراطورية بضوضائه . وقد انعكس هذا على سلوك الإمبراطور ذاته ومحاولته حل هذه المشكلة التى اتسعت حلقة روادها، فقد كانت النية متجهة فى أول الأمر، بعد أن تبين إخفاق هوسيوس فى الإسكندرية، إلى عقد مجمع يضم أساقفة الشرق فى مدينة أنقرة . وقد ظهرت هذه الفكرة أولاً لدى المجمع الذى عقد مؤخراً فى أنطاكية (٦٩) . على اعتبار أن هذا الجدل قائم فى الولايات الشرقية فلما أنبأ مجمع أنطاكية البابا بحقيقة النزاع، وأصبحت المسألة معلومة لدى الغرب. قرر قسطنطين أن يكون مجمعه المقبل مسكونياً يضم أساقفة الإمبراطورية كلها، ليكون قرارهم عاماً جازماً . ولم تكن معرفة البابا بهذا الأمر هى وحدها التى دفعت قسطنطين لجعل المجمع عالمياً، بل كان وراء ذلك عاملان أشد أهمية، أولهما إفادته من المشكلة الدوناتية فى الغرب، والثانى وهو الأهم أن يجمع تحت سلطانه فى بداية عهده كل رجال الكنيسة الذين فتح عليهم أبواب رحمته وواسع كرمه، ليقر الجميع منذ البداية بسلطانه . . وهذا ما كان . ورأى قسطنطين عقد المجمع فى مدينة نيقية Nicaea فى بيثينيا (مكانها الآن قرية أزنيق Isnik التركية)(٧٠) حتى يتمكن أساقفة إيطاليا وباقى كنائس أوروبا من حضور المجمع ولملائمة مناخها، وفوق هذا وذاك حتى يكون نفسه على مقربة من متابعتهم والاشتراك فى مناقشتهم (٧١).

كان مجمع نيقية أول مجمع مسكونى Ecumenical شهدته الكنيسة، وقد عقد بناء على دعوة وجهها الإمبراطور قسطنطين إلى مختلف كنائس الإمبراطورية . ويعد يوسيبيوس ذلك العمل من جانب الإمبراطور اعترافاً منه بأيادى المخلص البيضاء عليه (٧٢)، وكان فى حد ذاته محاولة جديدة وجريئة لحل

(69) Downey, op. cit. p. 351; Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 80.
(70) Backhouse, op. cit. p. 399.
(71) EVSEB. Vita Const. III, 6. 7.
(72) Ibid. 8.

الخلاف الحادث فى الكنيسة . حقيقة جرت عادة الكنيسة قبلاً على عقد المجامع الدينية لإدانة "بدعة" جديدة أو القضاء على " انشقاق "، ولكنها كانت فى معظمها مجامع محلية Synods يلتقى فيها الأساقفة والقسوس والشمامسة فى مركز أبروشية، وربما اتسعت قليلاً لتشمل كنائس الولاية أو الإقليم (٧٣).

لعل قسطنطين قد أفاد من التجربة التى قاساها فى ولاية أفريقيا، خاصة وأن الدوناتيين رفضوا الامتثال لقرارات مجمعى روما وآرل، وعلى الرغم من أن الأخير كان يضم معظم أساقفة الغرب عندئذ، ويمثل عالمية عالم قسطنطين آنذاك. إلا أن الدوناتيين لم ينصاعوا لما أسفر عنه لقاء الأساقفة، فلا يبعد إذن أن يكون الإمبراطور قد أراد بمجمع نيقية المسكونى أن يكون قاضياً جملة وتفصيلاً على هذا النزاع المستفحل فى الكنيسة . ولابد أن يكون قسطنطين قد وعى تماماً مدى الخطورة التى تهدد وحدة الإمبراطورية من جراء هذا الصراع .. فإذا كانت المسألة الدوناتية اقتصرت على ولاية أفريقيا وحدها، فأخذت بذلك الطابع المكانى، فإن الآريوسية لم تكن كذلك حيث امتدت من الإسكندرية لتشمل طيبة وليبيا وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى، وهى مناطق طالما هفا إليها فؤاد الإمبراطور وكم راودته آمال هدوء وسلام أمل أن يجدها هناك . ومن ثم فقد أراد الإمبراطور أن يحسم الأمر دفعة واحدة بهذا المجمع الذى يضم هذا العدد من رجال الكنيسة فى الشرق والغرب وليعيد أمام الجميع من جديد توزيع لحن الخيرات على قيثارة المن، ولعل هذا بين فى خطاب قسطنطين الذى وجهه إلى أعضاء المجمع، يقول :

" أحسست وخزاً فى روحى، وبدا لى أن الأمر ليس بقليل فى الأهمية، ومن ثم فقد حدثـنى الرغبة فى تقديم حل لهذا الشر، وعليه فقد دعوتكم للحضور، وإنى إذ أشعر بارتياح عظيم وأنا أشهد مجمعكم، لعلى يقين بأن آمالى ستغدو حقيقة إذا ما قدر لى أن أرى وحدة قراراكم " (٧٤) .

---

(73) Thompson & Johnson, op. cit. pp. 46-47.

(74) EVSEB. vita Const. III, 12.

ثم هاهو قسطنطين يبتهل إلى الأساقفة آمراً أن يجدوا طريقهم على الفور إلى الوحدة والوئام قائلاً :

" يا رفاقى الأعزاء . . يا رجال الله، يا أتباع من هو سيدنا والمخلص . . بالله لا تتباطأوا . . لا تتوانوا، لتبدؤن على التو فى نبذ دواعى فرقة شاعت بينكم، ولتمحون ركائز جدالكم، وما ذلك إلا بأن تحتضنوا أغصان السلام، فإن فعلتم كنتم فى ذات الوقت تسلكون طريقاً رضى عنه الرب العلى، وتقدمون لشخصى فضلاً كبيراً . . أنا وليكم والصفى "(٧٥) .

أراد قسطنطين بجمع هذا الحشد من الأساقفة، بناءً على دعوته، أن يثبت سلطانه فوق الكنيسة، وأن يظهر للرعية المسيحية مدى حرصه على العقيدة وحدبه على تخليصها من أية شائبة، وذلك شيء نلمسه فى رسالته التى دعا فيها الأساقفة لهذا المجمع حيث أبدى رغبته الأكيدة فى الاشتراك فى المناقشات الجدالية العميقة وأصر على متابعة أعمال المجلس (٧٦) رغم عدم إلمامه بالمسائل الكريستولوجية التى يدور الجدل حولها كما وقفنا على ذلك من رسالته إلى اسكندر وآريوس، بل واحتقاره لمناقشة مثل هذه القضايا التافهة على حد تعبيره .

على أية حال فقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته مظاهرة دينية قصد بها الإمبراطور إعلاء شأوه وبسط نفوذه على الكنيسة المسيحية ورجالها، فكما كان الإمبراطور فى الدولة الرومانية هو الكاهن الأعظم Pontifix Maximus وهو لقب لم يتخل عنه قسطنطين، فقد أراد بالتالى هنا أن يغدو رجل المسيحية الأول الذى اختارته العناية الإلهية ليقر على الأرض السلام وليمجد الرب فى الأعالى !!

ولم يقف دور قسطنطين عند حد إرسال دعوته إلى الأساقفة وحسب بل تخطاه إلى التكفل بنقل المدعوين إلى نيقية، فسمح للبعض باستخدام وسائل النقل العامة، وأمد البعض الآخر بالخيول اللازمة لسفرتهم حتى لا يشعر رجال الله

(75) Id.
(76) EVSEB. vits Const. III, 6-7.

بضائقة أو مشقة [٧٧] . ولبى الجميع الدعوة وارتحلوا إلى هناك يحدوهم جميعاً الأمل فى نتائج طيبة يمكن أن يسفر عنها هذا الاجتماع [٧٨] . ومثل فى المجمع أساقفة من سوريا وكيليكيا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وطيبة وليبيا وميزوبوتاميا وآسيا وفريجيا وجالتيا وبامفيليا وكبادوكيا ومقدونيا وآخايا وأبيروس وتراقيا وأسبانيا كما حضره مندوبون من فارس وسكيثيا وبونطس . أما سلفستر أسقف روما فلم يحضر وأرسل فيتو Vito وفيكينتيوس Vicentius مندوبين عنه[٧٩]، ويذكر سقراط أن قسطنطين دعا إلى الاجتماع أكسيوس Acesius أسقف النوفاتيين [٨٠]، ويضيف أن أحد قبله لم يذكر هذه الواقعة ولا حتى يوسيبيوس نفسه، ويقول أنه تلقاها عن رجل طاعن فى السن كان على مقربة من هذه الأحداث[٨١] .

ويختلف المؤرخون فى عدد أساقفة المجمع، فيذكر يوسيبيوس [٨٢] أنهم حوالى ٢٥٠ أسقفاً، على حين يحددهم سقراط بـ ٣٠٠أسقف [٨٣]، أما سوزومنوس فيقول أن عددهم كان ٣٢٠ [٨٤]، ويخبر أثناسيوس أنهم كانوا ٣١٨ أسقفاً [٨٥] وإن كان عددهم عند ثيودوريت يصل إلى ٢٧٠ [٨٦]، وربما كان هذا التفاوت راجعاً إلى تعمد هؤلاء، وكلهم للآريوسية عدو، إغفال ذكر أسماء الأساقفة الآريوسيين،

---

(77) Ibid. 6.
(78) Id.
(79) SOCRAT. *hist.* eccl. I, 13; SOZOM, hist. eccl. I, 17.
(٨٠) نسبة إلى نوفاتيانوس Novatianus أحد رجال الكنيسة المتطرفين فى روما، الذى ناصب كورنيليوس Cornelius أسقف روما فى خمسينيات القرن الثالث، العداء، للخلاف حول قبول المارقين زمن الاضطهاد ثانية فى الكنيسة، ويطلقون على أنفسهم المتطهرين، شأن الدوناتيين فى أفريقيا والمليتيين فى مصر، وكان سقراط المؤرخ يميل إلى هذه الطائفة .
(81) SOCRAT. hist. eccl. I, 10.
(82) EVSEB. Vita Const. III, 8.
(83) SOCRAT. *hist.* eccl. I, 8.
(84) SOZOM. Hist. eccl. I, 17.
(85) ATHANAS. hist. Arian. 66.
(86) THEOD. *hist.* eccl. I, 7.

وإن كان الشائع أن عددهم ٣١٨ أسقفاً (٨٧) . وكان أغلب الحضور يمثل أساقفة الكنائس الشرقية أما كنائس الغرب فلم يتجاوز عدد مندوبيها الثمانية . وقد شهد مجمع نيقية عدد من الشخصيات البارزة من رجال الدين فى الشرق على غرار اسكندر أسقف الإسكندرية وشماسه أثناسيوس الذى نال شهرة فائقة نتيجة حواره مع الآريوسيين، ويوسيبيوس أسقف قيسارية، ويوسيبيوس الأسقف النيقوميدى ويوستاثيوس أسقف أنطاكية، وما ركللوس أسقف أنقرة، ومكاريوس أسقف أورشليم(٨٨).

ويرسم سوزومنوس صورة حية لما كانت عليه الحال فى نيقية عندئذ، ويحدثنا حديثاً شيقاً عن أولئك الأساقفة شهود المجمع، فبعضهم تحنى له الهام تقديراً لعلمه وفصاحته ووعيه للكتاب المقدس، وبعض ثان تعرف فى وجوههم مسحة الزهد وجلال الخشوع، وثالث جمع هذا كله، ومن الرجال من مهر فى الجدل وبرع فى النقاش . ولكن هذا لم يحل دون ارتحال بعض الأساقفة إلى هناك لقضاء حاجياته وشئونه الخاصة بعد أن وجدها فرصة سانحة ليتخلص من حيف نزل به أو ظلم آلمه، وغيرهم راح يتلمس أخطاء الآخرين ليقدمها فى شكاية إلى الإمبراطور طالباً منه العدل والقصاص، بينما راح آخرون دون أن يعوا من أمر ما ذهبوا إليه شيئاً!!(٨٩) .

وفى ٢٠ مايو ٣٢٥ التأم عقد المجمع (٩٠)، ويصور يوسيبيوس اللحظات التى سبقت دخول الإمبراطور القاعة ثم تلك اللحظة الحاسمة التى " شرف فيها قسطنطين جموع الحاضرين بمقدمه بكونه رسول السماء "، ويمضى المؤرخ الكنسى بعد ذلك يخلع صفات التمجيد على إمبراطوره (٩١) . ويرسم صورة لأولئك الجلوس الذين أحاطوا به، والذى كان هو أحدهم، ثم يقول إن الأسقف الذى

---

(87) Duchesne, op. cit. II, 144.
(88) SOCRAT. hist. eccl. I, 13; SOZOM. Hist. eccl. I, 17.
(89) SOZOM. Hist. eccl. I, 17.
(90) Hefele. Op. cit. I, 1, pp. 416-419; Palanque-Bardy.
(91) Latourette, op. cit. III, 10.

كان يحتل المكان الرئيسى عن يمين الإمبراطور نهض وخاطبه شاكراً حسن صنيعه الذى أسداه للدين القويم، مثنياً على فضائله وعظيم خلاله وسجاياه (٩٢) . وعلى الرغم من أن يوسيبيوس لم يفصح لنا عن شخص ذلك الأسقف، إلا أنّا نعلم من سوزومنوس أنه لم يكن سوى يوسيبيوس نفسه (٩٣) .

انتهى يوسيبيوس من إلقاء كلمة الافتتاح والترحيب بالإمبراطور، فظللت القاعة برهة من الصمت تعلقت فيها كل العيون بالإمبراطور، فقد كانت تلك هى المرة الأولى منذ بشر المسيح بدعوته التى يحظى فيها رجال الدين المسيحى بالمثول جماعة فى حضرة الإمبراطور " وتلك لحظة لابد أن يسجلها الزمن لقسطنطين، وأن يرفعه بها هؤلاء على أقلام مؤرخى الكنيسة إلى مصاف رسل المسيح، وما لبث قسطنطين أن قطع هذا السكون وراح يردد فى نغمة هادئة :

" أعزائى . . لكم داعبنى الأمل منذ أمد أن أحظى برؤياكم والكل متحد . والآن وقد تحقق الأمل . أشعر لزاماً على أن أتقدم بالشكران لإله الكون، فقد أنعم على بخير جديد، ومنحنى من البركات ما فاق ما سبق، فها أنذا أشهدكم وقد جمعكم على الوحدة وئام عاطفة واحدة . إلى الله أبتهل أن يكف أيدى السوء والفحشاء عنا، وأن لا يسمح لخصم أن يعكر صفو سلام بلدنا السعيد، وإليه أضرع بعد أن زالت بيد الرب مخلصنا، بغضاء الطواغيت الآثمين . ألا تُقدم نفس أمارة بالسوء تحيك المؤامرات الدنيئة من أجل تعريض شريعة الله للتجديف والزيغ. فالصراع الداخلى فى الكنيسة – يعد فى رأيى – أشد خطراً من أى حرب أو نزاع . إن خلافاتنا هذه تبدو لى أكثر فاجعة إذا ما قورنت بأى شكل خارجى، وعليه لما كنت بمشيئة الرب وعونه قد قهرت الأعداء، قدرت أنه لم يعد باقياً إلا أن أقدم فرائض الشكر لله والثناء، وأشارك بهجة هؤلاء الذين رد إليهم الله الحرية بى " (٩٤) .

والمتأمل لما ورد فى هذا الخطاب يدرك للوهلة الأولى أن الإمبراطور لم

(92) Ibid. 11.
(93) SOZOM. Hist. eccl. I, 19.
(94) EVSEB, vita Const. III, 12.

يخرج هنا عما كتبه فى رسالته إلى كل من اسكندر وآريوس من قبل فيما يتعلق بخطورة هذا الانقسام، خاصة وهو يؤمن أن هذه المسائل المتنازع عليها غير جديرة بالأهمية، ومن ثم فهو يعلن هنا صراحة أن هذا الصراع الداخلى " أشد خطراً من أى حرب أو نزاع " بنص كلماته .

ثم راح يحدثهم بعد ذلك عن الأسباب التى حفزته إلى توجيه الدعوة إليهم للاجتماع، وأمله الكبير فى أن تلتقى آراؤهم على قول واضح لا خلاف عليه، حتى تتحقق الوحدة ويسود السلام . ورغم أن الحضور كان جلهم من الشرق الذى يتحدث اليونانية، إلا أن الإمبراطور ألقى كلمته باللاتينية .

ويبدو هذا أمراً طبيعياً يتفق وقلة إلمامه باليونانية . وذلك شىء نعلمه من يوسيبيوس وسوزمنوس (٩٥) . وإن كان المؤرخ جونز يعلق على ذلك بقوله إن قسطنطين فعل ذلك لا لجهله باليونانية ولكن لأنه وجدها الفرصة السانحة ليؤكد رسمية اللاتينية كلغة للإمبراطورية (٩٦) . خاصة وأن اليونانية كانت عندئذ لغة الكنيسة (٩٧). وهذا ما أكدنا عليه سابقاً من الهدف الأساسى الذى أراد الإمبراطور تحقيقه من عقد مثل هذا المجمع العام .

أعطى قسطنطين بنهاية حديثه إشارة البدء لرجال الكنيسة فى عرض قضاياهم، ولكنهم بدلاً من أن يبحثوا بداءة ما لأجله دعوا، راح بعضهم يكيل للآخر الكثير من الاتهامات، واستحالت القاعة إلى ميدان يتبارى فيه المتخاصمون(٩٨) . فوقف الإمبراطور بذلك على حقيقة لم يكن يتمنى رؤياها ووضح له أن أمل وحدة الإمبراطورية عقيدياً ليس بالسهولة التى طواها به سياسياً وعسكرياً .

ومرت الأيام والإمبراطور يشهد كل يوم مزيداً من هذه الشكايات فلما هاله

(95) EVSEB. vita Const. III, 13; SOZOM. Hist. eccl. I, 20.
(96) Jones. Constantine. p. 156.
(97) Davis, op. cit. p. 18.
(98) Sozom. Hist. eccl. I, 17.

ما رأى حدد يوماً وأمر بالاتهامات وردودها فجيء بها، ثم راح يتفرس وجوه الحاضرين مخاطباً ضمائرهم وعقولهم قائلاً :

" تُرى . . ما كل هذا ؟! ذاك شيء يؤتى به يوم الدينونة للعرض والحساب، يفصل فيه القاضى الأعظم . . أما أنا فلست إلا بشراً مثلكم . وإنه لشر لى أن تشملنى فى كل الأمور صلاحية، فما بالكم وكل الخصوم رجال الله !! ما كان لهم أن يقفوا وإياهم طرفى نقيض، فلتقتدوا بالمحبة السماوية ورحمة الرب، وليحل بينكم الوئام . إذن . . لتطرح على التو شكاياتنا . ولنعط كل اهتمامنا لشيء من أجله جئنا . ذلكم هو الإيمان (٩٩) .

وعليه فقد أصدر الإمبراطور أمراً فجمعت حصيلة الأيام من الاتهامات وأطعمت بها النيران (١٠٠).

تفرغ المجمع بعدئذ لمناقشة موضوع العقيدة، ومحاولة التوصل إلى صيغة للإيمان ترضاها الكنيسة كلها . وعقدت اجتماعات جانبية عديدة دعى إليها آريوس ليوضح عقيدته . وراح كل فريق يعرض حججه وأسانيده ولكنها لم تسفر عن شيء سوى شهرة اكتسبها بعض الشخصيات منهم أثناسيوس السكندرى (١٠١) . وعادت حمى الجدال والنقاش من جديد تسرى بين أعضاء المجمع . ويمتدح يوسيبيوس صبر الإمبراطور وسعة صدره لتحمل هذا الفريق أو ذاك . مثنياً على أولئك الذين أحسنوا الحديث . مستهجناً من أبدى ميلاً للعناد والمهاترة، وقد أخذ نفسه بالشفقة والرحمة على كل فرد، بل إنه قاد أحياناً أشد المتخاصمين وأعتاهم إلى التسامح والوئام، وتمكن ببشاشته التى كان يوجه بها حديثه إلى الجميع، أن يظهر بصورة جذبت إليه أفئدة الحضور وازداد حبهم له وتعلقهم (١٠٢) .

أما ما دار فى المجمع وما تمخض عنه، فلنترك الحديث لشيخ مؤرخى

(99) Id.
(100) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(101) Id.
(102) EVSEB. vita Const. III, 13.

الكنيسة يوسيبيوس يروى ذلك . كما رواه من قبل لأهل بيعته فى قيسارية في رسالته التى بعث بها إليهم إبان انعقاد المجمع يقول : " لعله قد نمى إلى علمكم من مصادر أخرى ما تقرر بشأن إيمان الكنيسة فى مجمع الأساقفة العام فى نيقية . فصيت جليل الأعمال يسبق الرواية عنه . ولكن خشيتى من تسرب شائعات لا تتفق والصدق، قدرت لزاماً على أن أوافيكم أولاً بصيغة الإيمان التى عرضناها، وأثنى بتلك التى نشرت مع الإضافات التى أدخلت على دستورنا، وفيما يلى سأتلو عليكم ما قرأته فى حضرة إمبراطورنا الورع، والذى قيل عنه إنه على الحق المبين . ذلكم قانون إيماننا . . .

" وفق ما تعلمنا بادئ ذى بدء، وما لُقنا وقت العماد وما تلقينا عن أساقفة سبقونا، وما علمنا من الكتاب المقدس وفق ما يؤمن به القسيسيون والأساقفة وبه يبشرون . نؤمن نحن، ونفصح على هذا الأساس عن إيماننا .. نؤمن بإله واحد . آب قدير . خالق كل شيء . ما يُرى وما لا يُرى، وبرب واحد يسوع المسيح، كلمة الله . . إله من إله . نور من نور . حياة من حياة . الابن الوحيد المولود . أول من ولد دون سائر الخلائق، مولود من الآب قبل كل الدهور، كل شيء به كان، الذى من أجل خلاصنا تجسد، وعاش بين البشر، تألم وقام فى اليوم الثالث، وصعد إلى الآب وسيأتى ثانية فى مجده ليدين الأحياء والأموات، نؤمن بالروح القدس الواحد . نؤمن بوجود ودوام كل ذلك، الآب فى الحق هو الآب، والابن هو الابن . والروح القدس هو الروح القدس . كما فعل سيدنا حين بعث تلاميذه ليبشروا بالإنجيل قائلاً : " اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ١٩/٢٨)".

" نحن مستمسكون بالإيمان هذا، وعليه نحيا حتى نموت لاعنين كل هرطقة دنسة، ونشهد الله القدير وربنا يسوع المسيح، أننا كنا نعتقد هكذا بملء قلوبنا وبروحنا منذ وعت نفوسنا ذواتنا، ونملك من الأدلة ما يريكم بل ويقنعكم إنّا بهذا آمنا وكرزنا " .

" عندما أفصحنا عن هذه العقيدة، لم يكن هناك من يفندها، بل إن إمبراطورنا الحبيب نفسه كان أول الشهود على صدق إيماننا، وتوافقت معها آراؤه، وراح يحث الآخرين على التوقيع عليها، وقبول كل ما احتوته من عقيدة على أن تضاف إليها عبارة واحدة هى " من نفس الجوهر " " الهوموسية " Homoousius (Consubstantial)وأوضح الإمبراطور أن هذه الإضافة لا تعنى أية صفات جدية أو تحول، لأن الابن لم يشتق وجوده من الآب بانقسام أو انبثاق، ذلك أن الطبيعة اللامادية المجردة اللاجسدية لا يمكن بحال أن تخضع لصفة جسدية أو تحول، تلك أمور ينبغى إدراكها باعتبارها تعاليم علوية خفية، على هذه الشاكلة حاج إمبراطورنا التقى الحكيم . وقد أسفرت إضافة عبارة " من نفس الجوهر " عن إيجاد الصنيغة التالية :

" نؤمن بإله واحد . الله الآب . ضابط الكل . خالق السماء والأرض، ما يُرى وما لا يُرى، نؤمن برب واحد يسوع المسيح . المولود من الآب قبل كل الدهور . نور من نور . إله حق من إله حق . مولود غير مخلوق . مساو للآب فى الجوهر . الذى كل شيء به كان . هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، تأنس وصلب على عهد بيلاطس النبطى، تألم وقبر وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب . وصعد إلى السماوات وجلس عن يمين أبيه، وأيضاً يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات، الذى ليس لملكه انقضاء ".

ويمضى يوسيبيوس فى حديثه لأهل بيعته قائلاً :

" وعندما سجلوا هذه الصيغة لم تتركها دون فحص فى جزئها القائل بأن الابن من نفس جوهر الآب وبرزت مساءلات ونقاش، وبحث بدقة تامة مضمون هذا القول، وعليه فقد اقتيدوا للاعتراف بأن عبارة " من نفس الجوهر " تعنى أن الابن من الآب . وليس جزءاً منه . ومن ثم فقد رأينا من الصواب تقبل هذا الرأى حباً فى السلام، وخشية الانحراف عن قويم الإيمان . ولنفس العلة قبلنا عبارة "مولود غير مخلوق" . فقد قالوا إن كلمة مخلوق تنسحب على سائر الخلائق، ولا

يصح أن يكون الابن شبيهاً بها، وعلى هذا فهو ليس بشيء مخلوق، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق . والكتاب المقدس يعلم بأنه مولود من الآب بطريقة يصعب إدراكها ولا يمكن التعبير عنها لبني البشر . ونفس الشيء يخص عبارة "من نفس الجوهر مع الآب " وعندما فحصنا ذلك قبلناه لا على معنى اتصاله بالجسد أو مشابهته بالكائنات الفانية، وقد اتضح أيضاً أن هذا لا يعني انقساماً في الجوهر أو انبثاقاً أو تحولاً أو تغييراً أو تضاؤلاً لقدرة الآب فذلك كله غريب عن طبيعة غير المولود . ولقد استقر الرأي على أن القول بعبارة " من نفس الجوهر مع الآب " تعني أن ابن الله لا يشبه، بأي حال من الأحوال المخلوقات التي جبلها، الله، ولكنها بالنسبة للأب، الذي ولده، مثيل له تماماً في كل شيء لأنه من جوهر وفحوى الآب . وبعد أن أعطى هذا التفسير للعقيدة، بدا لنا صواب موافقتنا عليه، خاصة وأننا ندرك أن القدامى من مشاهير الأساقفة والكتبة، قد استعملوا عبارة " من نفس الجوهر " للتدليل على الوهية الآب والابن .

" تلكم هي الظروف التي رأيت لزاماً على إبلاغكم إياها حول الصيغة التي نشرت عن الإيمان، ولقد وافق عليها جمعنا بعد تمحيص وفحص للآراء دقيق في حضرة إمبراطورنا الحبيب . ومن أجل الدواعي التي سبق لنا ذكرها قبلنا جميعاً هذه الصيغة، لأنها تحرم استخدام الألفاظ التي لم ترد في الكتاب المقدس، والتي بسببها قام النزاع والشقاق داخل الكنيسة، وحيث أن الكتاب المقدس لم ترد به هذه العبارات أو ما هو من شكلها، بدا لنا عدم معقولية تداول هذه العبارات، واقتناعاً بهذا الرأي، رأينا صواب الموافقة لأننا لم نسمع من قبل ولا اعتدنا مثل هذه التعبيرات . وزيادة على ذلك فإن إدانة القول بعبارات من قبيل أن " الابن لم يكن قبل أن يولد " وأيضاً " من العدم " و " وكان هناك وقت الابن فيه لم يكن " لا تبدو متضمنة عدم تناسب أو ملاءمة، فالجميع متفق على حقيقة أنه ابن الله قبل ولادته. بالجسد . ولقد راح إمبراطورنا محبوب الرب يفسر أصل الابن الإلهي ووجوده قبل كل الدهور لأنه بحق كان في الآب دون توالد حتى قبل ولادته فالآب دوماً هو الآب . تماماً كما أنه على الدوام الملك المخلص، وبحق هو كل شيء لم يعتوره تغير أو تبديل " (١٠٣) .

(103) SOCRAT. hist. eccl. I, 8; THEOD. eccl, I, 11.

هذه صورة لما دار فى المجمع النيقى المنعقد فى مطلع القرن الرابع للبحث عن قانون للإيمان القويم ترتضيه الكنيسة الجامعة، ونعلم من أثناسيوس (١٠٤) أيضاً أن مسألة الاتفاق على صيغة لهذا القانون لم تكن سهلة ميسرة . فقد طُلب بداءة إلى الفريق الآريوسى أن يعرض آراءه، ولما تم ذلك تولى الأساقفة المعارضون الرد عليها وشجبها، واستغرق ذلك فترة من وقت المجمع ليست بالوجيزة، وبعدها راح المؤتمرون يناقشون حول الصيغة التى يبتغونها حتى توصلوا إليها على النحو الذى أعلمنا إياه يوسيبيوس .

يتضح من رسالة يوسيبيوس أن أهم نقطتين للخلاف بين الفريقين انحصرت فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر " الهوموسية " Homoousius والأزلية، فهذه تمسك بها مناهضو الآريوسية التى أصر أتباعها على القول بأن الابن مشابه للأب فى الجوهر " الهومويوسية " Homoiousius وليس مساوياً له فى الأزلية لأن الآب سابق عليه فى الوجود وهناك فترة لم يكن فيها الابن (١٠٥) . والثانية القول بالخلق أو الولادة . فالآريوسيون لم يفرقوا بين كلمتى مولود ومخلوق، فهم يستخدمون اللفظتين للتعبير عن نفس المعنى، وتلك حقيقة نلمسها من رسالة يوسيبيوس القيسارى إلى أهل بيعته، ففى قانون إيمانه الذى قدمه إلى المجمع النيقى لم يذكر شيئاً من هذا القبيل، ولكنا وجدنا عبارة " مولود غير مخلوق " قد احتواها قانون الإيمان النيقى، ويذكر يوسيبيوس بعد ذلك أن المجمع ارتأى وضع هذه العبارة معللاً بأن كلمة مخلوق تنسحب على سائر الأشياء التى خلقت بالابن، ولا

(104) ATHANAS. de decr. II, 3.

(١٠٥) من الطريف أن هذا الخلاف العقيدى بين الفريقين، ينحصر لغوياً فى حرف اليوتا (I)اليونانى، فالمساواة فى الجوهر " الهوموسية " Homoousius " التى أقرها مجمع نيقية، إذا ما أدخلنا عليها حرف (I) تحولت الكلمة إلى الفريق المضاد لتعنى " التشابه فى الجوهر " الهومويوسية Homoiousius " . وإن كانت هذه الأخيرة لم تأخذ حظها من الذيوع والانتشار إلا فى عهد الإمبراطور قسطنطيوس Constantius (٣٣٧-٣٦١) ابن قسطنطين، عندما أصبحت العقيدة الرسمية لإحدى الفرق التى تشعبت إليها الآريوسية فيما بعد، والتى أصبحت تعرف بأسم أنصاف الآريوسيين Semi-Arians . للوقوف على تفصيل ذلك راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة جـ٣، الفصل المعنون " قطوف الفكر الآريوسى "

يصح أن يكون الابن شبيهاً بها، وعلى هذا فهو ليس بشيء مخلوق شأن ما خلقه بيده، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق (١٠٦) . أما الفريق الآريوسى فلا يفرق فى المعنى بين هذه وتلك، وذلك بين من قول آريوس حيث يذكر " أنه قبل أن ولد أى خلق . . لم يكن " (١٠٧) .

على أن الذى يعنينا من رسالة يوسيبيوس وكتابات المعاصرين ذلك الدور الذى لعبه الإمبراطور فى المجمع، فقد أسلفنا أنه أمسك بدفة المناقشة يديرها يستحسن ويستهجن، ويؤيد هذا ويعارض ذاك . وكان من قبل قد دعا الحضور إلى سحب شكاياتهم ثم أمر بحرقها جميعها، إلى هذا الحد يمكن مجاراة قسطنطين فيما قام به، أما أن يتدخل الإمبراطور فى شأن العقيدة ذاتها بالإضافة أو الحذف، فذلك شئ يدعو للتساؤل حقاً، إذا كان الإمبراطور قد سمح لنفسه أن يفعل هذا، فكيف تسمح له الكنيسة إذن أن يقدم على ذلك ؟!

لقد وقفنا على عدم إلمام الإمبراطور بأمور العقيدة من رسالته التى بعثها إلى اسكندر وآريوس منذ عدة أشهر، وبينما هو ينعت نقاط الجدال بالتفاهة، إذا به يترأس مجمع الأساقفة ويوجه المناقشة . ثم يقترح أيضاً نصاً فى جوهر العقيدة، يصبح أحد عمد قانون الإيمان القويم بعد ذلك حتى يومنا هذا، والكنيسة به معتزة له حافظة !

لقد علمنا أن حقيقة الخلاف بين الآريوسيين وخصومهم كامنة فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر أو عدمه، ولما عرض يوسيبيوس قانون إيمان بيعته، جاء خلواً من هذه العبارة، ورغم ذلك فقد ارتضاها الجمع وشهدوا بأرثوذكسيتها، وراح الإمبراطور يحثهم على تعضيدها مقترحاً فى نفس الوقت إضافة عبارة " من نفس الجوهر " وتلك نقطة على جانب من الأهمية كبير، ذلك أن وثيقة هامة يرتكن إليها أعداء الآريوسية، أعنى رسالة اسكندر السكندرى إلى زملائه الأساقفة، لم تتضمن شيئاً من هذا القبيل، كما أن رسالته إلى سميه البيزنطى لم تحوها .

(106) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(107) THEOD. hist. eccl. I, 4. Lietzmann, op. cit. p. 109.

يضاف إلى هذا أيضاً أن مجمع أنطاكية المنعقد سنة ٣٢٤ تحت رئاسة هوسيوس الأسقف الأسباني، لم يشر إلى هذا النص فى قليل أو كثير . وإن كان الحزب المعادى للآريوسية يمتلك سبباً وجيهاً لتجنب مثل هذا القول، فديونيسيوس الكبير أسقف الإسكندرية خلال اضطهاد دكيوس Decius وفاليريان Valerianus كان قد رفضها صراحة أثناء محاوراته مع بعض أساقفة ليبيا، ولو أنه احتراماً لسميه أسقف روما اضطر أخيراً لقبولها، وإن كان قد فعل ذلك على كره منه وبتحفظ شديد (١٠٨) . ويقول جونز إنه إذا كانت الهوموسية مكروهة تماماً فى الشرق لدى عدد كبير من المثقفين، فإنها كانت مقبولة فى الغرب غير الفلسفى لمدة تزيد على قرن . وقد رأينا البابا ديونيسيوس يضطر الأسقف السكندرى للموافقة، ولو مع التحفظ، على هذا المصطلح (١٠٩) .

ولكن الذى يدعو للتساؤل حقاً، هو أنه إذا كان الأساقفة قد أجازوا إيمان كنيسة قيسارية الذى قدمه أسقفها . فما الذى حدا بالإمبراطور إذن إلى اقتراح مثل هذه الإضافة ؟ ولم يكن اقتراح الإمبراطور إلا أمراً واجب التنفيذ .

لعله من معقول القول أن نذكر أن الإمبراطور كان واثقاً تمام الثقة أن أساقفة الشرق وعلى رأسهم اسكندر لن يعارضوا هذه الإرادة التى فرضت قولاً ما كانوا يقبلونه قبلاً ولما كان الإمبراطور غير عالم بمسائل العقيدة الغامضة، وكان هذا المصطلح سائداً فى الغرب، فلا يبعد أن يكون مستشاره لشئون العقيدة هوسيوس الأسقف الغربى هو الذى أوحى إليه بهذا المصطلح (١١٠) . وربما يكون هوسيوس قد ضمن سكوت الأسقف السكندرى وعدم احتجاجه على هذا الاقتراح باتفاق أجراه معه خاصة وأن اسكندر كانت أمامه سابقة فى تجاوز سلفه ديونيسيوس الكبير عنها وإن كان مرغماً (١١١) . ولعله مما يؤيد ذلك ما ذكره الأسقف يوسيبيوس فى

(108) Hefele. op. cit. I, 1. 342-346. Jones. Constantine, p. 161; Lietzmenn, op. cit. pp. 95-99; Duchesene, op. cit. II, p. 154.
(109) Jones, Constantine, p. 162.
(110) Hefele. op. cit. I, 1. Pp. 342-346; Duchesne, op. cit. p. 155.
(111) Jones, Constantine, p. 162.

رسالته إلى أهل بيعته يخبرهم فيها أن طرح هذه العبارة "الهوموسية" قد أثار كثيراً من المناقشات الحامية بين الأساقفة جميعاً، وأنها لم تقبل من كثيرين بسهولة .

وكان نفور قسطنطين من غموض المسائل العقيدية دافعاً له على تقبل أى اقتراح يوحى به إليه ذلك الأسقف الأسبانى . فقد كان هوسيوس يمثل على الأقل فى هذه الآونة وجهة نظر الغرب، وقد رأى الإمبراطور أن إجابة هوسيوس إلى مطلبه كفيل بأن يجعل كنائس غرب الإمبراطورية تقف مؤيدة لأى قانون يصدره المجمع بخصوص العقيدة، ومن نفس الزاوية ننظر أيضاً إلى موافقة الإمبراطور والأساقفة على قانون الإيمان اليوسيبيوسى القيسارى . فقد كان يوسيبيوس بعقيدته يمثل الفريق المعتدل بين الأحزاب المتصارعة (١١٢)، وقد اتضح هذا فى موقفه وزملائه أساقفة فلسطين تجاه آريوس واسكندر سنة ٣٢٤ .

وهكذا أيقن الإمبراطور أن الموافقة على قانون للإيمان تقره كنائس الغرب، ولا ترفضه كنائس الشرق، وإضافة نص ترتضيه تلك ولا سبيل لهذه للاعتراض عليه، طريق إلى توحيد صفوف الكنيسة فى الشرق والغرب وجمعها على كلمة سواء . وذلك واضح من قول يوسيبيوس فى رسالته أن الإمبراطور كد لشرح معنى هذه الإضافة وراح يحث جموع الأساقفة على الإيمان بها، ولم يجد الإمبراطور عناء فى حمل هؤلاء على التصديق على ما يريد خاصة وأن معظم المعادين للآريوسية حاضرى المجمع كانوا على درجة من السذاجة تؤهلهم لعدم معرفة هذه الأمور اللاهوتية العميقة، وذلك شيء نقف عليه من سوزومنوس نفسه عند حديثه عن صنوف الوافدين (١١٣) . وإن كان هذا لا ينفى وجود بعض المتضلعين من المسائل اللاهوتية . وتفصح رسالة يوسيبيوس أن الأساقفة أجبروا على الموافقة، ونلمح فى قوله طوال رسالته نبرة امتعاض لما أدخل على عقيدته من إضافات لم تعرفها قبلاً . وذلك شيء واضح فى مقدمة رسالته ونهايتها وكأنه يعتذر لرعيته عن الأسباب التى دفعته إلى قبول ذلك " إيثاراً للسلام وخشية

(112) Latourette, Chrietianiry, 154-155.
(113) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

الانحراف عن قويم الإيمان "، ويؤكد هذا القول ما يذكره سوزومنوس (١١٤) . من أن يوسيبيوس قد تباطأ قليلاً فى التوقيع على قانون الإيمان النيقى .

ولقد كان طبيعياً أن يعترض الفريق الآريوسى على قانون الإيمان هذا، ويخبرنا سوزومنوس أن عدد من وقفوا إلى جوار آريوس فى أول الأمر قد بلغ سبعة عشر أسقفاً (١١٥)، استسلمت غالبيتهم حتى وصلوا بعد ذلك إلى خمسة أساقفة هم يوسيبيوس أسقف نيقوميديا وثيوجنيس Theognis أسقف نيقية، وماريس Maris أسقف خلقيدونية، وثيوناس Theonas أسقف مارماريكا Marmarica وسكوندوس Secundus أسقف بطوليمايا Ptolemais (١١٦) . وإن كان مجمع نيقية فى رسالته إلى الإسكندرية بخصوص هذا الأمر قد ذكر أسماء الأساقفة الثلاثة الأخيرين فقط(١١٧).إلا أن هؤلاء الأساقفة قد وافقوا فيما بعد على قانون الإيمان النيقى وإن لم يوافقوا على قرار حرمان آريوس (١١٨)، ولم يعترض على قانون الإيمان جملة وتفصيلاً سوى آريوس وزميل آخر له يدعى يوزيوس Euzio(١١٩). ويخبرنا سوزومنوس أن الإمبراطور قد تهدد بالعقاب والنفى كل من يخالف رأى المجمع(١٢٠) على هذا النحو ندرك أن مجمع نيقية كانت تمثل فيه اتجاهات ثلاث . حزبان متطرفان يقف كل منهما ضد الآخر، الأول يتزعمه آريوس وثيوناس وسكوندوس ويوسيبيوس النيقوميدى، والآخر على رأسه ماركللوس أسقف أنقره وأثناسيوس الشماس المصرى، وبين هذين الحزبين ثالث معتدل يكره الابتداع(١٢١). ويمثله بدقه كاملة شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى .

هكذا أقر المجمع أن " الابن مساو للأب فى الجوهر والأزلية " وحرم كل

(114) SOZOM. hist. eccl. I, 24.
(115) Ibid. 20.
(116) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(117) THEOD. hist. eccl. I, 8.
(118) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(119) SOZOM. hist. eccl. I, 20.
(120) Ibid. 25.
(121) F. Jackson op. cit. pp. 306-3/7.

من يقول بغير هذا، أو إنه قبل ولادته لم يكن . أو أنه من العدم وجد [١٢٢] وكذلك تقرر حرمان آريوس ومريديه ومنعه وإياهم من دخول الإسكندرية [١٢٣]، كما قرر المجمع إعدام عمله الذى وضعه فى هذا المعنى والمسمى ثاليا Thalia [١٢٤] .

وحملت الأنباء هذه إلى كنيسة الإسكندرية رسالة بعث بها أساقفة المجمع جاء فيها :

" إلى كنيسة الإسكندرية . التى حازت بفضل من الله ونعمة كل عظمة وقداسة، إلى الأخوة الأحباء فى مصر وليبيا والمدائن الخمس . . نرسل نحن أساقفة المجمع العظيم المنعقد فى نيقية تحية من عند الرب .

أما وقد انعقد مجمع نيقية بنعمة من الله، ورشد إمبراطورنا التقى، الذى دعانا من مختلف الولايات والمدن، وجدناه حرياً بنا أن نوافيكم برسالة المجمع المقدس، نعلمكم أى الأمور أثيرت ونوقشت وما تم عليه الاتفاق وتقرر:

" بداءة، وفى حضرة إمبراطورنا الديّن قسطنطين فحصت عقيدة آريوس الدنسة، واجمع المجمع على إدانتها ولعنها، سواء بسواء مع لغة التجديف التى روج لها زاعماً أن ابن الله جاء من عدم، وأنه ما كان قبل أن ولد . وأن هناك وقت لم يكن . وإن بمقدوره، وفق إرادته الحرة أن يتحكم فى الفضيلة والرذيلة .

" لقد لعن المجمع المقدس كل هذه المهاترات ورفض السماع لهذه الآراء الدنسة الحمقى التى تفيض تجديفاً . ولعلكم تعلمون القرار النهائى المتعلق به، أو لعلكم ستسمعونه قريباً، ولكنا نمسك الآن عن إذاعته حتى لا نبدو فى أعين الناس وكأنا نطأ رجلاً نال لأجل خطاياه عادل القصاص " [١٢٥].

وقد بدأ الإمبراطور فعلاً ينفذ تهديداته التى قصد بها الأساقفة المخالفين لعقيدة المجمع الخارجين عن قانون إيمانه . فأمر بنفى آريوس خارج

(122) SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(123) Id.
(124) ATHANAS. orat. C. Arian. I. 4.
(125) THEOD. hist. eccl. I, 8.

الإسكندرية هو وزميله يوزيوس (١٢٦) . وألحق بهما سكوندوس وثيوناس إلى الليريا(١٢٧) وامتد قراره ليشمل أيضاً يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنيس النيقى إلى غالة(١٢٨) وخلفهما على كرسيى الأسقفتين أمفيون Amphion وكرستوس Chrestus على التوالى (١٢٩)، وذلك راجع لما يذكره سوزومنوس من أنه بعد مجمع نيقية مباشرة، اشتعلت مرة أخرى المناقشات الجدلية بين الفريقين فى كثير من المناطق وخاصة فى بيثينيا وهللسبونت والقسطنطينية، وراح يوسيبيوس وثيوجنيس يعلمان، خلافاً لما وقعا عليه فى نيقية، بأن الابن ليس من جوهر مع الآب واحد . ولما اتهم يوسيبيوس بذلك صراحة أمام الإمبراطور، أصر فى جرأة على رأيه وقال موجهاً حديثه لقسطنطين " هب أن هذا الرداء قد انفصم أمام ناظرى شطرين، لعجزت أن أحاج بأن أياً منهما ينتهى إلى نفس المادة " . فازداد الإمبراطور حنقاً وتولى حزناً ألا يجد أن المسألة العقائدية الشائكة لم تنته كلية بقرار مجمع نيقية، وهاهو يراهم ثانية ينشقون على أنفسهم (١٣٠) . ويضيف أن الإمبراطور أسف أشد الأسف لما أقدم عليه كل من يوسيبيوس وثيوجنيس من قبول بعض السكندريين المعاقبين فى الكنيسة على الرغم من أن المجمع نصحهم بالتوبة على ما ورطوا فيه أنفسهم من "هرطقة"، وعلى الرغم من أن الإمبراطور نفسه قد أوصى بنفيهم خارج أراضيهم باعتبارهم داعية الانقسام (١٣١) . ولقد ضمن قسطنطين ذلك كله فى رسالة بعث بها إلى أهالى نيقوميديا تقول :

" من تراه لقن الرعية البريئة هذه العقائد ؟! من الواضح أنه يوسيبيوس شريك الطغاة جبروتهم سبب كل ما أقدم عليه ذلك الطاغوت (١٣٢) . ولقد انجلت الحقيقة فأثبتت أن من ذبح من الأساقفة كانوا أخياراً " .

---

(126) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.
(127) Hefele, op. cit. I, 1, p. 450; Duchesne, op. cit. II, p. 155.
(128) SOCRAT. hist. eccl. I, 8; Duchesne, op. cit. II, p. 156.
(129) SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(130) Id.
(131) Ibid. II, 22.
(١٣٢) يشير قسطنطين هنا إلى ليكينيوس وما كان من أواصر الصداقة التى تربط بين الأسقف وإمبراطور النصف الشرقى من الإمبراطورية قبل ذلك .

" ولست هنا بصدد سرد ما لحقنى من إهانات أتاها متآمر الفريق المضاد، بل لقد جاء أمراً إدّا، إذ بعث بالعيون ترقبنى . ولم يأل جهداً فى جمع كتائب للجبابرة معضد، ولا يعتقدن أحد أنى مدع شيئاً أنا على إثباته قادر . عندى الدليل . فقد جيء بالأساقفة والقسيسين من أتباعه وقد قبض عليهم . ولكن لنتخط هذه الحقائق كلها، وما ذكرتها إلا لأجعل القوم من سلوكهم فى خجل، لا من أجل إثارة شعور بالندم ".

" غير أن هناك أمراً أخشاه، بات يقض مضجعى، رأيتكم قد جمعكم الاتهام وإياه . لقد تأثرتم بعقيدة يوسيبيوس فضللتم بذلك طريق الصواب . ولكن أبلالكم يرجى إذا ما غنمتم أسقفاً قلبه بقويم الإيمان معلق، وإذا ما جعلتم على الإله اتكالكم. ذلك شيء أنتم عليه قادرون، وقد كنتم ولا ريب تمنون انتهاجه لولا أن صرفكم عنه ذلك اليوسيبيوس . وطغمة تؤيده عاتية . استغلت السلطان فضاع النظام .

" وإنى لأرى لزاماً على أن أحدثكم شيئاً ما عن يوسيبيوس ؛ فلعلكم تذكرون أن مجمعاً عقد فى نيقية حضرته استجابة لنداء ضميرى، يدفعنى الرجاء فى الوحدة، وتسوقنى الحمية لاستئصال أذى أوقعته فتنة آريوس السكندرى . التى تأجج لهيبها بفعال يوسيبيوس الحمقى، ولكن، أخوتى وأحبابى، لا تدرون كيف أن يوسيبيوس ظل سادراً فى غيه الذى من الجمع أدين . ولقد راح يبعث لى خفية أناساً يرجوننى لأجله، وبذاته توسل إلى يطلب عونى لوقف قرار عزله من أسقفيته، رغم أن جرائمه للعيان بادية . إنى لعلى يقين بأن الله الذى يشملكم وإياى بوافر أنعمه شاهد على صدق قولى، ولقد غرر بى يوسيبيوس وخدعنى بعدئذ كما ستعلمون جلياً، لقد كان يعمل وفق رغائبه، لقد امتلأ عقله بخفى الشرور . وإنى وإن كنت أحجم عن ذكر بقية آثامه، أراه حسناً إنباءكم بخطية مؤخراً جناها، متواطئاً مع ثيوجنيس شريك تآمره، ولقد بعثت إلى الإسكندرية بأوامرى فيما يخص أولئك الذين هجروا الإيمان القويم وزادوا بوسائلهم نار الفرقة اشتعالاً، ولكن هذا النفر من الأساقفة الذين شملتهم رحمة المجمع وعطفى أووا إليهم أولئك، وشاركوهم دنس أعمالهم . ومن ثم فقد قررت عقاب هؤلاء الجاحدين بالقبض عليهم ونفيهم إلى مكان قصى(١٣٣) .

(١٣٣) تم هذا الاجراء بعد ثلاثة أشهر من انتهاء مجمع نيقية حيث نفيا إلى غالة. راجع:
Lietzmann. op. cit. p. 121; Jones. Constantine. p. 174.

" إنه الآن واجبكم أن تتهجوا إلى الله بنفس الإيمان الذى تمسكتم به دوماً، دعونا نسعد بتعيين أساقفة قويمين للخير محبين، وإذا ما جرؤ أحد على أن يؤتى من لدنه ذكراً لهؤلاء المخربين فليعلم تماماً أن قحته ستقمع بيد سلطة منحت لى لكونى للرب خادم . ليحفظكم الرب أخوتى الأحبة " (١٣٤) .

وأرسل الإمبراطور إلى الأساقفة والأهلين فى كل مكان من الإمبراطورية يخبرهم أن آريوس ورفاقه مبتدعون مضللون، وأن عليهم لعنة الله والإمبراطور والأساقفة أجمعين (١٣٥) . أما كتاباتهم " فإذا عثر على أية مقالة لآريوس، فلتقدم طعماً للنار، وذلك بغية سحق مبادئه الدنيئة ومحو ذكراه إلى الأبد، ومن ثم فإنى قد قررت لئن ضبط أحد يخفى كتاباً من وضع آريوس، ولم يتقدم به على التو ملقياً إياه فى النار، موتاً، يموت جزاء هذه الخطيئة، وفور انتهاء المحاكمة سوف يلقى المذنب رادع الجزاء " (١٣٦).

هكذا قرت عين الإمبراطور بهذا الذى وصل إليه المجمع المسكونى الأول، وخيل إليه أنه بذلك قد كسب الجولة الثانية على أعداء الكنيسة حسب دعايته، فإذا كانت الأولى قد اقتنصها فى ميدان القتال . وضمن بلا ريب سيادته منفردة فى طول الإمبراطورية وعرضها، فقد نال الثانية لبعض حين وسط صراع جدلى عنيف، وعد الإمبراطور هذا الأخير نصره الثانى على أعداء الله (١٣٧) ، ويقول نورمان بينز تعليقاً على ذلك " لقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته تتمة ضرورية لنصر خريسوبوليس " (١٣٨) . وتدشيناً لهذا النصر دعا قسطنطين جموع الأساقفة الحضور لحضور احتفاله بالعيد العشرينى Vicennalia لجلوسه على العرش(١٣٩). ويعطينا يوسيبيوس صورة رائعة لهذا الاحتفال الذى شارك فيه

(134) THEOD. hist. eccl. I, 19.
(135) SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(136) SOCRAT. hist. eccl. I, 9.
(137) EVSEB. vita Const. III, 14.
(138) C.A.H. XII, p. 697.
(139) EVSEB. vita Const. III, 14.

الأساقفة الإمبراطور طعامه وشرابه (١٤٠) . ولما أذن مؤذن الرحيل دعا الإمبراطور إليه جموع الأساقفة وطلب إليهم المثابرة للحفاظ على السلام وتجنب المناقشات والجدال الذى يقود إلى النزاع والتخاصم، وأوصاهم بالتسامح مع بعضهم البعض والتغاضى عن أخطائهم والتمسك بالمحبة والوئام (١٤١)، ثم تفضل الإمبراطور فزود كلاً منهم بهدية تتفق ومرتبة الكهنوتية، وامتدت نعماؤه لتشمل أيضاً أولئك الذين لم يسعدهم قدرهم بحضور المجمع (١٤٢)، واتسعت دائرة عطاياه لتشمل كافة الناس فى المدن والقرى ابتهاجاً بهذه المناسبة السعيدة، وهى الاحتفال بعيد جلوسه العشرين الذى وافق انتصار الكنيسة فى مجمع نيقية (١٤٣) . وسلم الإمبراطور كل أسقف رسالة إلى كنيسته تضمنت تمجيداً لشخصه وفضله فى عقد مثل هذا المجمع الكبير وإشادة بجميل صنعه (١٤٤)، وحثاً للجميع على اتخاذ هذه الوحدة التى تمت باجتماع هؤلاء الأساقفة مثلاً يحتذى، والانصياع لقرارات المجمع. ثم راح يحدثهم قائلاً :

" يقينا بالبرهان . . حفاظاً على رخاء ورفاهية الإمبراطورية، فكم كان فضل الله علينا عظيماً . قررت أنه ينبغى أن يكون أول هدف فى مسعاى تحقيق وحدة الإيمان وصادق المحبة، وجماعية المشاعر فيما يخص عبادة القدير، وذلك لأنا نبغى أن تحفظ هذه الوحدة بين الرعية الكبيرة التى تكون جماعة الكنيسة الكاثوليكية، ولما كان الحفاظ على هذا لا يتأتى إلا إذا تلاقى من الأساقفة جمع كبير أو على الأقل غالبيتهم فى مجمع واحد، وإلا إذا تدارسوا كل التفاصيل المتصلة بعقيدتنا المقدسة لم يكن هناك بد من جمع أكبر عدد ممكن فى مجمع عام . ولقد حضرت بنفسى هذا المجمع . فرداً عادياً وكأنى أحدكم، وإنى لفرح فخور بأن أجد نفسى زميلكم، وقد فحص كل موضوع بعناية فائقة حتى تبين لنا قضاء الله وحكمه

(140) Ibid. 15.
(141) Ibid. 21.
(142) Ibid. 16.
(143) EVSEB. vita Const. III, 22.
(144) Ibid. 17.

الذى أحاط بكل شيء علماً، والذى شاء لنا بإقرار ما اتفقنا عليه ذلك الأمر الذى يهدى خطانا إلى الوحدة والوئام . وعلى مرأى من الجميع انبلج هذا القرار، فلم يعد هناك مكان لجدل ولا محل لنزاع يخص الإيمان (١٤٥) . . فلتقبلوا إذن بكل رغبة وحازم الإرادة هذا الإيضاح الإلهى الحق . ولتنظروه بأنه الحق المبين، من عند الله هبة . فما يقره مجمع الأساقفة المقدس لخليق أن يعد تعبيراً لإرادة السماء " (١٤٦) .

واضح من هذه الرسالة مدى الجهد الذى بذله قسطنطين فى سبيل تجميع أكبر عدد ممكن من رجال الكنيسة، ومدى الرغبة التى كانت تحدوه من وراء السعى الدائم إلى اتخاذ هذا العمل ونجاحه، وهى " وحدة الرعية "، على حد تعبيره، وبالتالى وحدة الدولة . فقد كان هذا هو كل ما يحرص عليه قسطنطين .

وإذا كان قد جاء فى رسالة الإمبراطور هذه أنه " واحد من الأساقفة " أو أنه " زميل لهم "، فهذه النغمة ليست جديدة على قسطنطين، ولا تصرفنا عن الحقيقة الواضحة وهى يقينه الكامل بأنه رأس الدولة والكنيسة، والحاكم السياسى والقائد العسكرى والكاهن الأعلى ورئيس الأساقفة، وهذا شيء أنبأتنا عنه الأحداث، وأفصحت عنه رسالته إلى ملتيادس أسقف روما، وسياسته تجاه الدوناتيين، ورئاسته لمجمع نيقية، " وقهره " الأساقفة فيه على قبول صيغة الإيمان التى ارتضاها بوحى من مستشاره الدينى، وسوف تكشف عنه أيضاً سنوات عمره الآتية.

لم يقف نشاط المجمع عند بحث المشكلة الآريوسية وحدها، بل تعرض لعدد آخر من المسائل التى تهم الكنيسة،، مثل مسألتى تحديد عيد الفصح وعماد الهراطقة(١٤٧) إلا أن هذه الأمور لا يعنينا منها الآن ما قر عليه فيها رأى المجمع، ولكن الذى يهمنا حقاً هو المشكلة الأخرى التى تعرض مجمع الأساقفة لبحثها وهى المسألة المليتية الكامنة فى مصر (١٤٨) .

---

(145) Id.
(146) Ibid. 20.
(147) EVSEB. vita Const. III, 18; Hefele. op. cit. I, 1. Pp. 451-477.
(148) Hefele. op. cit. I. 1. p. 488.

تعود جذور هذه المشكلة إلى الأيام العصيبة التى عاشتها المسيحية إبان فترة الاضطهاد الأعظم على عهد دقلديانوس وجاليريوس وماكسيمين، فيخبر يوسيبيوس أن بطرس أسقف الإسكندرية الذى خلف ثيوناس فى هذا المنصب (١٤٩)، قد قبض عليه وسيق مع عدد من القسوس هم فوستوس Phostus وديوس Dius وآمون Ammonius إلى ساحة السجن، واقتيد معهم أيضاً فيلياس Phileas أسقف كنيسة تمويس Thmuis (تمى الأمديد)، وهو رجل اشتهر بعلومه الفلسفية وكريم أصله(١٥٠) وهسيكيوس Hesychius وباخوم Pachomius وثيودور Theodore وهم أساقفة فى الكنائس المصرية المختلفة (١٥١) وفى السنة التاسعة للاضطهاد (٣١١) " كلل بطرس ورفاقه بأكاليل الشهادة"(١٥٢) .

بإيداع أولئك الأساقفة سجن الاضطهاد، آلت العناية الروحية لهذه المحافل الكنسية الشاغرة إلى أيدى جماعة من الأساقفة أو المبشرين الطوافين الذين كانوا لا يتمون عملهم مطلقاً، حتى الإسكندرية ذاتها غدت بلا رئيس روحى مذ أكره بطرس على ترك أسقفيته . فى هذه الظروف العسرة كان هناك رجل واحد أظهر أنه رجل الساعة هو مليتيوس Melitius أسقف أسيوط Lycopolis، فلم يكن ينتقل بين هذه البيع اليتيمة فحسب، بل راح يعين لها أساقفة جدداً (١٥٣)، غير أن هذا السلوك لم يكن يتفق وتقاليد كنيسة الإسكندرية . فنحن نعلم من سوزومنوس أن لكل كنيسة فى الإسكندرية قسيسها وكنائس أخرى فى بعض مدن مصر عليها أساقفتها، ولم يكن يحق لأحد الانتقال من أسقفيته أو كنيسة إلى غيرها، ثم يقول وتلك حال الإسكندرية دائماً (١٥٤) باعتبار أن أسقفها قد احتفظ لنفسه منذ فترة طويلة بهذا الحق فى رئاسة كنائس الإقليم كله، وذلك شىء أكده مجمع نيقية فى قوانينه التى أصدرها، ففى القانون الخامس عشر حرم انتقال الأساقفة والقسيسين والشمامسة من كنيسة

(149) EVSEB hist-eccl. VII, 32.
(150) EVSEB. hist. eccl. VIII, 9.
(151) Ibid. 13.
(152) Ibide. VII. 32.
(153) SOCRAT.hist.eccl.I,24; Lietzmann, op. cit. p. 103; Hefele. op. cit. I, 1. P. 491.
(154) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

لأخرى، ونص القانون السادس على إعطاء بطريرك الإسكندرية كل الحقوق التى كانت له من قديم على أساقفة مصر وليبيا والمدائن الخمس (١٥٥) .

وربما يكون مليتيوس قد أراد بهذا العمل أن يجعل من نفسه أسقفاً أعلى لمصر وأن ينقل إلى أسيوط ما كان للإسكندرية حقاً معلوماً، أو لعله أراد الانتقال من أسقفيته إلى الإسكندرية (١٥٦) وينبئنا ثيودوريتوس أن هذه الفعال قد نمت إلى علم بطرس وهو بعد فى سجنه، فاستهجن هذا سلوك أسقف أسيوط ومن ثم قرر عزله من منصبه وحرمه (١٥٧) . غير أن الأسقف الأسيوطى لم يذعن لقرار العزل هذا وملأ طيبه والمناطق المجاورة لها فى مصر بالاضطراب والقلاقل على حد قول ثيودوريتوس(١٥٨) الذى لابد أنه يعنى بذلك استمراره فى تعيين الأساقفة والقسس فى الكنائس الشاغرة، لأنه يضيف قائلاً إنه تجاسر على التدخل فى شئون أسقفية الإسكندرية ذاتها فعزل اثنين من قساوستها ورسم آخرين مكانهما (١٥٩) .

تلك رواية نقلناها عن شتات ما تبعثر حول مليتيوس عند مؤرخى الكنيسة، على أن هناك رواية أخرى يذكرها أبيفانيوس Epiphanius، وهى تقترب من سابقتها تقول إن بطرس بعد أن قبض عليه، دخل معه السجن مليتيوس، وعدد من رجال الأكليروس، واستمر الاضطهاد فترة من الزمن نال فيها فريق المسيحيين الشهادة بينما اشترى البعض الآخر أنفسهم وأموالهم بأن قدموا الأضحيات على مذبح أرباب الوثنية . وهكذا حرم هؤلاء بسلوكهم أنفسهم من الكنيسة، غير أنهم سرعان ما ندموا بعد ذلك واجتهدوا ليقبلوا فى الكنيسة ثانية عن طريق طلب الشهادة، وكان على رأس هؤلاء مليتيوس الذى أظهر اتجاها متذبذباً على الأقل طوال فترة الاضطهاد، ثم اختط لنفسه طريقاً متشدداً بعيد الاضطهاد، بينما ترأس بطرس قبل موته وخلفاؤه فريقاً آخر تبنى الاتجاه المعتدل، وكانت مسألة الخلاف بين الفريقين

(155) Percival, the seven ecumenical councils, (Nicene and P.N.F.) pp. 15, 32.
(156) Hefele, op. cit. I, 1, p. 501.
(157) THEOD. hist. eccl. 1, 8.
(158) Id.
(159) Id; Duchesne, op. cit. II, pp. 98-99.

هى قبول الخطاة ثانية فى الكنيسة، وهكذا وجدت كنيسة للشهداء يتزعمها مليتيوس تقف والضد من الكنيسة السكندرية (١٦٠) ولما أن راح أسقف أسيوط يرسم الأساقفة من لدنه غافلاً بذلك عما جرى عليه العرف فى الكنيسة السكندرية، لم يكن أمام بطرس إلا أن يصدر ضده قرارى العزل والحرمان، وتلك كلها مسائل أوقفتنا عليها رسالة مجمع نيقية إلى كنيسة الإسكندرية بخصوص هذا الأمر(١٦١) .

ويمكننا التوفيق بين هاتين الروايتين إذا ذكرنا ما أورده لنا أبيفانيوس عن أصل هذا الخلاف، مما أوجد هذه الهوة العميقة بين بطرس ومليتيوس، فاختط الأخير لنفسه طريقاً مخالفاً، وأخذ يعين الأساقفة والقسيسين فى بعض الكنائس مما اضطر بطرس إلى عزله وحرمانه .

ذلك مشهد ثالث يكاد يطابق تماماً ما حدث فى روما وأفريقيا، أعنى المسألتين، النوفاتية والدوناتية، فنقطة ثار حولها الجدل عند هذه الفرق واحدة، وموقف كنيستى روما والإسكندرية تجاه آراء الفريق المضاد متفقة، وما نجم عن هذا الصراع من قيام كنيسة الطهار عند الدوناتيين وكنيسة الشهداء لدى المليتيين وثيق الصلة، لذلك ليس من غريب الحديث أن يقال إن المليتيين كانوا بمثابة دوناتيى مصر (١٦٢) .

ولا شك أن فترة الاضطهاد التى قاست منها المسيحية لزمن طويل بعامة، ولفترة عنيفة أخيرة بخاصة، قد أحدثت فى الكنيسة كثيراً من أمور الجدل حول العقيدة والتخاصم حول مسائل التنظيم الكنسى، وأورثت الكنيسة الجامعة شقاقاً ما بعده شقاق، ورزقتها بعدد لا حصر له من الفرق المخالفة فى الرأى، ساعد الأحداث على الإتيان بها، ما رفلت فيه المسيحية بعد التسامح من حلل العيش ورغده، فطفت إلى السطح أمور كانت كامنة، وتولدت عنها مشاكل ما كانت قائمة.

---

(160) S.M. Jackson. op. cit. VII, art, Meletianism.
(161) THEOD. hist. eccl. I, 8.
أيضاً ATHANAS. Apol. C. Arian: 59.
(162) C.A.H. XII, p. 697; Duchesne, op. cit. II, p. 113.

كان على مجمع نيقية أن يعالج هذه المسألة بحزم حتى لا يستفحل خطرها، أما الإمبراطور فلابد أنه قد أفاد مما وقع له فى أفريقيا مع الدوناتيين، فمجمع مكانى عقد فى روما سنة ٣١٣ لم يكن كافياً لشجب النزاع الدوناتى الكاثوليكى، ومجمع يقترب من العالمية فى آرل سنة ٣١٤ لم يكن أسعد حظاً من سابقه، وقضاء إمبراطورى فى القضية فى ميلانو سنة ٣١٦ ما ردع الفريق الدوناتى ولا أتى بجديد فى عالم الصفاء مع الكنيسة الكاثوليكية، بل كل ما جاء به عنفاً بلا هوادة وتحدياً صريحاً لسلطة الإمبراطور ذاته، واضطهاداً مسيحياً ضد أشياع كنيسة الطهار لم يثمر ثمرته المرجوة، هكذا أدرك قسطنطين أن لا طريق أمامه سوى الصفح والمهادنة، فأفرج عن الدوناتيين وأعاد إليهم بيعهم علهم بذلك يقدرون له حسن الصنيع .

كانت تلك تجربة أفاد منها قسطنطين، فلم يقدم على شىء من هذا على الإطلاق فى معاملته للمليتيين فى مصر، وساعده قدره وفكره بعقد هذا المجمع المسكونى الكبير الذى ضم أساقفة الشرق والغرب، فراح قسطنطين يحث الجمع على اتخاذ سبيل وسط يرضى هذا ولا يغضب ذاك، وعمل الحضور بنصح الإمبراطور، وقد حفظ لنا ثيودوريتوس ما تم بشأن المليتيين فى مجمع نيقية فى وثيقة هامة هى رسالة المجمع إلى كنيسة الإسكندرية جاء فيها :

" أحباءنا . . هانحن الآن نخبركم بما قر عليه رأى المجمع فى هذا الصدد . لقد تقرر بواسطة مجمعنا أن يعامل بالرأفة مليتيوس، مع أنه، وحتى نكون مع أنفسنا صادقين، ما كان يستحق من الشفقة أقلها، لقد سمح له بالبقاء فى مدينته مجرداً من كل سلطة تجيز له تعيين الغير أو سيامتهم، محروماً حتى الظهور فى أية ولاية أو مدينة لهذه الدواعى . ولكن ليحمل لقبه عارياً من كل نفوذ " (١٦٣) .

هكذا التقت آراء المجمع على أمر قد قُدر، فذلك هو الجزاء الذى تلقاه مليتيوس جزاء خروجه على كنيسة الإسكندرية وأسقفها، تخالف ما شهدناه قبلاً فى موقف مجمعى روما وآرل وموقف قسطنطين إزاء الدوناتيين، ولا شك أن هذه

(163) THEOD. hist. eccl. I, 8.

السياسة الجديدة التى لجأ إليها مجمع نيقية تجاه المليتيين كانت رد فعل صريحاً لفشل السياسة التى سار عليها الإمبراطور فى علاجه للمشكلة الدوناتية، ومن ثم فقد منح المجمع مليتيوس من اللقب اسمه وسحب مضمونه، وأعطاه من الوظيفة الكهنوتية رتبتها وحرمه جوهرها !!

وأضافت رسالة المجمع :

" أما أولئك الذين رسموا على يديه فعليهم أن يمروا من جديد برسم تقى، على أن يقبلوا ثانية فى الكنيسة، وتبقى لهم رتبتهم الكهنوتية فى سائر الأبروشيات، على أن تكون فى مرتبة أدنى من تلك التى منحت لغيرهم من قبل على يد اسكندر، زميلنا الكاهن المبجل، وعليه فليس لأولئك حق اختيار أو تعيين آخرين للكهنوت أو الإقدام على أى شيء دون موافقة أساقفة الكنيسة الكاثوليكية(١٦٤) الرسولية المنضوين تحت نفوذ اسكندر .

" ولكن هؤلاء، من بنعمة الله، وفضل صلواتكم، لم يدنسهم تيار الانشقاق، فظلوا طاهرى الذيل فى الكنيسة الرسولية الجامعة، فلهم سلطة اختيار وتعيين من يرون الصلاح فيهم للوظائف الكنسية، بل ويسمح لهم بما هو أبعد من ذلك فى التصرف فى أى أمر يتفق وقانون الكنيسة وسلطانها، فإذا ما شاء القدر واختطف الموت واحداً ممن يتسنمون الآن إحدى الوظائف الكنسية، فليرتق الجدد إلى شرف الراحلين إذا كانوا للمنصب مستحقين، وعلى يد الرعية مختارين، ما دام هذا يثبت بموافقة أسقف الإسكندرية الكاثوليكى " (١٦٥) .

(١٦٤) حتى منصف القرن الخامس كان لفظ كاثوليكى Catholicus (عالمى) وأرثوذكسى Orthodoxus (مستقيم) يطلقان على الكنيسة عامة، على اعتبار أنها كنيسة واحدة جامعة ذات إيمان قويم . وفى سنة ٤٥١ عقد مجمع خلقيدونية وصدر عنه قانون الإيمان القائل بكمال الطبيعتين الإلهية والبشرية فى المسيح، ورفضت كنيسة الإسكندرية هذا المعتقد، وبقيت على عقيدتها القائلة بطبيعة واحدة من طبيعتين، كما آمن بها أسقفها كيرلس Cyrillus وخليفته ديوسقورس، واختصت منذ ذلك الحين بلقب الأرثوذكسية وإن كانت قد شاركتها فيه كنيسة القسطنطينية أيضاً ولكن بالأرثوذكسية الخلقيدونية . أما كنيسة روما فقد احتفظت لنفسها بالصفة الكاثوليكية، وتدعم ذلك فى عام ١٠٥٤ عندما وقع الانشقاق الأعظم بين روما والقسطنطينية نتيجة للخلافات العقيدية المتراكمة ومن بينها مسألة الروح القدس التى تعود إلى القرن التاسع، عندما أضافت روما على قانون الإيمان عبارة " والابن" Filioque .

(165) THEOD. hist. eccl. I, 8.

و"الكاثوليكى" هنا تعنى الكنيسة الجامعة ولا تفيد تخصيصاً لكنيسة بعينها .

لم يقف قرار المجمع إذن فى هذه المسألة عند حد التعرض للمشكلة المليتية فى حد ذاتها، ولكنه تخطاها، متخذاً من أحداثها مداراً لمزيد من قرارات التنظيم الكنسى حول تعيين القسس والأساقفة فى مختلف الكنائس، ولا شك أن دافعه إلى ذلك حرص الحضور على أن لا تتكرر فى الإسكندرية أو غيرها من مدن الإمبراطورية تلك الحوادث التى جرت من قبل على يد مليتيوس من قيامه بسيامة أساقفة وقسيسين .

ثم تعود الرسالة فتعرج بعد ذلك ثانية على الرجل فتقول " أما عن مليتيوس على أية حال، فهناك استثناء قد وقع، بسبب عصيانه السالف، ونتيجة مزاجه المتهور وطبعه الطائش، ذلك لأنه إن منح أقل سلطان فإنه سوف يسىء استغلاله بإثارة الاضطراب من جديد " (١٦٦) .

وبعد أن يخبر المجمع السكندريين فى رسالته بأن أسقفهم سوف يروى عليهم تفاصيل ما دار فى المجمع وما قر عليه رأى رجال الأكليروس حضور نيقية، ويزف إليهم بشرى الاتفاق على تحديد يوم للاحتفال بعيد الفصح تشترك فيه كنائس شرق الإمبراطورية والغرب (١٦٧). يختتم المجمع رسالته بقول الأساقفة :

" فلتفرحوا إذن لنجاح ما تعهدنا القيام به، ولتبتهجوا بسلام عام ووفاق، واستئصال دنس الهرطقة، ولتستقبلوا بشرف عظيم وبحب متقد اسكندر محبوبنا، اسقفكم الذى جلب على مجمعنا البهجة بحضوره، والذى رغم تقدم العمر به قد تحدى المشاق والمتاعب بغية إعادة السلام إليكم . صلوا من أجلنا حتى يبقى ما اتفقنا عليه ثابتاً وطيد البنيان بنعمة ربنا يسوع المسيح، إن كل ما أتممناه بنعمة الله الآب وبوحى القدس صار . . له المجد أبد الآبدين " (١٦٨) .

على هذا النحو أتم مجمع نيقية أعماله وارتحل الأساقفة عائدين إلى كنائسهم

---

(166) THEOD. hist. eccl. I, 8.
(167) Id.
(168) Id.

يسبحون بحمد الإمبراطور مبعوث الرب الذى أغدق عليهم نعمه، فجعلهم يرفلون فى رغد من العيش وسعة، ولا شك أن قسطنطين كان يرمى من وراء هذه السياسة إلى جعل هؤلاء الأساقفة حملة مشاعل الدعاية لحكمه وتقوية سلطانه فى أرجاء الإمبراطورية بما يملكونه من تأثير على نفوس رعاياهم . وقد أتت هذه السياسة أكلها، وآمنت الكنيسة بأن قسطنطين " مبعوث الرب " حاميها، وباعث حياتها، ورفعته مكاناً علياً، إلى الحد الذى تطوع فيه واحد من أشهر أساقفتها فى زمانه، أعنى يوسيبيوس القيسارى، ليضع عنه كتاباً يرفعه به إلى مصاف الرسل، جاعلاً منه الحوارى الثالث عشر .

خيل للإمبراطور ساعتئذ أنه قد حقق بذلك أعظم انتصاراته، فقد تبدى له أنه حفظ على الإمبراطورية وحدتها سياسياً وعقائدياً، وأنه أعاد بذلك السلام إلى الكنيسة وأنجاها من شر مستطير كاد يودى بوحدتها، وبالتالى يهدد أمن الدولة وسلامتها . ولقد تحمل قسطنطين العبء الأكبر بل العبء كله فى الإعداد لهذا المجمع الكبير، وأثناء انعقاده وبعده، ولعب دوراً هاماً وشارك مشاركة إيجابية فى كل حركة وسكنة من أداء المجمع، فحقق بذلك رغبته التى أبداها فى رسالته التى بعث بها إلى الأساقفة يدعوهم للحضور إلى نيقية .

ولقد وضع قسطنطين بسياسته هذه فى الدعوة لعقد المجامع سنّة سار عليها خلفاؤه من بعد، فما من مشكلة عقائدية عنت للكنيسة إلا ووجهت الدعوة لعقد مجمع مسكونى لبحث هذا الأمر، ولم تكن الدعوة بطبيعة الحال صادرة من رأس الكنيسة أو من غيره، بل موجهة من الإمبراطور ذاته، حتى بلغ عدد المجامع المسكونية التى عقدت فى الكنيسة الشرقية سبعة على مدى أربعة قرون بين عامى ٣٢٥، ٧٨٧ على عهد الإمبراطورة أيرين .

وعلى هذا النحو أيضاً وضع قسطنطين قواعد القيصرية البابوية Caesaropapism التى بلغت فى عهد من جاء بعده من الأباطرة شأوا عظيماً، وأضحت الكنيسة الشرقية فى هذا السبيل دائرة من دوائر الحكومة وأسقفها موظفاً

كبيراً لدى الإمبراطور، وتمتع هذا بسطوة واسعة وسلطان كبير على الكنيسة ورجالاتها الذين أضحوا فى غالب فترات تاريخ الكنيسة الشرقية جند الإمبراطور .

وإذا كان هذا حال أسقفية القسطنطينية والكنائس التابعة لها بصفة خاصة، فإن الكنائس الأخرى فى النصف الشرقى من الإمبراطورية، والإسكندرية على رأسها لم تكن كذلك أبداً . فأساقفة الإسكندرية كانوا يعرفون يقيناً ويقدرون مركز كنيستهم فى عالم المسيحية، ومدينتهم فى دنيا الفكر والحضارة . فإذا كانت القسطنطينية تحاج بأنها مقام الأباطرة وأنها نشأت على المسيحية، ولم تدنس جبهتها لوثن، وأنطاكية تتعالى بأن القديس بطرس هو الذى وضع عمد الكنيسة فيها قبل روما، فإن القديس مرقس الإنجيلى، ابن بطرس بالتبنى، وتلميذه، ورفيقه، هو الذى رفع القواعد من كنيستها، ولكنها إلى جانب كل ذلك كانت تتسامى بمدرستها اللاهوتية الشهيرة، وفكر آبائها، ولم تكن القسطنطينية أو غيرها من مدن الإمبراطورية تستطيع أن تتطاول إلى هذه المكانة، بل إن عالم المسيحية كله فى هذه القرون الباكرة من عمر المسيحية، كان يسعى إلى الإسكندرية ينتظر فى أمر العقيدة، القول الفصل من كنيستها .

من أجل هذا، وللخلاف العقيدى الدائم بين القسطنطينية والإسكندرية بخاصة، وقفت كنيسة الإسكندرية تعارض الأباطرة الرأى وترفض تهديداتهم، وشهد تاريخها حتى القرن السابع صراعاً عنيفاً بين أباطرة بيزنطة وأساقفة الإسكندرية، لم تستسلم فيه الإسكندرية طيلة هذه الفترة (١٦٩) .

فإذا ما تجاوزنا الإسكندرية، وحاولنا أن نبحث عن الأسباب التى دفعت الكنيسة بعامة على عهد قسطنطين إلى تقبل هذا الوضع الجديد فى العلاقة بينها وبين الدولة طائعة قانعة، لأدركنا على الفور الحال التى كانت عليها قبل قسطنطين، ثم ما كان من أمر تعاطفه مع المسيحية، وما أغرق فيه الكنيسة من المنح . ومن ثم فما كان للكنيسة إذن أن ترفع الرأس بعد ذلك معارضة عاصية،

(١٦٩) سوف نفرد لهذا الموضوع بمشيئة الله الكتابين الثالث والخامس من الدولة والكنيسة .

ولكنها أسلمت أمرها وقيادها إلى ذلك الإمبراطور الذى أمسك بتلابيب هذه الفرصة الكبيرة وأشاع فى عقول معاصريه وخلفه أنه مبعوث العناية الإلهية لإحلال السلام على الأرض، وأن الرب قد اختاره من بين عباده وعهد إليه بحكم هذه الإمبراطورية، وذلك شيء نلمسه فى رسائل قسطنطين وخطبه العديدة . ويقول نورمان بينز : " لا بد أن نعى أن قسطنطين كان قبل كل شيء إمبراطوراً رومانيا ورجل سياسة، وكانت سياسته الدينية جزءاً من سياسته الإمبراطورية، فهذه كانت قائمة فى فكره على تصور بأنه المبعوث خدمة لرب المسيحيين [١٧٠].

ولا يمكن أيضاً إنكار الدور الذى لعبه شيخ مؤرخى الكنيسة فى هذا السبيل، فكتابة العاشر من تاريخه الكنسى يدل على أن قيام الدولة والكنيسة قد بدأ سوياً فى وقت واحد، ولذلك نراه يتحدث بنغمة التفاؤل والحبور، أما " حياة قسطنطين " فكله دعائية للإمبراطور " محبوب الرب " و " مبعوثه " إلى البشر، وقد أتت كتابات يوسيبيوس القيسارى ثمارها فى حقل الكنيسة وبين رجالاتها، وكان لها أكبر الأثر فى بنيان العلاقة بين الكنيسة والدولة .

(170) C.A.H. XII, p. 698.

الفصل السادس
إحياء الأريوسية وصحوة المليتية

كان قلب قسطنطين يهوى الشرق، ولكن بصره كان معلقاً بالغرب . وبين قلب الإمبراطور وبصره تأرجحت سياسته، وراح فؤاده والحواس ينتقلن بين هذا الجانب أو ذاك، وما كان فى مقدور قسطنطين أن ينظر إلى قلبه والنار تأكله لفتنة فى الشرق حادثة، وإن كان باستطاعته أن يغمض عينيه على الغرب لهدوء متقطع فيه باد . وكم حزن الإمبراطور ودمى قلبه وهو يرى شرقه ومبتغاه تفتك به حمى جدال اتشح مرضاه بمسوح الدين، وكم طاب خاطراً لغرب أثر أن يقى نفسه عدوى وباء فى الشرق ساد !!

فقسطنطين وإن كان لم يخرج الغرب البتة من تفكيره، إلا أنه جعل الشرق كل فكره، وكان قد قضى من عمره فى الشرق سنين عدداً رهين قصر نيقوميديا، ولمس بنفسه أساليب الحكم فى المنطقة وطرائق الإدارة وكانت نظم الحكم هنا تنحو إلى الطابع الاستبدادى سواء فى الملكيات الهلنستية القديمة أو الإمبراطورية الفارسية، وشاهد قسطنطين بعينى رأسه دقلديانوس وهو يمارس نفس الأنظمة، فلما جاء إلى الشرق كان مصمماً على أن يكمل خطا سلفه . فترك روما بتقاليدها الجمهورية والغرب بكيانه الاقتصادى المتصدع، وراح يضع على أطلال بيزنطة المدينة الإغريقية القديمة أسس عاصمة جديدة، فأظهر للجميع بذلك عزمه على أن يكون الشرق مستقره ومثواه، وأمل أن يجد فى هذه البقاع السكينة التى كان ينشدها والهدوء، وتعلقت آماله برعاياه المسيحيين عله يجد فيهم خير عون لنظم حكومته، ويقول ول ديورنت، لقد كان قسطنطين يأمل أن يكون حاكماً مطلق السلطان، وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين، وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاماً روحياً يناسب نظام حكومته، وهذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها (١).

(١) ديورنت: المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣ ص ٣٨٨.

ولعل فى مسلك قسطنطين تجاه أساقفة مجمع نيقية وما أغرقهم فيه من المنح والعطايا خير شاهد على ذلك .

ولكن قسطنطين فجع وهو بعد فى الغرب بالصدع الدوناتى، ثم فجع أخرى أشد وأقسى عندما وطئت قدمه الشرق، فسارع إلى دعوة أولى الأمر فى العقيدة المسيحية، ولما جمعت نيقية شملهم وقر على قانون الإيمان رأيهم، قرت كذلك عين الإمبراطور، ونفى مخالفيه وعلى رأسهم زعيمهم آريوس، ثم رجلى الفريق الشهيرين يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس النيقى . وهيئ لقسطنطين أنه بذلك قد نجا والإمبراطورية من خطر كبير كان يهدد وحدة الدولة وأمنها، ولكن الأحداث سرعان ما أطاحت بكل حلم داعب خيال قسطنطين .

ما كاد المجمع المسكونى الأول ينهى أعماله ويعود أساقفته كل إلى بيعته حتى عادت الفتنة ترفع رأسها من جديد، ولقد علمنا من الفصل السابق أن يوسيبيوس أسقف نيقوميديا وثيوجنس أسقف نيقية، قد عادا سيرتهما الأولى وراحا يبشران بأن الابن ليس من نفس جوهر الآب، مما اضطر الإمبراطور إلى أن يصدر قراراً بعزلهما ونفيهما، وتعيين بديلين عنهما، وبذلك ضمن قسطنطين إلى حين هدوء هذه المنطقة .

أما فى مصر فيخبرنا يوسيبيوس القيسارى أن الحال فيها كانت غاية السوء عقب المجمع نتيجة انقسام داخلى (٢)، إلا أنه لم يوضح سبب ذلك ولا طبيعته مما دفع سقراط إلى اتهامه بالمكر والمراوغة، وأنه كان يتجنب ذكر أسباب الانقسامات هذه وذلك لميله إلى الفريق الآريوسى (٣) . ولكن سوزومنوس يفسر هذه الأحداث بقوله إن اسكندر بعد عودته إلى الإسكندرية عقب ارفضاض مجمع نيقية، قام مليتيوس بتسليمه الكنائس التى كان قد أخذها قبلاً (٤)، وعاد ثانية إلى مقره فى أسيوط تنفيذاً لقرارات المجمع المسكونى، إلا أنه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى أحس

(2) EVSEB. vita Const. III, 28.
(3) SOCRAT. HIST. ECCL. I, 23.
(4) SOZOM. hist. eccl. II, 21; ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.

مليتيوس دنو أجله، فعين شخصاً يدعى يوحنا Iohannes خلفاً له كان يعد أقرب أصدقائه، وذلك خلافاً لما أقره المجمع النيقى [٥] . وهكذا برزت إلى الوجود قضية المليتية ثانية وأضحت مثاراً للخلاف والشقاق . ويمضى سوزومنوس قائلاً، وعندما علم الآريوسيون بما ابتدعه المليتيون بدأوا هم الآخرون يناوئون الكنيسة السلطان، فتبعهم من جديد أناس كثيرون بينما مال إلى المليتيين جمع رأوا من حقهم ترؤس كنائسهم، وعلى الرغم من أن الفريقين لم يكونا على وئام إلا أنه جمعهما شيء واحد هو معارضة الكنيسة الجامعة وعداوتهما للأكليروس السكندرى، وبلغ من تقاربهما أن راح البعض يطلق على المليتيين صفة الآريوسية[٦] . وإن كان انشقاقهم، كما يعلق مؤرخنا، يعود إلى مسألة تنظيمية بحتة بصدد رئاسة الكنائس فى الوقت الذى كانت فيه الآريوسية مسألة عقائدية، وعلى الرغم من أن كليهما ينكر تعاليم الآخر إلا أنهما اصطنعتا المداهنة سبيلاً يعامل به أحدهما الآخر فى سبيل تحقيق مصلحتهما فى مواجهة خصمهما المشترك[٧] . ومنذ ذلك الزمن تقبل المليتيون، بعد مناقشات حادة، العقيدة الآريوسية وحملوا نفس أفكار آريوس عن الإله . وقد أحيا هذا من جديد الجدل حول آريوس وعقيدته، وأدى بالتالى إلى انشقاق طائفة من العلمانيين ورجال الأكليروس عن غيرهم من الكنيسة، وحمى وطيس الجدل ثانية حول آريوس وعقيدته فى كثير من مناطق الإمبراطورية [٨].

تلك كانت حال المسيحيين عقب انتهاء مجمع نيقية حيث يبدو من أقوال سوزومنوس أن قرار المجمع فى هذا السبيل لم يؤد إلى إماتة العقيدة الآريوسية أو رأب الصدع المليتى، وأدرك قسطنطين بثاقب نظره أن محاولة لحسم الخلاف وإعادة الوحدة الإمبراطورية لن تؤتى ثمارها إذا بقى زعماء الفريق الآريوسى خارج حظيرة الإيمان النيقى . وإذا ظل آريوس يتحدى قرار أساقفة المجمع المسكونى، ومن ثم عزم على استمالته إلى آرائه حتى ينجو بذلك من شبح الانقسام المخيف .

---

(5) SOZOM. hist. eccl. II, 21.

(6) Id.

(7) Id.

(8) SOZOM. hist. eccl. II, 21.

وتلك كانت سياسة قسطنطين دائماً، يمسك بقبضته الذكية عصا التسيار من وسطها، يقرب إليه فريقاً من المتصارعين، حتى إذا أدرك أن زعماء هذا الفريق قد بدءوا يحسون بثقل مركزهم ورجحان كفتهم، قلب لهم ظهر المجن، وعاد إلى استمالة الفريق الآخر الذى كال لزعمائه ورجاله الويلات والاضطهاد، بعد أن تكون نفوسهم قد سئمت هذا العنت، لقد كان كل همه أن يظل حاكماً قوياً فرداً فى إمبراطورية موحدة، ومن ثم لم يكن ليسمح لفريق بأن تقوى شوكته أو يستشعر السلطان .

وأمامنا الآن روايتان لسقراط وسوزومنوس حول عودة آريوس، تشير أولاهما إلى أن الإمبراطور قد عفا عن أسقفى نيقوميديا ونيقية المنفيين وأعادهما إلى منصبيهما ثانية، وتكفل يوسيبيوس بعد ذلك بمحاولة إعادة آريوس إلى الكنيسة ثانية، وتبرئة ساحته . ويقول سقراط أن الأسقف النيقوميدى استطاع أن يتحالف مع أحد رجال الدين الضالعين فى الآريوسية كان فى معية قسطنديا أخت قسطنطين وأرملة ليكينيوس، وأوحى إليه يوسيبيوس أن ينتهز فرصة إحدى عظاته الودية مع قسطنديا ليخبرها أن قرار المجمع النيقى بإدانة آريوس كان بعيداً عن روح العدالة، وأن التقرير الشائع الذى ينسب إلى آريوس غير حقيقى . وقد أعطت الأميرة ثقتها الكاملة لهذا الرجل، غير أنها لم تطلع الإمبراطور على شىء من ذلك فلما أحست دنو أجلها وجاء إليها أخوها يعودها راحت تمتدح للإمبراطور محاسن ذلك الرجل مثنية على ورعه وتقواه، ولكنها لم تفض إليه بشىء عن آريوس وظلامته . فلما توفاها الموت غدا واعظها أقرب ثقاة الإمبراطور وازداد على الأيام قرباً منه، ووداً له، فلما أمكن منه قص على مسامعه ما سبق أن ردده على آذان أخته، مؤكداً له أنه ليس لديه أية أراء أخرى غير تلك التى أقرها المجمع، وإذا ما سمح له بالمثول أمام الحضرة الإمبراطورية فلسوف يقدم موافقته الكاملة على ما أقره الأساقفة فى نيقية . ولما تبدى ذلك عجباً لدى الإمبراطور انبسطت أساريره وصرح بأنه إذا وقع آريوس مع المؤتمر وتمسك بآرائه، فليسمحن له بالوقوف أمامه وليعيدنه إلى الإسكندرية مبجلاً . وقام الإمبراطور من فوره ليرسل إلى آريوس بهذا المعنى (٩).

ولكن هذه الرواية لا يمكن قبولها على علاتها فمجمع نيقية أدان الآريوسية

(9) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

وأشياعها، وتتبع الإمبراطور أولئك الأشياع بالنفى والاضطهاد حتى يضمن استقرار الأمور وهدوءها تمشياً مع قرارات رجال الكنيسة وكان من الطبيعى أن يبدأ قسطنطين بتطهير بلاطه وقصره من هذا الفريق، فكيف نفسر إذن بقاء رجل من الضالعين فى العقيدة الآريوسية فى القصر الإمبراطورى هادياً لأخت الإمبراطور ؟ وما كان هذا براغب فى إثارة الشكوك حول نفسه، ولا يجلب عليها نفور رجال الكنيسة وهو طالما سعى إلى جمع شتاتهم لبلوغ مطمحه، وكان عليه إذا ما نفذ قرارات المجمع الذى عده فى رسائله يصدر بوحى من الروح القدس (١٠) أن يبدأ بنفسه أولا وعشيرته الأقربين، هذه ناحية . والأخرى أنه لو كان صادقاً ما يرويه سقراط لكانت قسطندياً، بفعل ذلك الرجل، أشد حباً لآريوس وأكثر حماساً لقضيته، ومن ثم يضحى تأثيرها على الإمبراطور أوقع . إلا أنها لم تخبر أخاها بشىء عن آريوس ولم تطلب منه عنه عفواً ولم تسأله صفحاً . وفوق هذا وذاك ما يكنه الإمبراطور ليوسيبيوس جزاء تحديه للأساقفة وتبجحه فى حضرة الإمبراطور، وفى رسالة قسطنطين إلى أهالى نيقوميديا نقف على مدى الاتهامات التى يقذف بها الإمبراطور أسقف المدينة، ويقول زنوس Zenos أن سقراط ذكر تلك الحادثة فى غير موضعها، والذى نعلمه أن قرار العفو عن يوسيبيوس وثيوجنس قد صدر فى سنة ٣٢٨ أى بعد أن أمضيا فى المنفى ثلاث سنين سوياً(١١) .

أما رواية سوزومنوس فنقف منها على أن الإمبراطور قد أعاد آريوس من منفاه أولاً، ولكن قرار منعه من دخول الإسكندرية ظل سارياً وسرعان ما عاد كل من يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس النيقى إلى كنيستهما بعد أن قدما إلى الأساقفة وثيقة توضح عقيدتهما وأنهما إنما يتبعان الإيمان القويم حسبما قرره مجمع نيقية(١٢).

ويبدو أن الأمر اختلط على سقراط فعد جهاد يوسيبيوس بعد عودته من

---

(10) EVSEB. vita. Const. III, 17.
وراجع أيضا SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(11) Zenos, introduction to (SOCRAT. hist eccl. Nicene). II, p. 19, n. 1.
(12) SOZOM. hist. eccl. II, 16.

المنفى لقبول آريوس فى كنيسة الإسكندرية ثانية، وكان الإمبراطور قد عفا عنه ولم يعد إلى الإسكندرية بعد، سعيا للعفو عن آريوس الذى كان الإمبراطور قد أصدر فعلاً قراراً عفوه عنه .

والذى نراه أن الإمبراطور وقد رأى المجمع لم ينجح فى القضاء على الآريوسية وأن خطرها لازال كامناً فى أفئدة الكثيرين، وهاهم الآن يعودون من جديد لجمع صفوفهم فى مصر متضامنين مع الفريق المليتى، فى الوقت الذى أحست فيه الكنيسة الجامعة بقوتها، بعد هذا الإجماع الكبير على صيغة قانون الإيمان النيقى، وبعد أن رأت نفى زعماء خصومها على يد الإمبراطور، ولهذا أيقن قسطنطين تمشياً مع سياسته أن السبيل الوحيد لإيجاد التوازن أن يعيد زعيم الآريوسية إلى دائرة الكنيسة، وحتى يضمن أيضاً بذلك صمت مشايعيه والتخلص من خطر هذا الانقسام فى الرأى . على هذا النحو بدأ قسطنطين يكاتب آريوس يدعوه للعودة إلى حظيرة الإيمان القويم . وقد حفظ سقراط رسالة بعث بها الإمبراطور إلى آريوس جاء فيها :

" لزمن مضى، بلغ نيافتكم أن فى مقدوركم الوفود إلى مقامنا بغية الحصول منا على لقاء، وكم كانت دهشتنا بالغة لتوانيكم فى الإقدام . وعليه إذن . . بادروا بالارتحال مسرعين إلى بلاطنا، وعندما تحسون رحمتنا بكم وتقديرنا إياكم تضمنون العودة إلى دياركم . دعائى إلى الله أن يحفظكم عزيزى " (١٣) .

ويعلق سقراط على هذه الرسالة بقوله : تلكم هى رسالة الإمبراطور إلى آريوس وما أنا بمستطيع القول شيئاً سوى أن أبدى إعجابى لتلك الغيرة والحماسة التى أظهرها الإمبراطور من أجل الديانة (١٤) !!

ويتضح من رسالة الإمبراطور عدة أمور على جانب كبير من الأهمية، فهذه الرسالة لم تكن الوحيدة بين الرجلين، ولكنها كانت الأخيرة كما نعلم من سقراط(١٥).

(13) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

(14) Id.

(15) Id.

فحديث الإمبراطور يوحى أنه بعث إلى آريوس قبلاً يدعوه للحضور إليه، وآريوس يتجاهل، أو بتعبير قسطنطين " يتوانى "، ويبدى الإمبراطور دهشته الكبيرة لذلك الإحجام على توانيه فى المثول أمام الإمبراطور رغم أن ذلك عرض عليه أكثر من مرة، كما يتضح أيضاً مدى لهفة قسطنطين على استقبال الرجل وكأنه يغريه بفيض رحمته وسماحته بالإذن له بالعودة إلى الإسكندرية، ولعلنا ندرك من قول الإمبراطور هذا مدى حرصه على الحفاظ على وحدة الإمبراطورية وإقرار السلام بها، وذلك شيء يفسره سقراط بغيرة الإمبراطور وحماسته الدينية!!.

أمام إلحاح الإمبراطور جاء آريوس إلى القسطنطينية يصحبه يوزيوس الشماس الذى كان اسكندر قد حرمه باعتباره نصير آريوس عند بداية الجدال بين الرجلين (١٦)، والذى أدين أيضاً على يد مجمع نيقية وقد استقبلهما الإمبراطور وسألهما عما إذا كانا قد وافقا على قانون الإيمان النيقى، فأعطياه موافقتهما، فطلب إليهما أن يقدما إليه مكتوباً يؤكد قولهما (١٧)، فاستجاب آريوس وصحبه لأوامر الإمبراطور وقدما إليه الصيغة التالية :

" أريوس ويوزيوس . . إلى سيدنا التقى الورع قسطنطين الإمبراطور .. أيها السيد الحاكم، وفقاً لأمر جنابكم البار هانحن نعلن إيماننا، ونعترف أمام الله كتابة وأشياعنا نؤمن هكذا . . نؤمن بإله واحد . . الآب القدير وبالرب يسوع المسيح ابنه المولود منه قبل الدهور . الله الكلمة الذى نزل وتجسد، وتألم وقام ثانية وصعد إلى السماء، وسوف يأتى ثانية ليدين الأحياء والأموات . (نؤمن) أيضاً بالروح القدس، بقيامة الجسد، بالحياة الآخرة، بملكوت السماوات . بكنيسة لله واحدة تمتد فوق كل الأرضين .

" هذا الإيمان عن الأناجيل المقدسة تلقيناه، حيث يقول السيد لتلاميذه : اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ٢٨/١٩) .

(16) THEOD. hist. eccl. I, 3.
(17) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

" وإنا إن لم نؤمن ونتقبل بحق الآب والابن والروح القدس كما تبشر الكنيسة الكاثوليكية والكتب المقدسة (التى نؤمن بكل ما جاء فيها) فالله قاضينا كلينا الآن ويوم الدينونة . أيها الإمبراطور القانت . نضرع إلى تقواكم، نحن يا من كُرسنا للأكليروس، يا من نتمسك بعقيدة وفكر الكنيسة والكتب المقدسة . . هلا سمح ورعكم وتقواكم بعودتنا ثانية إلى أمنا الكنيسة . ولنلق جانباً سطحى المسائل والجدال . عندما نغدو كلانا والكنيسة وقد احتوانا سلام . . لعهدكم الأمين، ولأجل الأسرة كلها تقدم صلواتنا والابتهال " (١٨) .

وأول ما يلفت النظر أن صيغة الإيمان هذه جاءت خلواً من عبارة " من نفس الجوهر " (الهوموسية) وهى التى دار حولها الجدل طيلة طرح هذه القضية فى المجمع، وهى العبارة التى أخبر يوسيبيوس القيسارى أن الإمبراطور نفسه هو الذى اقترح إضافتها إلى العقيدة . يضاف إلى هذا خلوها أيضاً من عبارة " مولود غير مخلوق " وهى التى أدخلت أيضاً برأى المجمع على مرسوم الإيمان القيسارى. ويقول جونز أن صيغة الإيمان التى قدمها آريوس ويوزيوس كانت فى جملتها مختصرة ماكرة (١٩) . وعلى الرغم من كل هذا فإن الإمبراطور لم يلق بالاً إلى هذه الموضوعات التى كانت سبباً فى الانقسام، لعدم إدراكه لعمق هذه الخلافات اللاهوتية على النحو الذى فصلناه منذ البداية، ولم يكن يعنيه من أمرها إلا ما تسببه فقط من اصطراعات داخلية واضطرابات تؤرق جفنه، ومن ثم بدا متلهفاً على إعادة الوحدة إلى الكنيسة والدولة، فعد هذه الصيغة اعترافاً من الزعيم الآريوسى بمرسوم الإيمان النيقى، وقبل منه وزميله ذلك، وقد رآه حسناً، واستجاب لنداء الرجلين الذى جاء فى نهاية ملتمسهما، وأصدر أوامره بالعفو عن آريوس وصاحبه. وكان الإمبراطور قد قرر أيضاً استدعاء كل من يوسيبيوس وثيوجنس من المنفى، وأمر بعودتهما ثانية كل إلى كنيسته بعد أن قدما وثيقة توضح عقيدتهما وأنهما يتبعان الإيمان القويم (٢٠) . وكان هذا يعنى بداهة عزل الأسقفين البديلين

---

(18) SOCRAT. hist. eccl. I, 26.
(19) Jones, Constantine, p. 175.
(20) SOZOM. hist. ecct. II, 16.

أمفيون وكرستوس اللذين اختيرا من قبل، ولم يكن قسطنطين من الغفلة والبلاهة إلى الدرجة التى يمكن أن يغيب عن ذكائه أن عودة آريوس ورفاقه من منفاهم ثانية، كفيلة بإثارة البلبلة والاضطرابات من جديد، بل لابد أن الرجل كان يعلم ذلك جيداً، ولكنه أقدم على ذلك لإيمانه بأمرين، أولهما أنه صاحب السلطة المطلقة، والتى لا يمكن لأحد أن يقف معارضاً لها، والثانى أنه بهذا يجعل من نفسه الحكم الفصل فى كل نزاع ينشب داخل الكنيسة .

ولعلنا ندرك خلال كل هذه الحوادث دور الإمبراطور فى تحريكها فلقد تكفل بمراسلة آريوس ودعوته إلى بلاطه وطلبه إليه تقديم صيغة للإيمان موافقة الكنيسة. وقبوله بنفسه لهذه الصيغة دون أن يرجع فى شىء من هذا كله إلى أى من رجال الكنيسة، ولم يطلب إليها رأياً أو يستمد نصحاً . وذلك شىء لم يكن من غير الطبيعى فى شىء ما دامت الكنيسة قد هللت للإمبراطور وهو يترأس مجمع أساقفتها ويتدخل بنفسه فى أمور العقيدة بالحذف والإضافة، فلا غرو إذن أن يخرم الإمبراطور، ويمنع، وأن يعفو ويصفح دون أن يرهق فكر الكنيسة بشىء من هذا. واستسلمت الكنيسة طوعاً وكرهاً، فوضع قسطنطين بذلك لخلفائه سنة احتساب الكنيسة دائرة من دوائر الحكومة، للأباطرة حق تعيين كبار موظفيها وعزلهم.

ولقد جاءت الأحداث بالفعل بما كان متوقعاً وإن لم يكن قسطنطين يرغب فيه . ذلك أن كنيسة الإسكندرية رفضت الانصياع لأوامر الإمبراطور، ووقفت على الأقل، من بين كنائس الإمبراطورية تدافع عن الإيمان النيقى الأرثوذكسى متحدية الإمبراطور، ضاربة بعرض الحائط قراراته ورغبات بطانته الكنسية الجديدة . وذلك فى عهد شخصية تعد من أقوى الشخصيات المصرية هو أثناسيوس، أسقف الإسكندرية، شماس المجمع النيقى الشهير، الذى تولى الأسقفية خلفاً لسلفه اسكندر عام ٣٢٨، فبدأ بهذا الرجل فصل جديد من فصول الصراع بين الكنيسة والدولة لم يسدل عليه الستار إلا فى القرن السابع والمسلمون يؤذنون بالتسامح على أبواب مصر .

خيل للإمبراطور وداعبه الأمل فى أن سنوات عمره الباقية ستقضى فى هدوء كان دائماً ينشده، فها هو آريوس نفسه قد عاد إلى الاعتراف، على الأقل من وجهة

نظر الإمبراطور، بالإيمان النيقى . وهاهم صحبه قد سلكوا أيضاً نفس السبيل، ولم يبق إذن إلا أن يقبل الأسقف السكندرى أثناسيوس آريوس فى الكنيسة ثانية . ولكن الإمبراطور كان واهماً فى تصوره فالأساقفة الآريوسيون وإن كانوا قد أبدوا موافقتهم وبصورة غامضة على ما قرره أساقفة نيقية إلا أن ذلك لم يكن صادراً عن رغبة أكيدة فى اعتناق هذا الإيمان فعلاً .وذلك شيء برهنت عليه أحداث ما يقرب من قرن من الزمان . ولكنهم كانوا فى حقيقة الأمر يؤمنون تمام الإيمان أن آريوس على اليقين وأن خصومه عن الحق بعيدون . ومن ثم راحوا يسعون جاهدين لكسب الإمبراطور إلى جانبهم لتأييد قضيتهم، وساعدتهم على ذلك الأحداث .

يخبرنا سقراط (٢١) وسوزومنوس (٢٢) أن يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس النيقى قد حظيا لدى الإمبراطور وعقب عودتهما من المنفى بمكانة كبيرة وحرية فى القول وتأثير كبير على الإمبراطور، وقد يبدو ذلك عجيباً إذا ما عدنا إلى الرسالة التى بعث بها الإمبراطور إلى أهالى نيقوميديا يوضح لهم فيها خبائث يوسيبيوس ورفيقه، ولكن سرعان ما يزول العجب إذا أدركنا أن الإمبراطور كان يبغى كسب ولاء هذين الرجلين باعتبارهما أبرز شخصيات الفريق الآريوسى عله بذلك يضمن ولاء أنصارهما، ومن ثم قربهما الإمبراطور إليه متغاضياً عن كل ما جرى على قلمه عنهما آنفاً . هذا من ناحية، ومن الأخرى فقد قدم الرجلان لقسطنطين وثيقة إيمان عدها قويمة وارتضى بها أرثوذكسيتهما .أما الثالثة فقد كان للاتجاه الذى اتخذه أثناسيوس السكندرى أكبر الأثر فى إيغار صدر الإمبراطور عليه وتقريبه التالى لخصومه الذين وجدوا فى ذلك أعظم الفرص لبلوغ غاياتهم .

سعى الشيخان لدى الإمبراطور لإعادة آريوس ثانية إلى كنيسة الإسكندرية، وكان قسطنطين على وعده الذى وعد به آريوس فى رسالته الأخيرة إليه، فكتب إلى الأسقف السكندرى يطلب إليه قبول آريوس (٢٣) . كما كتب يوسيبيوس

(21) SOCRAT. hist. eccl. I. 27.
(22) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(23) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

النيقوميدى أيضاً إلى أثناسيوس بهذا المعنى، وإن كانت لهجة يوسيبيوس تحمل ضمناً معانى التهديد (٢٤) .غير أن أثناسيوس أرسل إلى الإمبراطور ما يفيد عدم قبوله الزعيم الآريوسى فى بيعته (٢٥) .

ذلك أمر لم يكن يتوقع الإمبراطور حدوثه . فقد حسب أن أحداً من رجالات الكنيسة قل شأنه أو كبر لا يملك المقدرة للاعتراض على أى قرار للإمبراطور، ومن ثم استشاط غضباً لهذا الذى يسمع ويرى !! وزاد الطين بله أنه قد بلغه أيضاً أن أثناسيوس رفض قبول المليتيين فى الكنيسة، واحتج على اختيار يوحنا المليتى خلفاً لمليتيوس (٢٦) . وكان المليتيون قد جاروا بالشكوى للإمبراطور من المعاملة التى يلقونها على يد أسقف الإسكندرية . ويصور سوزومنوس حالة قسطنطين عندئذ أحسن تصوير حيث يقول " أصبح الإمبراطور من أمره فى حيرة . . أى الفريقين يصدق لقد كان أمامه كثير من الاتهامات التى ألصقوها ببعضهم، وهناك أيضاً العديد من البيانات والأدلة التى قدمها الطرفان، فلما عاين الإمبراطور ذلك كله استبد به القلق وبلغ به الغضب حداً كبيراً (٢٧) . فكتب فى محاولة لإعادة الوئام، إلى أثناسيوس متوعداً، وحمل الرسالة اثنان من موظفى القصر هما سينكلتيوس Syncletius وجاودنتيوس Gaudentius (٢٨) وجاء فيها :

" إنك ولا شك تعى تماماً إرادتنا، لا تحل البتة بين أى فرد ورغبته فى دخول الكنيسة، ولتدرك جيداً أنه إذا ما نما إلى علمنّا أن أحداً ممن يرغبون فى العودة إلى الكنيسة . قد حيل بينه وبين ما يشتهى، لأبعثن على التو من يقوم بعزلك إنفاذاً لمشيئتى ويرسل بكم إلى المنفى (٢٩).

(24) SOZOM. hist. eccl. II, 18.
(25) ATHANAS. Apol. C. ARIAN. 60.
(26) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(27) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(28) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(29) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

ويبدو أن الإمبراطور لم يكن جاداً فى تهديده هذه المرة، فقد قصد بذلك مجرد قهر أثناسيوس على الامتثال لأوامره، وذلك شىء دلت عليه الأحداث بعد ذلك وأوضحه تعليق سقراط على هذه الرسالة بقوله أن الإمبراطور ما أقدم على ذلك إلا مدفوعاً بالرغبة فى نشر الخير العام وعدم رؤية الكنيسة ممزقة . فطالما جاهد الإمبراطور ليجمع على الوئام صفوفهم " (٣٠) .

ومهما يكن من أمر فقد اتضح أن الفريق الآريوسى قد بدأ يفيق إلى حد بعد اللكمة التى كالها له مجمع نيقية، وأخذ الإمبراطور بالتالى يدخل هذه الظاهرة فى اعتباره ويحسب بدقة حسابها إلا أن أحداثاً أخرى وقعت خارج الإسكندرية جذبت اهتمام الإمبراطور إلى حين، وكان سببها كما يقول سقراط ما تبين خلال الرسائل التى تبودلت بين الأساقفة عقب مجمع نيقية، أن عبارة " من نفس الجوهر " قد سببت المتاعب للكثيرين منهم، ولذلك فإنهم شغلوا أنفسهم بفحص دقيق حول فحواها مما أدى بالتالى إلى إشعال نيران الجدال بينهم ثانية، ويضيف سقراط، يبدو أن المسألة كانت نزاعاً فى ظلام لأن أحداً من الحزبين لم يحاول فهم موقف الآخر والأسس التى يعتمد عليها، فهؤلاء الذين يعارضون هذه العبارة يعتقدون أن أنصارها يتحمسون لآراء سابليوس (٣١) ومونتانوس، ومن ثم أطلقوا عليهم مجدفين أو ملاحدة .هذا على حين يتهم أصحاب هذه العبارة خصومهم بالشرك والقول بتعدد الآلهة معتبرين إياهم وثنيين يؤمنون بالخزعبلات (٣٢)، وعلى هذه الشاكلة اتهم يوستاثيوس Eusathius أسقف أنطاكية يوسيبيوس أسقف قيسارية بالمروق عن قانون الإيمان النيقى، فأنكر يوسيبيوس ذلك ورد التهمة إليه بأنه مدافع عن أفكار سابليوس، ونتيجة لذلك أو لسوء الفهم هذا، على حد تعبير سقراط، كتب كل منهما كما لو كان يناضل

(30) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٣١) سابليوس Sabellius أحد مواطنى طلميثة Ptolemais (إحدى المدن الخمس الغربية) وقد نادى فى القرن الثالث الميلادى بأن الأقاليم الثلاثة منفصلة، ولكنها صور مختلفة للأقنوم الأول فى الثالوث. وقد تصدى للرد عليه الأسقف السكندرى ديونيسيوس.

انظر ATHANAS. Orat. C. Arian. IV, 9.

(32) SOCRAT. hist eccl. I, 23.

عدواً لدوداً (٣٣) . وما يقوله سقراط هنا يؤكد ما ذكرناه فى الفصل السابق من أن هاتين العبارتين " من نفس الجوهر " و " مولود غير مخلوق " قد فتحتا باب الصراع الكنسى حول المسيح وطبيعته على مصراعيه لعدة قرون تالية .

الحقيقة أن لدينا عديداً من الروايات عن الاتهامات التى سيقت ضد يوستاثيوس، فيوسيبيوس صاحب النزاع معه لا يعطينا أى تفصيلات عن أسباب هذا النزاع، ولعل ذلك قد يبدو متفقاً مع نهجه فى كتابه " حياة قسطنطين " . ولا يذكر شيئاً عن هذه الحوادث سوى أن " تدابير الشيطان وعيون الحاسدين " هى التى أحدثت هذه الاضطرابات فى أنطاكية بزعامة يوستاثيوس (٣٤) . أما أثناسيوس فإنه يثنى على الأسقف الأنطاكى ويمتدح خصاله وقويم إيمانه مما لم يرض خصومه الآريوسيين فكالوا له التهم عند الإمبراطور مدعين بأنه أهان هيلينا (٣٥). على حين أن ثيودوريتوس يوسع دائرة الخلاف لتشمل يوسيبيوس النيقوميدى معتبراً إياه سبب كل هذا البلاء، ويقول أنه أبدى رغبته للإمبراطور فى السفر إلى أورشليم لحضور الاحتفالات المقامة لتدشين الكنيسة التى أقامها الإمبراطور هناك . ولما كان قسطنطين قد اطمأن لأقواله فقد سمح له بذلك وزودوه بكل ما يحتاج إليه فى حله وترحاله، ولما كان ثيوجنس أسقف نيقية صديقه الحميم فقد اصطحب معه فى سفره، فلما وصلا إلى الأماكن المقدسة تلاقت وجهتا نظرهما مع من يشاركونهما الرأى فى فكرهما خاصة يوسيبيوس قيسارية، وباتروفيلوس أسقف بيسان، وآيتيوس أسقف اللد وثيودوتوس أسقف اللاذقية، وآخرين غيرهم يتعاطفون مع العقيدة الآريوسية، وقر رأيهم على تدبير " مؤامرة " معينة حسب تعبير ثيودوريتوس، ومن ثم رحلوا إلى أنطاكية وكان إدعاؤهم الذى زعموه لهذه الرحلة هو رد اعتبار يوسيبيوس (٣٦) .

(33) Id.
(34) EVSEB. vita Const. III, 59.
(35) ATHANAS. hist. Arian, 4.
(36) THEOD. hist. eccl. I, 20.

ولكن الغموض يكتنف هذه القصة، فالاحتفال بتدشين كنيسة أورشليم تم عام ٣٣٥، بينما وقعت هذه الأحداث سنة ٣٣٠ (٣٧) . وعلى الرغم من تعدد هذه الروايات إلا أن الإجماع عندهم على أن مسألة العقيدة والخلاف بين الرجلين بشأنهما كان السبب الرئيسى فى حدوث هذه الاضطرابات .ولحسم هذا الخلاف دعا الإمبراطور إلى عقد مجمع فى أنطاكية (٣٨) ترأسه يوسيبيوس القيسارى (٣٩) . ويسوق ثيودوريتوس صورة من الاتهامات التى وجهت ضد يوستاثيوس (٤٠) . ولكن هذه الاتهامات تبدو غير حقيقية لأنها لم ترد فى كتابات سقراط أو سوزمنوس أو إثناسيوس . ولكنا نعلم من سقراط أن كيروس Cyrus أسقف بيرويا Beroea (حلب) قد تولى مهمة الإدعاء ضد يوستاثيوس، فاتهمه بأنه يردد نفس الآراء السابيلية (٤١)، ولما كانت غالبية الحاضرين فى المجمع من مؤيدى يوسيبيوس تم عزل يوستاثيوس من منصبه (٤٢)، وأصدر الإمبراطور أوامره بنفيه إلى ترجانابوليس فى تراقيا (٤٣) . وحول ما يقوله سقراط عن عزل أسقف أنطاكية تتضح الحالة التى كانت تسود الكنيسة عندئذ، والعداوات المتأصلة بين رجالها، فبعد أن يسوق حادث العزل يقول أن هذا الإجراء قد اتخذ لأسباب غير مقنعة، وقد كان هذا أمراً شائع الحدوث، فقد اعتاد الأساقفة أن يفعلوا ذلك فى كثير من الأحوال، يتهمون ويعلنون فساد أولئك الذين يعزلونهم دون أن يقدموا تبريراً لهذا العمل (٤٤) .

(37) McGiffert, op. cit. p. 21; Latourette, Christianity, p. 158; F. Jackson, op. cit. p. 316; Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 102.

(38) EVSEB. vita Const. III, 60.

(39) Downey, op. cit. p. 352.

(40) THEOD. hist. eccl. I, 20.

(41) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.

(42) EVSEB. vita Const. III, 60; SOCRAT. hist. eccl. I, 24; SOZOM. hist. eccl. II, 19; THEOD. Hist. eccl. I, 20.

(43) HIER. Vir. Ill. 85.

(44) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.

ما كاد المجمع يصدر قراره بعزل يوستاثيوس حتى شبت الثورة فى أنطاكية وانقسم الناس إلى فريقين، بين مؤيد للقرار ومعارض،وحمل كلاهما السلاح وأضحت المدينة على شفا الحرب الأهلية، وارتاع الإمبراطور لهذه الأحداث، وأصبح الأمر فى نظره غاية فى السوء، وامتلأ على حد تعبير سوزمنوس غيظاً وحنقاً، وأرسل على الفور من لدنه قائداً كبيراً خوله سلطات ضخمة لإخماد هذه الفتنة (٤٥)، هو موزونيانوس Musonianus (٤٦) ووضع حد لهذا الاضطراب دون اللجوء إلى العنف كلما أمكن ذلك (٤٧).

وتضطرب الروايات فيمن خلف يوستاثيوس على أسقفية أنطاكية فسقراط(٤٨) وسوزمنوس (٤٩) يعطيانا اسم يوسيبيوس القيسارى مباشرة مرشحاً لهذا المنصب، على حين نعلم من رواية أخرى أن باولينوس أسقف صور قد خلف الأسقف الأنطاكى المعزول مدة ستة أشهر فقط (٥٠)، ثم تبعه بعد ذلك يولاليوس Eulalius والذى لم يمض عليه إلا زمن يسير وذلك حسب رواية ثيودوريتوس (٥١) . ثم رأى الأساقفة بعد ذلك ترشيح يوسيبيوس القيسارى لشغل كرسى الأسقفية الشاغر (٥٢) .ويقول سوزومنوس : لقد دخل فى روع أولئك الأساقفة الذين اجتمعوا فى أنطاكية وأصدروا قرارهم بعزل يوستاثيوس، أن هذا القرار سوف يلقى استحسان الجميع عامة والإمبراطور خاصة إذا ما رفعوا إلى الكرسى الأسقفى بدلاً منه رجلاً يميل إلى آرائهم معروفاً لدى الإمبراطور قريباً منه، مرموقاً فى علمه وفصاحته . ومن ثم قر رأيهم على يوسيبيوس القيسارى، وكتبوا إلى الإمبراطور بخصوص هذا الموضوع وأكدوا له أن هذا الاقتراح يلقى استحسان الأساقفة ورضاء الرعية (٥٣) . غير أن يوسيبيوس رفض قبول هذا المنصب وكتب إلى الإمبراطور رسالة بهذا المعنى (٥٤) .

---

(45) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(46) Downey, op. cit. p. 352.
(47) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(48) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.
(49) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(٥٠) مات باولينوس قبل مجمع نيقية. انظر: McGiffert, op. cit. p. 45.
(51) THEOD. hist. eccl. I, 21.
(52) Id.
(53) SOZOM. hist. eccl. II. 19.
(54) Id.; SOCRAT. hist eccl. I, 24.

وكان قرار يوسيبيوس بعدم قبول هذا الكرسى الشاغر دليل حصافة وحسن رأى من جانبه . فقد رأى أن انقسام الأنطاكيين سوف يزداد حدة إذا ما رأوا أن يوسيبيوس خصم يوستاثيوس اللدود قد أصبح أسقف المدينة، وكان يوسيبيوس غير راغب فى أحداث صراع فى الكنيسة (٥٥) . هذا بالإضافة إلى أن هذا المكان الجديد ما كان ليجذب رجلاً فى مثل عمر يوسيبيوس كان مزاجه آنئذ محباً للسلام وذوقه مدرسياً، ففى قيسارية قضى يوسيبيوس الجزء الأكبر من حياته، وبها مكتبة أستاذه بامفيلوس تحت تصرفه، كما أن الفرصة له هنا سانحة لمتابعة أعماله الأدبية والعقائدية . أما فى أنطاكية فلسوف يجد نفسه مرغماً على الغوص فى فتن من كافة النواحى .وسوف يجد نفسه ملزماً لتكريس انتباهه فى إنجاز مهامه الرسمية وحدها(٥٦) .

هذا من ناحية، ومن الأخرى لا يخفى علينا علاقة يوسيبيوس بالإمبراطور، وكان الأول يعلم مدى حرص قسطنطين على وحدة الكنيسة وبالتالى وحدة الدولة، ويدرك تماماً ما انتاب الإمبراطور من ضجر وغيظ لدى سماعه بانقسام رجال الكنيسة فى مصر وما جره هذا الانقسام على كنائس الشرق من فرقة وتخاصم . ولذلك ما كان يوسيبيوس يرغب مطلقاً فى أن يزيد إلى آلام الإمبراطور جرحاً آخر بالعمل على استفحال الفوضى والاضطراب والشقاق فى أنطاكية . وما كان ليجر على نفسه غضب الإمبراطور ونقمته، بل لا شك أن صاحبنا يوسيبيوس كان يعلم أن الإمبراطور سوف يرفض مثل هذا الاقتراح لهذا أثر الانسحاب بنفسه قبل أن يرغمه الإمبراطور .

تبدى اهتمام قسطنطين البالغ بهذه المشكلة فى الموقف الذى اتخذه حيالها، فقد بعث بثلاث رسائل إلى شعب أنطاكية ويوسيبيوس ومجمع الأساقفة بها، وتعد الأولى أهم هذه الرسائل على الإطلاق لأنها تفصح بجلاء عن قلق الإمبراطور واضطرابه ورغبته فى حسم هذا الأمر بصورة فعالة . وقد بدأ قسطنطين رسالته بمقدمة طويلة عن السلام والتمسك بالقانون الإلهى وضرورة إحلال الوئام بين الجميع . ثم يقول :

(55) McGiffert op. cit. p. 22.
(56) Id.

" لعلكم الآن تقفون مشدوهين ولعلكم أيضاً فى حيرة من أمركم تتساءلون ماذا يعنى بهذا التمهيد ؟! بلا حذر سأجيبكم وبلا تردد، أصدقكم القول . . ما إن طالعت كتاباتكم إلى والتى تعلى فى الخافقين ذكر يوسيبيوس أسقف قيسارية، ذلك الرجل الذى أعرفه حق المعرفة وأكن لعلمه واعتداله كل تقدير، حتى أدركت أنكم به متعلقون، وفى الاستئثار به راغبون .. أية أفكار إذن تظنون أنى أحملها حول هذا الأمر، وأنتم تعلمون رغبتى فى البحث من أجل الحق وإنقاذ مبادئه ؟! ألا تدرون أى قلق انتابنى لرغبتكم هذه ؟ ... إن الذى جعل من الحفاظ على السلام مبتغاه يغدو سيداً على النصر ذاته . وحيث يبدو الطريق عند أى اختيار قويماً بيناً . فلن يتردد امرؤ أن يسلك جادته . والآن . . . أخوتى، إنى لأتساءل . . لماذا نقدم على اختيار قد يلحق بالآخرين بالغ الضرار، لماذا نشتهى أموراً لابد ملحقة بسمعتنا الدنس ؟! إنى لأكن ذاتى لهذا الذى أوليتموه كل احترامكم والحب، التقدير، إلا أنه بالرغم من ذلك لا يصح بنا أن نغض الطرف عن تلك المبادئ التى يجب على جميعنا مراعاتها، فينال كلنا حقه المشروع، وليس من الصواب عند النظر فى ادعاءات مرشحين آخرين، افتراض أن واحداً بعينه استحوذ الصلاح كله. فقد يكون هناك كثيرون بالمنصب جديرين . وحيث أن الكنيسة لا تتعرض كرامتها للعنف والغلظة، فإن هؤلاء جميعاً يصبحون على قدم المساواة ويستحقون إذن منا نفس التقدير " (٥٧) .

على هذا النحو راح قسطنطين يرغب أهالى أنطاكية بجميل القول عن اختيار يوسيبيوس القيسارى أسقفاً خلفاً ليوستاتيوس، وأوضح لهم بمعسول الحديث أن هناك غير يوسيبيوس كثيراً من الكفاءات والقدرات التى يمكن أن تقوم بنفس عمله هذا. على أن الشيء الواضح فى هذا الجزء من الرسالة هو ما عبر عنه قسطنطين صراحة من قلقه الشديد لهذه الرغبة التى تراود أهل البيعة الأنطاكية . وهذا شيء يفيض به الجزء الباقى من الرسالة وفيه نهج الإمبراطور نهج الحزم والصرامة مبدياً سخطه وامتعاضه لما ينتوى الأنطاكيون القيام به . يقول :

إذا كان الأمر كذلك فدعونى أقول لكم أنكم بهذا تضعون أنفسكم موضع

---

(57) EVSEB. vita. Const. III, 60.

الاتهام، لا بالاستئثار بهذا الكاهن فحسب، بل بنقله بغير طريق الصواب، وعندها يتسم مسلككم بالعنف لا بالعدل، وعلى أى نحو فكر الآخرون فإنى أؤكد لكم صراحة وبلا مواربة أن هذا الإجراء سوف يفجر ،أسوأ اضطراب حزبى، ذلك أن الرعية حتى ولو كانت مسالمة إلا أنه فى مقدورها إبداء سلطان الحق فى قوة عندما تبدأ عناية راعيهم فى التقلص، ويجدوا أنفسهم وقد افتقدوا حسن رعايته . . وإذا كانت المسألة إذن بهذا الشكل، وإذا لم يخدعنى التقدير، فليكن هذا أيها الأخوة أول الاعتبارات أمامكم، فهناك العديد من هام القضايا لا يلبث أن يفرض نفسه عليكم، إذ أنتم ماضون على عزمكم . . ولكن أليس معنى هذا أن يتعرض الحب والتناغم فيكم للانحسار، ولتذكروا ثانية أن هذا الذى حل بينكم يخلص النصح ينعم الآن بما يستحق من ثواب علوى لأنه تلقى جزاء غير عادى من واقع شهادتكم الصادقة عن مسلكه القويم .

" وأخيراً . . وتمشياً مع تقديركم الصائب، هل باختياركم هذا الرجل الذى تشعرون بالحاجة إليه، قد أبديتم الحصافة اللازمة فى هذا الاختيار وأنتم تعلمون ما يتبع ذلك من قيام الشغب والفرقة، وهل تعلمون أن هذا الخطأ بعينه ؟ وأن الصدام بين الفرق المختلفة قد يولد شراراً ولهيباً " (٥٨).

واختتم قسطنطين رسالته بقراره النهائى الذى لا يقبل الجدل أو المناقشة والذى أضحى تنفيذه على الجميع واجباً، وهو الأمر الذى كان الإمبراطور يؤمن به جيداً من أنه صاحب السلطة المطلقة فى الدنيا والدين، قال :

" إنى لأحتج بشدة على مسلككم، فذلك شىء لا يرضى الله . وليس من صالحكم فى شىء، كما أنى أرى فى موقفكم هذا تهديداً لمشاعرى التى تبغى الاستمتاع بالسعادة والغبطة التى تجمعنى وإياكم وأمنياتكم . . إنى لأحببكم، خاصة وقد لفظتم من بينكم تلك الضلالة وأقمتم مكانها سامى الخلق والوفاق، فثبتم بذلك عالم السلام المقدس، حتى ليحق للمرء أن يقول أنكم محصنون بخوذة حديدية وأنتم

---

(58) EVSEB, vita. Const. III, 60.

تصعدون درج السماوات العلا، ولتحملوا فى سفينكم تجارة لا تفسد، لأنكم قد أفلحتم فى نتح ماء كان يتهددها بالغرق . ولتعنوا من الآن فصاعداً، لضمان الحفاظ على النعم التى تتقلبون فيها، حتى لا يقول عنكم الناس فيما بعد أنكم تمسكتم بنزوة خاطئة أو حماس معيب . أو أنكم اندفعتم فى حمق تتخبطون فى دروب المجهول . لعل الله يحفظكم أيها الأخوة الأحباب " (٥٩) .

هكذا أفصح قسطنطين صراحة عن رأيه فى ترشيح يوسيبيوس، فقد كان الرجل صديقه الحميم، وكان الإمبراطور يحمل له كل تقدير وإعجاب، ولكن صالح الدولة العام أهم بكثير من كل هذه الاعتبارات ومن ثم راح يحذر الرعية الأنطاكية من الإقدام على مثل هذا الإجراء لما سينتهى إليه ذلك من ازدياد حدة الانقسام وعموم الفوضى والاضطراب .

وكم كانت سعادة الإمبراطور عندما أتاه خطاب يوسيبيوس يعلن له فيه رفضه قبول هذا الشرف الذى اقترح أهالى أنطاكية والأساقفة خلعه عليه، معلناً تمسكه بالتقاليد الكنسية التى تحرم انتقال الأساقفة من بيعهم إلى آخر . فرد عليه الإمبراطور برسالة امتدح فيها خلقه القويم وحسن سلوكه . . جاء فيها :

" لقد طالعت باهتمام كبير رسالتك، وأدركت منها مدى تشبثك بالقاعدة التى ارتضتها الكنيسة . وأن التزامك بما يبهج الإله ويتفق والعرف الرسولى لبرهان على تقواك .

" وبهذا يحق لك أن تشعر بغبطة أنت بها جدير، لأنك قمين بأن تكون أسقف عالم بأسره، فأنت تملك البصيرة التى تتمناها آية كنسية . وما من شك فى أن الرغبة التى أبداها الجميع للاحتفاظ بك (راعياً) قد برهنت على مستقبل لك باهر يحسدك الكل عليه . . وعلى الرغم من ذلك، فإن نيافتكم، فى إصراركم على مراعاة الشرائع الإلهية والقوانين الرسولية، قد فعلت حسناً برفضك أسقفية أنطاكية. ورغبتك البقاء فى بيعتك التى رسمت عليها من قبل بإرادة الله .

(59) Id.

" ولقد كتبت فى هذا الصدد إلى شعب أنطاكية، وإلى زملائك الأساقفة الذين تقدموا إلىّ فى هذا الأمر يطلبون نصحى، وإذا ما اطلعتم على هذه الرسائل فلسوف يتبين قداستكم أن العدالة لا تتفق مطلقاً وما يرتجيه هؤلاء . لقد كتبت إليهم بوحى من الله، على أنه يحسن التواجد في مؤتمرهم حتى يعتمد هذا القرار فى كنيسة أنطاكية . . حفظك الله أخى الحبيب " (٦٠) .

اطمأن قسطنطين بذلك إلى أن شعب أنطاكية لن يقدم على ما انتواه بعد أن أنذره بالويل والثبور بغوامض الكلم أو صريحه، وازداد اطمئنانه وهو يرى المرشح نفسه يقرر رفض الكرسى الأنطاكى، وبقى على قسطنطين أن يضع بنفسه خاتمة هذا المشهد الأخير على مسرح أنطاكية . ولم تكن تلك هى الأولى من نوعها، بل لقد سبقتها مشاهد أخرى قام فيها قسطنطين بنفس الدور، بعد أن أضحى فى شئون الكنيسة على كل شيء قدير !! منح لنفسه الحق منذ ادعى أن السماء دون البشر هدته، وتقدمت به إلى الكنيسة منذ سمحت له أن يقرر فى العقيدة ما يشاء، فإذا كان هذا شأنه والعقيدة فما باله والرجال !!

كان الأساقفة المجتمعون فى أنطاكية لا يزالون يقلبون الأمر بحثاً عن أسقف جديد يخلف يولاليوس الذى لم يستمر فى منصبه إليهم، أشار فيها قسطنطين إلى رسالته التى بعث بها إلى أهالى أنطاكية، وأرفق بها صورة هذه الرسالة حتى "يقفوا على رأيه فى هذا الخصوص، ثم أومأ إلى رسالة يوسيبيوس إليه والتى تضمنت اعتذاره عن قبول الأسقفية الأنطاكية، واختتم رسالته بهذا الأمر الصريح .

" يحسن بنا أن نطلع نيافتكم فى هذا الأمر على رأينا، ذلك أنه قد نمى إلى علمنا أن يوفرونيوس Euphronius الكاهن، أحد مواطنى قيسارية كبادوكيا، وجورج كاهن أرثوذا (الرستن) .. George of Arethusa الذى رسم قبلاً على يد اسكندر فى الإسكندرية، إنما هم رجلان ذوا إيمان عميق، وعلى هذا فإنه يجدر بفخامتكم عند اختيار من يستأهل شرف الأسقفية من بين هذين الرجلين وسواهما،

(60) EVSEB. vita. Const. III, 61.

أن تصدروا فى قراركم يوحى من تقاليد الرسل، وبهذا يغدو فى مقدوركم توجيه سير الانتخاب بما يتواءم ونظم الكنيسة والعرف الرسولى حتى يتحقق النظام الكنسى . . رعاكم الله اخوتى الأحبة " (٦١) .

لم يكن أمام الأساقفة أن يسلكوا سبيلاً غير الذى رسمه لهم قسطنطين . فقد اقترح عليهم أو بتعبير أدق أمرهم بالمفاضلة بين رجلين، وعلى أثر تسلم هذه الرسالة قام الأساقفة برسم يوفرونيوس الكبادوكى أسقفاً على أنطاكية (٦٢) . ولكن هذا لم يمكث فيها إلا عاماً واحداً وبضعة أشهر فخلفه فلاكيللوس Flaccillus(٦٣)، ويعلق ثيودوريتوس على ذلك بأن كل هؤلاء الأساقفة كانوا يدينون بالعقيدة الآريوسية(٦٤).

وكان هذا الإجراء الذى أقدم عليه قسطنطين، بتعيين الأساقفة، كما حدث بوضوح عقب عزل النيقوميدى وثيوجنس النيقى سنة ٣٢٥، أو بترشيح اثنين للمفاضلة بين أحدهما، كما هو حادث فى المشكلة الأنطاكية، وهو ترشيح يحمل صيغة الأمر، كان هذا كله سابقة خطيرة فى تاريخ الكنيسة، لم يتخل عنها خلفاء قسطنطين، وأضحت فى الوقت ذاته مثار جدل عنيف لقرون طويلة من تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى فيما عرف بمشكلة التقليد العلمانى، وما صحبها من نزاع بين الإمبراطورية والبابوية حول نظرية (السمو البابوى) .

لقد كانت أنطاكية تمثل مركزاً غاية فى الأهمية بالنسبة للأباطرة الرومان، فقد كانت دائماً مبتغى ملوك فارس فى صراعهم المستمر مع الإمبراطورية الرومانية . ولم يكن يغيب عن بال قسطنطين خطط سابور الثانى لاستعادة الأقاليم التى ضاعت أثناء الحرب الأخيرة بين الدولتين على عهد دقلديانوس، كما لم يكن يخفى عليه أيضاً مركز أنطاكية الإستراتيجى فى أى حرب مقبلة مع فارس . وقد قدمنا أن الملك الفارسى كان ينتهج سياسة عدائية إزاء الرعايا المسيحيين هناك . وعلى ذلك فمن

(61) EVSEB. vita. Const. III, 62.
(62) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(63) THEOD. hist. eccl. I, 21.
(64) Id.

المحتمل أيضاً أن يكون قسطنطين قد سارع جاهداً لحل المشكلة الأنطاكية حتى يجنب المدينة اندلاع حرب أهلية قد تغرى الملك الفارسى بمحاولة استغلالها .

هذا بالطبع إلى جوار السبب الرئيسى لدى قسطنطين، وهو محاولة القضاء على أى انقسام قد تتعرض له الإمبراطورية، وتأكيد سلطانه فوق الجميع .

هدأت بهدوء الأحوال فى أنطاكية سريرة الإمبراطور، ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة، ذلك أن الفريق الآريوسى، ما كان ليرضخ بصورة نهائية وهو يعتقد أنه يدافع عن عقيدة هى الصواب وحق اليقين، وهاهو الآن يتقدم وئيد الخطو محاولاً تثبتْ أقدامه، فالإمبراطور قد عفا عن زعمائه، واستطاع هؤلاء إزاحة خصم لهم لدود من كرسى أسقفية أنطاكية، ولم يبق أمامهم إذن إلا ألد هؤلاء الخصوم على الإطلاق، أثناسيوس الأسقف السكندرى !

وكان قسطنطين قد بعث برسالة إلى الإسكندرية يتوعد أسقفها بالعزل والنفى إذا رفض الامتثال لأوامره فى قبول أولئك الذين يرغبون فى العودة إلى الكنيسة، يعنى بذلك الآريوسيين والمليتيين، غير أن أثناسيوس أصر على موقفه متحدياً رغبة الإمبراطور، وكتب إليه محاولاً إقناعه بأن أولئك " المهرطقين " لا يمكن قبولهم فى الكنيسة الكاثوليكية (٦٥) . وكانت تلك إذن فرصة سانحة اهتبلها الفريق الآريوسى ليوغر صدر قسطنطين على أسقف الإسكندرية (٦٦) . وكان يوسيبيوس أسقف نيقوميديا هو الذى يترأس الآن جماعة الآريوسيين، كما كان من أبرز رجالهم ثيوجنس أسقف نيقية، ماريس Maris أسقف خلقيدونية، أورساكيوس Ursacius أسقف سينجيدونوم Singidunum (بلجراد)، فالنز Valens أسقف Mursa (أوسيك فى يوغسلافيا) (٦٧) . وراح هذا الفريق يوثق صلاته بجماعة المليتيين فى مصر فى محاولة لتوحيد جهودهم ضد الأسقف السكندرى (٦٨)-

(65) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(66) Id.
(67) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(68) ID.; ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

ولخمس سنوات تالية نشب صراع عنيف بين الفريقين، استخدم كلاهما كل ما لديه من أسلحة الدعاية والاتهام، والإمبراطور ينفذ سياسته بدقة، فتارة ينتصر لهذا الفريق، وأخرى يعدل عن رأيه، وهو فى هذا وذاك تلهث أنفاسه ف محاولة للخلاص من هذا الشقاق فى الكنيسة الذى يهدد الدولة كلها .

رسم الحزب اليوسيبيوسى خطته على مرحلتين، الأولى إثارة غضب الإمبراطور على أسقف الإسكندرية، والثانية إشاعة روح السخط والتذمر عند الأساقفة جميعاً على زعيم الإيمان النيقى .

كان يوسيبيوس ورفاقه يعلمون تماماً مزاج الإمبراطور وطبعه الأوتوقراطى ورغبته الجامحة فى الاستبداد بالسلطة، ولم يكن من العسير على أحد عايش قسطنطين فترة من الزمـــن وعاين الأحداث التى مر بها، أن يدرك على الفور نفسية قسطنطين . لقد كانت سياسته تتبلور حول شىء واحد دلت عليه أحداث عصره منذ كان بعد فى بريطانيا، ذلك هو دولة واحدة وحاكم واحد . ولم يكن قسطنطين ليقبل مطلقاً بانقسام فى إمبراطوريته كما لم يكن يسمح لإنسان مهما بلغت منزلته أن ينازعه السلطان، أو على الأقل ينتقص منه شيئاً، وكان هذا متناغماً تماماً مع الفكر السياسى الرومانى الذى يرفض تماماً وجود دولة داخل الدولة . من أجل هذا أشاع فى الناس، وروج له " مادحه " يوسيبيوس القيسارى أنه "مبعوث السماء إلى الأرض"، "حوارى المسيح" !!

وعلى أوتار الوحدة الإمبراطورية وأنغام السلطان راح الفريق اليوسيبيوسى يعزف للإمبراطور لحناً واحداً طوال خمس سنوات، حتى استطاع أن يجبره فى النهاية على أن يصفق له ويخرج من حفل الترانيم تلك النغمة الشاذة الصادرة من كنيسة الإسكندرية !! .

لما كان من غير المعقول اتهام أثناسيوس بالهرطقة أو الزيغ، فقد كان لابد من البحث عن طريق آخر غير طريق العقيدة، ومن ثم اتهم الأسقف السكندرى بأنه قد

SOZOM. hist. eccl. II, 22.

فرض ضريبة على المصريين يؤدونها من الكتان لاستخدامه فى الرداء الكهنوتى(٦٩). كما وأن هذه الضريبة قد جبيت عنوة ممن تقدموا بهذا الاتهام (٧٠). وكان أزيون Ision ويوديمون Eudaemon وكاللينيكوس Callinicus وهم من الفريق المليتى أصحاب ذلك الاتهام (٧١) . ويجمع المؤرخون الكنسيون على أن ذلك كان نتيجة إغراء يوسيبيوس ورفاقه وسواء صح هذا الاتهام أم أنه كان باطلاً فإننا، نلمس مدى الأهمية التى علقها الإمبراطور على مجرد وجوده فقد كان فى حد ذاته اعتداء على سلطانه . إذ أرسل يستدعى إليه فوراً أثناسيوس ليدفع عن نفسه ذلك القول، وما كان أيسر على قسطنطين أن يرسل أحد موظفى البلاط مندوباً عنه لبحث القضية فى المنطقة ذاتها، ولكن استدعاء أثناسيوس إليه يحمل فى طياته مدى نفوذ قسطنطين على رجال الكنيسة ورغبته الجامحة فى إخضاعهم لسلطانه . ويعد فى الوقت ذاته تحذيراً للأسقف السكندرى على مسلكه السابق تجاه الإمبراطور، برفضه تحقيق رغبة قسطنطين فى إعادة آريوس إلى شركة كنيسة الإسكندرية .

ولقد تصادف وجود قسيسين مصريين فى العاصمة الإمبراطورية عندئذ هما أبيس Apis ومقار Macarius فتقدما إلى الإمبراطور ينفيان هذا الاتهام عن أسقفهم، ويؤكدان له أن ذلك القول محض افتراء (٧٢) . ولكن ذلك لم يكن ليثنى الإمبراطور عن عزمه فى استدعاء أسقف الإسكندرية، وما إن جاء هذا إلى البلاط الإمبراطورى حتى كان الفريق اليوسيبيوسى قد أعد ضده اتهاماً جديداً يمس حياة الإمبراطور ذاته، فقد أذاع أن أثناسيوس يتآمر ضد الإمبراطور، وأنه أرسل صندوقاً مملوءاً بالذهب إلى شخص يدعى فيلومنوس Philumenus كان رئيساً للحرس لتنفيذ مخططه (٧٣) . وقد قام الإمبراطور بفحص هذه القضية، فلما اتضح له فى النهاية كذب الدعوى لام المدعين، وأطلق سراح المدعى عليه وسمح له

(69) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(70) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(71) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(72) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(73) Id.

بالعودة إلى بيعته [٧٤]، وشيعه برسالة إلى رعيته يمتدح أسقفهم ويثنى على خلقه ونقاوة روحه معترفاً به رجلاً من رجال الله، مبيناً أنه لما كان الحسد وحده هو سبب اتهامه الآن، فإنه بذلك ارتفع فوق مستوى متهميه والشبهات [٧٥] ولم ينس قسطنطين فى رسالته أن يحث كلاً من الفرق المتنازعة على الانصراف إلى تبجيل الإله ورعاية حق أثناسيوس، وأوصاهم بحسن السلوك تجاه بعضهم البعض . ويعلق سوزمنوس على ذلك قائلاً : هكذا كتب الإمبراطور إلى الرعية يستحثها على الوئام والوحدة ساعياً إلى منع حدوث أى انقسام فى الكنيسة[٧٦].

وعلى الرغم مما يبدو من سياق هذه الأحداث أن الإمبراطور قد أعاد أثناسيوس إلى كنيسته معززاً مكرماً، إلا أنه قد تأكد لديه أيضاً أن وجود الأسقف فى حد ذاته بعدائه الذى يتبادله والفريق الآريوسى يعد مصدر خطر كامن وحقيقى، وكان هذا هو ما يسعى إليه الحزب اليوسيبيوسى، وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى خطاها . وإن كان الإمبراطور قد أدرك أن الوقت لم يحن بعد للتخلص من أثناسيوس ولو مؤقتاً كما فعل مع آريوس ورفاقه من قبل .

بقى إذن أن يثير يوسيبيوس ورفاقه الأساقفة ضد اثناسيوس، ولا يتأتى ذلك إلا بإظهاره فى صورة رجل الدين الذى لا يحترم زملاءه رجال الأكليروس ويحتقر ذوى المرتبة الثانية منهم .

ولعل هذا الذى نخوض فيه الآن، وما علمناه آنفاً من انشغال أساقفة مجمع نيقية خلال جلساته الأولى فى تقويم الشكايات ضد بعضهم بعضاً، يفصح صراحة أن الموقف الجديد الذى اتخذته الدولة ممثلة فى قسطنطين تجاه المسيحية والاهتمام بأمورها الداخلية، قد صرف كثيراً من الأساقفة، ومن بينهم رعاة لأسقفيات كبيرة، عن ممارسة واجبهم الروحى إلى أمور أخرى لا علاقة لها بأمر العقيدة أو التنظيم الكنسى، وتلك سمة أضحت واحدة من أهم سمات أساقفة الكنيسة فى هذه القرون

(74) Id.
(75) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(76) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

المبكرة من عمر الإمبراطورية البيزنطية . والآن فلنذهب إلى مصر ولنر ما كان من أمر الأساقفة مع أثناسيوس . هذا علماً بأننا نستقى كل معلوماتنا هنا إما من الأسقف السكندرى نفسه أو مؤرخى الكنيسة خصوم الآريوسية .

كانت مريوط Mareotes إقليماً تابعاً للإسكندرية، وكانت تضم قرى عديدة تمتلئ بالسكان وبعدد من الكنائس، وكانت كل هذه الكنائس تحت سلطان أسقف الإسكندرية (٧٧) . إلا أن شخصاً يدعى اسخيراس Ischyras لم يكن من رجال الأكليروس ادعى لنفسه حق حمل لقب قسيس (٧٨) . وكان هذا فى حد ذاته اعتداء على نفوذ الأسقف السكندرى، وقد علم أثناسيوس بأنباء هذه الأحداث من قسيس هذه المنطقة عندما كان الأسقف يقوم بزياراته المعتادة للإقليم، فأوفد الأسقف السكندرى قسيساً يدعى مقار بصحبة قسيس المنطقة لإحضار اسخيراس، غير أنهم ألفياه يعانى آلام المرض، فطلبا إلى أبيه تحذير ابنه من التمادى فى غيه، ولكنه ما إن أبل من مرضه ومنع بواسطة والده وأصدقائه من الاستمرار فيما كان يدعيه حتى فر هارباً إلى المليتيين (٧٩)، ونعلم من سقراط أنه ارتحل بعد ذلك إلى نيقوميديا ليكون على مقربة من زعيم الفريق اليوسابى، ويخبرنا أيضاً أن يوسيبيوس استقبله لا كأحد رجال الكنيسة فحسب بل وعده أن ينعم عليه بشرف الأسقفية كذلك إذا ما استطاع أن يجد اتهاماً ضد أثناسيوس (٨٠) . فأذاع اسخيراس تقريراً يعلن فيه أن مقار وصحبه أثناء حضورهم إليه اندفعوا تجاه المذبح وقلبوا المائدة، وكسروا الأوانى المقدسة وأحرقوا الكتب، وأن أسقفاً يدعى أرسنيوس Arsenius قد قتل على يد أثناسيوس أيضاً وجاء بيد مقطوعة ادعى أنها لهذا القتيل (٨١) . ويخبرنا سقراط أن الاتهام الأول الخاص بمقار قد أعد بعد ذلك فى وقت تال، بينما كان الاتهام الأخير هو الذى شغل الأذهان بادئ الأمـــر (٨٢).

(77) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.
(78) Id.
(79) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.
(80) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(81) ATHANAS. Apol. C. Arian. 63, 64, 65.
(82) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

ويذكر سوزومنوس (٨٣) أن أرسنيوس هذا أسقف لمدينة Hypselitae (شطب جنوب أسيوط)، ولابد أن يكون قد أتى أمور تخالف العقيدة أو النظام الكنسى، وإن كان سوزومنوس لم يدلْ إلينا بأية تفصيلات فى هذا الخصوص . ثم يضيف أنه خوفاً من عقاب أسقفه هرب إلى مكان ما، فاستغل الآريوسيون، والمليتيون هذه الفرصة وبحثوا عنه حتى وجدوه وأظهروا له كثيراً من العطف والشفقة ووعدوه بالأمان إذا أطاع أمرهم هكذا يقول سوزومنوس (٨٤) . ويبدو أن أرسنيوس كان واحداً من المليتيين يدل على ذلك موقع المدينة التى كان راعياً لكنيستها، ومن ثم كان على خلاف مع أسقف الإسكندرية، فاعتكف فى أحد الأديرة حيث وجد العطف من الفريق المضاد لأثناسيوس، وراح ينتقل من مكان لآخر هرباً من أسقف الإسكندرية الذى جد فى طلبه .

هذه روايات يبدو فيها التوليف، لا تثبت للنقد، جرت بها أقلام مؤرخى الكنيسة، وكلهم يحمل العداء الدفين للآريوسية والمليتية، ولكننا سقناها استكمالاً لجو الصراع العقائدى الدائر آنذاك . إذ كيف يمكن أن يكون أرسينوس قد قُتل على يد أثناسيوس، وجيء بيد مقطوعة قيل إنها له، ثم كيف يعثر عليه الآريوسيون حياً بعد ذلك ويعدونه وعداً حسناً إن هو عمل معهم، وأطاع أوامرهم .

عندما شاعت هذه الاتهامات، وملأت آذان الناس، أدرك أثناسيوس أنه من العسير عليه تماماً أن يدافع عن نفسه أمام أناس حكموا عليه بارتكاب هذا الجرم مسبقاً دون انتظار لفحص أو تمحيص، ولكنه أصر على أن لا يضيع الحق وسط زحام الأباطيل (٨٥) . وفى نفس الوقت علم الإمبراطور بكل ذلك، فسارع بالكتابة إلى دلماتيوس Dalmatius رقيب أنطاكية يأمره ببحث هذه المسألة واستدعاء الأحزاب المختلفة لتمثل أمامه للتحقيق، وطلب إليه معاقبة من تسببوا فى إشاعة هذه الفوضى بالقول، وأرسل إلى هناك أيضاً كلاً من يوسيبيوس وثيوجنس بعد أن

---

(83) SOZOM. hist. eccl. II, 23.

(84) Id.

(85) Id.

رأى ضرورة مناقشة القضية أمامهما (٨٦)، وقد أرسل دلماتيوس رسالة إلى أثناسيوس يستدعيه فيها للذهاب إلى أنطاكية للدفاع عن نفسه (٨٧) . ويقول أثناسيوس أنه على الرغم من علمه أن كل ما جاء فى اتهامات الفريق المضاد باطل وافتراء، إلا أن تحرك الإمبراطور لبحث المسألة والاهتمام بأمرها جعله يعطى للأمر اهتمامه البالغ (٨٨) . فقد كان الأسقف يعلم جيداً مدى حرص الإمبراطور على القضاء على مثل هذه الفوضى، وكان لديه سابقة فيما يختص بموقف الإمبراطور لدى سماعه بضريبة الكتان والتآمـــر على حياته .

وعلى هذا الأساس ما إن تسلم الأسقف السكندرى رسالة دلماتيوس حتى سارع بالكتابة إلى كل زملائه من رجال الأكليروس فى مصر يستحثهم على الإدلاء إليه بأية معلومات عن شخصية أرسنيوس هذا ومكان اختفائه، لأنه على حد تعبيره لم يكن قد رآه لخمس سنوات تقريباً (٨٩) . كما قام من ناحيته أيضاً بإرسال إحدى شمامسته للبحث عن أرسنيوس فى كل مكان، وقد جاء هذا الشماس إلى طيبة واستطاع أن يعلم من بعض الرهبان أين يختبئ أرسنيوس (٩٠) . فلما وصل إلى أحد الأديرة هناك، أنكر باترينس Patrines الراهب ويسميه أثناسيوس بينس Pinnes (٩١)، وجوده لديه، وكان المعتقد أنه مختف هناك (٩٢)، ذلك أنه كما يقول سوزومنوس ما إن علم بقرب وصول الشماس حتى ارتحل خفية إلى مصر السفلى، فقام الشماس بالقبض على بينس وساقه إلى الإسكندرية مع زميل له يدعى إلياس Elias قيل أنه سهل لأرسينوس مهمة الفرار إلى مكان آخر، وسلم الاثنين إلى السلطات الإمبراطورية فى مصر، فاعترفا أن أرسنيوس لا يزال على قيد الحياة، وأنه يعيش فى مصر (٩٣).

(86) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(87) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.
(88) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.
(89) Id.
(90) SOZOM. hist. eccl. II, 23.
(91) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.
(92) SOZOM. hist. eccl. II, 23.
(93) Id.

وهذه الأقوال عينها نعلمها أيضاً من رسالة حفظها أثناسيوس بعث بها بينس هذا إلى يوحنا الأسقف المليتى ينبئه فيها تفصيلاً بكل هذه الأحداث ويعتذر إليه عن اعترافه ببقاء أرسينوس حياً، لأن بعض كهنة الدير مثل بكيسيوس Pecysius وسلفانوس Silvanus أخ الياس، وبولس Paul راهب Hypselae قد اعترفوا صراحة بأن أرسينوس كان يقيم بينهم، ثم يحذر يوحنا من التمادى فى اتهام أثناسيوس بهذا الإدعاء خاصة بعد تكشف كل هذه الحقائق فى مصر (٩٤) . فلما تم ذلك كتب أثناسيوس إلى الإمبراطور يطلعه على كل هذه الأمور (٩٥) . فأصدر قسطنطين أوامره إلى دلماتيوس بوقف إجراءات التحقيق فى هذا الحادث(٩٦). وأمر يوسيبيوس وأعوانه الذين كانوا فى طريقهم إلى الشرق للاشتراك فى نظر القضية بالعودة ثانية إلى كنائسهم (٩٧) . وكتب رسالة إلى أثناسيوس دعاه فيها إلى الالتفات إلى شئونه الكنسية والسهر على مصلحة رعيته دون أن يلقى بالاً إلى ترهات وأباطيل أولئك الحُسود (٩٨).

ويتضح من رسالة الإمبراطور مدى الدور الذى لعبه المليتيون فى هذا السبيل، فهو يعزو إليهم كل هذه الأحداث ويتهمهم بالزيغ والضلال خاصة " بعد أن ظهر للجميع أن من ادعوا ذبحه لا يزال حياً باستطاعته أن يحدثهم " . ثم أنحى باللائمة على كل من يتبع خطاهم معلناً أن العناية الإلهية لا يمكن أن تمد لهم بعد هذه الافتراءات يد العون أو الرشاد، واختتم رسالته برغبته الأكيدة أن تقرأ على القوم جميعاً حتى تصل إلى أذان أولئك الذين تسببوا فى إثارة مثل هذه الاضطرابات، ثم صرح بأنه قد قرر محاكمة هؤلاء الناس إذا ما أقدموا ثانية على ارتكاب مثل هذه الفعال لا تبعاً للشرائع الكنسية بل حسب القوانين المدنية، لأنهم بذلك لا يتآمرون ضد الإنسانية بل ضد العقيدة الإلهية ذاتها (٩٩).

(94) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.
(95) Ibid. 65.
(96) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(97) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.
(98) Ibid. 65.
(99) Id.

ويذكر أثناسيوس أن اسخيراس قد بعث إليه برسالة بعد أن اتضحت كل هذه الأمور (١٠٠) يعلن له فيها أن كل الادعاءات التى ساقها ضده إنما صدرت منه قسراً بعد أن أجبره على ذلك الفريق الآريوسى المليتى، ويعين له أسماء رجال منهم مثل إسحاق Isac وهيراكليدس Heraclides وإسحاق أسقف لتوبوليس (إسنا) Letopolis، وأن شيئاً من هذه الاتهامات لم يكن صحيحاً بالمرة، ثم يرجوه أن يعفو عنه وأنه يقبله ثانية فى جماعته (١٠١) . ثم عاود اسخيراس الكرة ثانية، فكتب إلى الأسقف السكندرى يستعطفه ويعلن له توبته ورغبته فى العودة إلى حصن الكنيسة الجامعة، ووعده أن لا يصغى ثانية إلى أقوال أولئك الذين جرفوه بادئ الأمر فى تيارهم، وألا يشترك معهم فى محفل أو يوافقهم الرأى، ورجا أثناسيوس أن يرسل إليه رداً يطمئنه بتحقيق أمانيه، وأن يكتب بالتالى إلى الكنائس المختلفة يعلمها أنه قد عفا عنه وأنه عنه راض (١٠٢) .

وقد أدرك يوحنا رئيس كنيسة الشهداء أن قرار الإمبراطور بمحاكمة المليتيين أمام المحاكم المدنية إذا ما استمروا فى عنادهم للأسقف السكندرى يعد تهديداً خطيراً لكيانهم وأيقن أن الإمبراطور لن يتورع فعلاً عن تنفيذ ما اعتزمه، ومن ثم بادر بالكتابة إلى قسطنطين يخبره أنه قد عاد إلى الوئام مع أثناسيوس وأن السلام قد حل بينهما ثانية (١٠٣) .

وما إن تلقى الإمبراطور هذه الرسالة حتى طرب لها وعد ذلك نهاية المطاف فى هذه الفوضى المستشرية فى مصر، وقد كان قسطنطين ينظر بعين الخوف والريبة إلى ما يمكن أن يحدثه النزاع بين المليتيين وكنيسة الإسكندرية . فربما أدى به الأمر فى النهاية إلى أن يمسى على شاكلة ذلك الصراع الكبير القائم فى ولاية أفريقيا بين الدوناتيين والكنيسة الكاثوليكية . بل إن هذا الخطر القائم فى

(١٠٠) لابد أن يكون هذا قد حدث بعد مجمع صور سنة ٣٣٥ لأنا نعلم أن اسخيراس كان أحد متهمى أثناسيوس فى المجمع . راجع: SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(101) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.

(102) Ibid. 69.

(103) Ibid. 70.

مصر يفوق قرينه الغربى، فإذا كان الأخير قد اقتصر على أفريقيا وحدها، إلا أن المسألة المصرية شاركت فيها كل كنائس الشرق، وعلى ذلك فقد سارع الإمبراطور بالرد على رئيس الأساقفة المليتيين يعبر له عن سعادته الغامرة حالة معرفته أنباء عودة السلام بينه وأثناسيوس مرة أخرى، تلك الأنباء التى كان يتوق إلى سماعها لفترة طويلة مضت، ويثنى على سلوكه . هذا الرأى أدخل السرور على قلب الإله، وأعاد إلى الكنيسة وحدتها وأمنها، ولم يتمالك قسطنطين نفسه فدعا يوحنا للشخوص على الفور إلى البلاط الإمبراطورى حتى تشمله عن كثب، بركات الإمبراطور ورعايته (١٠٤) .

ووسط هذه الفوضى فى الروايات التى يوردها مؤرخو الكنيسة، إلا أننا لابد أن نعلم شيئاً على قدر كبير من الأهمية، ذلك أن أثناسيوس كان لا يزال آنذاك فى السنوات الأولى من رعايته الأسقفية ولم يكن سلطانه قد تدعم تماماً على كل كنائس مصر، وهذا نقف عليه مما يخبرنا به مؤرخو الكنيسة من أن أثناسيوس قد أمضى هذه السنوات يذرع مصر كلها من الشمال إلى الجنوب لتدعيم سلطان أسقفية الإسكندرية على كنائس مصر كلها، وأنه لم ينتهى من ذلك إلا حوالى عام ٣٣٤، ومن ثم فلا عجب أن وقعت هذه الأحداث خلال تلك السنوات . هذا من ناحية ومن الأخرى أن المليتيين فى مصر لم يكن نفوذهم قد انتهى تماماً بقرارات مجمع نيقية سنة ٣٢٥، بل عادوا إلى محاولة إثبات وجودهم عند اختيار يوحنا خلف لمليتيوس ومع انتقال الأسقفية من اسكندر إلى أثناسيوس وما تبعها، أمل المليتيون أن يجدوا الفرصة سانحة لإعلاء شأن كنيسة أسيوط فى مواجهة كنيسة الإسكندرية، ويؤكد هذا أن ما حدث من شغب كان واقعاً فى المناطق التى كان المليتيون ما زالت بقاياهم قائمة فيها، ولا شك أن هذه الأحداث جميعها كانت أمراً طبيعياً صاحب التحول فى سياسة الدولة تجاه هذه الديانة المسيحية وأتباعها بعد ما عانوه خلال فترات الاضطهاد وراحت كل كنيسة تحاول أن تثبت لنفسها دوراً ومكاناً على الخريطة الدينية ليس فى مصر وحدها بل فى كل أنحاء الإمبراطورية.

هكذا تبدى للجميع وقسطنطين خاصة أن الحال آخذه فى الهدوء، فالاتهامات

(104) ATHANAS. Apol. C. Arian. 69.

التى سيقت ضد أثناسيوس من جانب خصومه قد ثبت بصورة أو أخرى عدم صحتها، ورئيس الأساقفة المليتيين أعلن للإمبراطور عودة الوئام مع الأسقف السكندرى، وهاهو الآن يتأهب للرحيل إلى العاصمة الإمبراطورية لينال حظوة الإمبراطور، ولكن على الرغم من هذا الهدوء الظاهرى إلا أن الفريق الآريوسى كان يؤمن بعدالة قضيته، فآريوس حقاً قد شمله عفو الإمبراطور وعاد من منفاه، ولكن كنيسة الإسكندرية لازالت تلفظه خارجها، ولن يتحقق نصر الآريوسية وبالتالى لن يعود السلام إلى الكنيسة ما بقى آريوس خارجها . ولن يعود هذا إلى الكنيسة إذا ظل فى الأسقفية أثناسيوس . والإمبراطور بين هؤلاء وأولئك أشبه شيء بقبطان تحطمت على الأمواج دفة سفينته، فراح يضرب بيده يمنة تارة ويسرة أخرى، ليصل بالسفينة إلى بر النجاة، وليظل هو الربان حتى النهاية .

عاود الفريق اليوسيبيوسى نشاطه ثانية فى دوائر البلاط، وراح يوحى إلى الإمبراطور أن أثناسيوس لابد وأن يبرئ ساحته أمام مجمع من الأساقفة يدعى لهذا الغرض، ووافقت الفكرة هوى الإمبراطور، وحسب أن فى عقد المجمع قضاءً أخيراً على هذا الاضطراب، وربما عد ذلك استكمالاً لجهود المجمع النيقى، وعلى هذا الأساس وجه قسطنطين الدعوة سنة ٣٣٣ إلى الأساقفة للاجتماع فى قيسارية فلسطين لبحث الاتهامات المثارة ضد أسقف الإسكندرية، وطلب إلى هذا القدوم إلى المجمع " ليدافع عن نفسه فى حضرة رجال الله " (١٠٥) .

قلنا آنفاً أن سياسة الفريق اليوسيبيوسى قد قامت على مرحلتين، إثارة غضب الإمبراطور على أثناسيوس، وإثارة سخط الأساقفة ضده، وحتى الآن لا يمكننا القول أنهم أفلحوا فى المرحلة الأولى تماماً، وإن كانوا قد أدخلوا على الأقل فى روع قسطنطين أن ثمة عقبة تهدد سلام دولته والكنيسة ماثلة فى الأسقف السكندرى. وكانت الدعوة لعقد مجمع الأساقفة فى قيسارية نجاحاً تاماً للمرحلة الثانية من نضالهم ضد أنصار نيقية، بل أن نجاح هذه الخطوة امتد أثره ليشمل الإمبراطور أيضاً .

(105) THEOD. hist. eccl. I, 28.

وهكذا وفى جولة واحدة كسب اليوسيبيوسيون إلى صفهم الأساقفة والإمبراطور، وقد ساعدهم على ذلك سلوك أثناسيوس نفسه وموقفه تجاه هذه الدعوة .

كان اختيار مكان المجمع دليلاً على سياسة قسطنطين فى ارتضائه الحلول الوسطى فى هذه المشاكل المعقدة، فقيسارية فلسطين كانت تحت رعاية أسقفها يوسيبيوس صديق الإمبراطور والمعروف بميوله المعتدلة، فلا هو بقلبه يؤيد النيقيين، ولاهو صراحة مالأ الآريوسيين . ولما كان من البدهى أن يصبح يوسيبيوس القيسارى رئيساً لهذا المجمع المقترح، فقد أمل قسطنطين أن يجد فى جهده رمزاً ما للسلام . ولكن أثناسيوس كان يرى فى يوسيبيوس هذا خطراً مباشراً عليه، خاصة وهو يعلم أن الرجل لن يكون صاحب الكلمة العليا الأولى فى المجمع ما دام إلى جواره أساقفة آخرون يمثلون العداء الصارخ له على رأسهم سميه النيقوميدى وكثيرون غيره من رجال الآريوسية، فتوجس فى نفسه خيفة أثناسيوس، ورفض دعوة الإمبراطور لحضور هذا المجمع وظل على عناده هذا طيلة ثلاثين شهراً رغم الإلحاح المستمر فى طلبه [١٠٦]، وكان هذا فى حد ذاته خطأ كبيراً ارتكبه أثناسيوس .

هكذا أضاع الأسقف السكندرى من يده فرصة كسب الإمبراطور إلى صفة ثانية، فقسطنطين لم يعتد من قبل أن يعترض أحد قراراته، أو يحول دون رغائبه، فعد هذا الرفض من جانب أسقف الإسكندرية تحدياً لسلطانه، أما الأساقفة فأيقنوا أن أثناسيوس يسخر بهم ولا يعيرهم اهتماماً، وبذلك وفى وقت واحد، ثارت حفيظة الإمبراطور والأساقفة ضد أسقف الإسكندرية العنيد .

صمم الإمبراطور إذن على أن يسير فى الشوط حتى منتهاه، فوجه الدعوة من جديد لعقد مجمع للأساقفة فى صور نعلم من سقراط أن عددهم بلغ ستين أسقفاً[١٠٧] . وأرسل قسطنطين الكونت ديونيسيوس Dionysius إلى هناك، وكانت مهمته كما يتضح من رسالة الإمبراطور إلى الأساقفة " رئاسة وضبط أعمال

---

(106) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(107) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.

المجمع والحفاظ على النظام " [١٠٨]، كما كتب إلى أثناسيوس يأمره بالذهاب إلى صور، ولكن الأسقف على حد تعبيره لم يكن راغباً فى ذلك، إلا أنه امتثل للأمر على كره منه [١٠٩]. ولكن هذه الخطوة جاءت بعد فوات الأوان، وبعد أن أوغر صدر الإمبراطور والأساقفة ضده من قبل . ويتطوع سقراط للدفاع عنه قائلاً أن امتعاض أثاسيوس من الذهاب إلى هناك كان صادراً عن إيمانه ببراءته من كل التهم المنسوبة إليه . هذا بالإضافة إلى خوفه من حدوث أى اتجاه مضاد لقانون الإيمان النيقى [١١٠]، ثم يفصح سقراط عما حدث صراحة حين يقول " أن أسقف الإسكندرية أكره على الحضور تحت وابل من خطابات التهديد التى كتبها إليه الإمبراطور متوعداً إياه بحمله على الحضور عنوة إذ لم يحضر طواعية [١١١].

وقد كتب قسطنطين إلى الأساقفة المجتمعين فى صور رسالة أبدى لهم فى بدايتها أمله الكبير فى أن تعود إلى الكنيسة ثانية وحدتها، ولام أولئك الذين أحدثوا هذا الشقاق والفوضى، وحث الأساقفة جميعاً على التزام جادة الحق والصواب فى تقصى الحقائق وإظهار الحقيقة، ثم اختتم رسالته بتهديد صريح جاء فيه :

" ولئن تجاسر أحد، مع اعتقادى بأن ذلك لن يكون، على عصيان أمرى ورفض الحضور إلى المجمع، فلأرسلن إليه من يطرده بواقع مرسوم إمبراطورى ويلقنه أنه لا يليق بمثله أن يعترض قرارات الإمبراطور حين يكون عن الحق دفاعه " [١١٢] .

ولا شك أن هذا التهديد موجه صراحة إلى أثناسيوس، وهكذا أقفل باب سلام يرتجى بين الإمبراطور والزعيم السكندرى، ولم يكن الإمبراطور فى حاجة من بعد لمن يملأ قلبه حقداً على أثناسيوس أو كرهاً له فمالت كفة القدر مسرعة تجاه الفريق اليوسيبيوسى المليتى .

(108) EVSEB. vita. Const. IV. 42.
(109) ATHANAS. Apol. C. ARIAN. 71.
(110) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.
(111) Id.
(112) EVSEB. vita. Const. IV. 42.

وفي منتصف عام ٣٣٥ التأم عقد مجمع صور، واصطحب أسقف الإسكندرية معه عدداً كبيراً من مؤيديه بلغ ثمانية وأربعين [١١٣]، وسيق مقار من الإسكندرية إلى صور مكبلاً في أغلاله [١١٤] . ويصف أثناسيوس الحالة في المجمع عندئذ بقوله : تقاسم المليتيون الذى طردهم بطرس من الكنيسة، والآريوسيون المؤامرة فيما بينهم، وعلى حين وقف فريق منهم إزائي موقف المدعي، جلس الحزب الآخر في منصة القضاء .وقد اعترضت لدى يوسيبيوس موضحاً أنه ليس من العدل أن يكون خصومي قضاتي، وأوضحت للجميع أن اسخيراس الذى اتهمني قبلاً لم يكن في يوم من الأيام قسيساً واستشهدت على ذلك بتلك القائمة التي كان ملتيوس قد أعدها حسب رغبة اسكندر عن أتباعه في أنحاء مصر كلها [١١٥]، ومن خلالها لا يظهر اسم اسخيراس على الإطلاق، ولم يبد البتة أنه كان أحد رجال الأكليروس في مريوط . وعلى الرغم من كل ذلك إلا أن خصومنا لم يتخلوا عن اتهاماتهم وكان الكونت على استعداد لاستخدام العنف ضدنا وتسيير جنوده في ذلك[١١٦].

تولى المليتيون إقامة الدعوى ضد أثناسيوس، فاتهمه كاللينيكوس Callinicus أسقف بلوزيوم Pelusium أنه عزله من منصبه، وعين بدلاً منه شخصاً آخر، ووضعه تحت حراسة عسكرية، وراح يذيقه العذاب ألواناً حتى يحصل منه على اعترافات تدحض اتهام أثناسيوس بتحطيم الأواني المقدسة، واتهمه اسخيراس بأنه وضعه في الأغلال رغم مرتبته الكهنوتية، وأذاعوا أيضاً أنهم أنبأوا قبلاً هيجينوس Hyginus أحد موظفي الإمبراطور في مصر أنه قذف بالأحجار تماثيل الإمبراطور [١١٧]، وأشيلاس Achillas وباخوم Pachomius واسحق Isaac أما يوبلوس Euplus وهرمايون Harmaeon وكلهم أساقفة مليتيون، فقد راحوا يشككون في الطريقة التي تم بها اختيار أثناسيوس للأسقفية،

(113) ATHANAS. Apol. C. Arian. 78.
(114) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.
(115) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.
(116) Ibid. 72.
(117) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

وإن ذلك تم بطريق غير شرعى بناء على تآمر بعض الأفراد، مما دفع بهؤلاء الأساقفة إلى قطع أنفسهم من الكنيسة احتجاجاً على ذلك، فكان جزاؤهم أن ألقى بهم فى غيابة السجون (١١٨) . كما أثيرت من جديد مسألة مقتل أرسينيوس (١١٩) .

وفيما يخص هذا الاتهام الأخير، يذكر سقراط أن أرسينيوس متجاهلاً التحذيرات التى وجهت إليه من الفريق اليوسيبيوسى المليتى، جاء إلى صور متنكراً ليشهد أحداث المجمع، وقد نمى إلى علم خدم أرشيلاوس Archelaus حاكم الإقليم أن أرسينيوس، الذى من المفروض كونه فى عداد الأموات الآن يوجد متخفياً عند أحد المواطنين، فما لبثوا أن نقلوا ذلك إلى سيدهم الذى أصدر أوامره بالبحث عن الرجل، فلما عثر عليه وجيء به أنكر شخصه، ولكن بولس أسقف صور تعرف عليه، وعندما أحضر إلى المجمع ورأى الجميع أن يديه سليمتان خاطبه أثناسيوس قائلاً : " أرسنيوس . . هاأنت كما ترى تمتلك كفين، فدع متهمى يشيرون إلى مكان اليد الثالثة التى قطعت " (١٢٠).

وقد استطاع أثناسيوس أن ينفى عن نفسه كثيراً من هذه الاتهامات التى وجهت إليه . غير أن الحيرة انتابته أمام هذا الجمع الغفير من الشهود الذين أحضرهم خصومه، ومن ثم أدرك الأسقف السكندرى أن أعداءه عازمون على تحطيمه تماماً . وقد عقد المجمع جلساته التى غرق فيها فى بحر من الفوضى والاضطراب، وتعالت صيحات الكثيرين تطالب بعزل أثناسيوس، ولم يحسم الأمر إلا تدخل ديونسيوس المندوب الإمبراطورى (١٢١).

وكانت مسألة اتهام مقار بتحطيم الأوانى المقدسة الموضوع الذى شغل الأساقفة لفترة طويلة، واحتاج الأمر إلى تأليف لجنة لتقصى الحقائق تقرر إرسالها إلى مريوط لبحث القضية فى موضعها (١٢٢) . وتألفت اللجنة من ثيوجنس،

(118) Id.

(119) Id.

(120) SOCRAT. hist. eccl. I, 29; SOZOM. hist. eccl. II, 25; THEOD. hist. eccl.I.28.

(121) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(122) SOCRAT. Hist. eccl. I, 31.

وماريس، وثيودور، وماكيدون، وأورساكيوس وفالنز (١٢٣) . احتج أثناسيوس على تشكيل اللجنة بهذه الصورة لأنها تضم أبرز خصومه، كما احتج أيضاً على اصطحاب أسخيراس معهم فى الوقت الذى بقى فيه مقار رهين قيوده (١٢٤) . وكان أثناسيوس قد اعترض بداءة على إيفاد لجنة إلى مريوط على الإطلاق مبيناً لديونيسيون عدم جدواها (١٢٥) . ويعلق جونز على ذلك بأن اعتراض الأسقف السكندرى على إرسال اللجنة يشير إلى احتمال صحة هذه الأحداث فعلاً، يعنى تحطيم الأوانى المقدسة (١٢٦).

وكتبت رسالة إلى حاكم مصر، وزودت اللجنة بالعون العسكرى اللازم لحمايتها (١٢٧) أما أعمال اللجنة فى مصر فنقف عليها من رسالة قساوسة مريوط إلى الأساقفة المجتمعين فى صور، وقد ذكروا فيها ما سبق أن أوضحه أثناسيوس من أن اسخيراس هذا لم يكن فى يوم من الأيام رجلاً من رجال الأكليروس، وأنه إنما تم رسمه على يد كوللوثوس Colluthus الكاهن الذى ادعى الأسقفية على عهد اسكندر ورسم عدداً من القساوسة . وتمت إدانته وإعادته إلى رتبته الكهنوتية (قسيس) بواسطة المجمع الذى عقد فى الإسكندرية سنة ٣٢٤ تحت رئاسة هوسيوس القرطبى .

أما فيما يختص بعمل اللجنة فذكروا أنها اصطحبت معها فيلاجريوس Philagrius والى مصر وعدداً من جنده، ولما تقدم إليهم رجال الأكليروس يطلبون إشراكهم فى إجراءات التحقيق، رفضت اللجنة سماع مقترحاتهم وتمكنوا عن طريق القوة والتهديد من جانب الوالى، كما تقول الرسالة من الحصول على البيانات التى يريدونها، وعادوا أدراجهم ثانية (١٢٨). وعلى غرارها كتب هؤلاء

(123) Id.
(124) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.
(125) Id.
(126) Jones, Constantine, p. 195.
(127) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.
(128) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

القسيسون رسالة إلى فيلاجريوس يوضحون له حقيقة الأمر (١٢٩) . أما الأساقفة المصريون الذين صحبوا أثناسيوس إلى المجمع فقد كتبوا رسالة إلى ديونيسيوس المندوب الإمبراطورى وأوضحوا له فيها أن المسألة محض مؤامرة حاكها ذلك الفريق اليوسيبيوسى بغية تقويض الإيمان القويم والتخلص من زعيمه المدافع عنه أثناسيوس، وأضافوا أن مريوط لم يكن بها أحد من المليتيين قبلاً، أما الآن فهى تفيض بهم بعد أن أرسل المليتيون الموجودون فى المجمع رسولين من لدنهما بعد أن سمعوا بقرب سفر اللجنـــة لتجمع المليتيين وتحشدهم فى مريوط، هذا بالإضافة إلى الآريوسيين والكاللوثيين، وحذروه من التمادى فى إطاعة هذا الفريق حتى لا يجلب على نفسه غضب الرب ورجاله (١٣٠) .

ويبدو أن ديونيسيوس لم يلق بالاً إلى هذا الاحتجاج فما كان من الأساقفة المصريين هؤلاء إلا أن بعثوا إليه خطاباً شديد اللهجة جاء فيه :

" إنا نرى أنفسنا مرغمين على الشكوى ثانية، لقد لاحظنا أن تأييداً كبيراً قد أصبح الآن فى جانب المليتيين، وأن مؤامرة ضد الكنيسة الجامعة فى مصر، فى أشخاصنا، قد دبرت . وعلى ذلك، نقدم هذه الرسالة إليك راجين أن تضع فى عقلك قوة الإله القدير الذى يحمى مملكة إمبراطورنا التقى الورع قسطنطين، وأن تنقل إلى مسامع الإمبراطور ذاته كل هذه الأمور التى تهمنا . لقد بعثت من قبل عظمته لتعى تماماً هذه الأحداث، ولتعلم أنّا لم نعد نحتمل أن نغدو على الدوام هدفاً لخيانات ودسائس أولئك السابق ذكرهم، يوسيبيوس وبطانته، وعليه نرجوك أن تعرض قضيتنا على الإمبراطور الورع محبوب الرب، أمام ذلك الذى يمكننا نعرض عليه شكاياتنا والكنيسة ونحن واثقون أنه عند سماعه قضيتنا، لن يديننا، ولذلك نناشدك ثانية بالإله القدير، وبإمبراطورنا المحبوب الذى فاق الصغار فى تقواهم، فكسب النصر وحقق كل هذه النعم طوال هذه السنين، لا ترهقوا أنفسكم فى محاولة عرض أمرنا على المجمع ثانية، بل أبلغ الإمبراطور أمرنا " (١٣١) .

---

(139) Id.
(130) Ibid. 78.
(131) ATHANAS. Apol, C, Arian. 79.

ولعل هذا القول الأخير يذكرنا بالتيار الذى سارت فيه المشكلة الدوناتية قبلاً، عندما رفض زعماؤها الامتثال لأوامر مجمعى روما وآرل واحتكموا للإمبراطور شخصياً . وهاهم الأساقفة المصريون يسلكون نفس السبيل، بعد أن أصبح واضحاً لهم أن الاتجاه السائد فى مجمع صور قد نحا نحواً مضاداً لهم . ومن ثم أدركوا أن شيئاً من الإنصاف لن يتيسر لهم الحصول عليه، فلما لم يصغ ديونيسيوس لرجائهم، لم يجد زعيمهم بداً من عرض الأمر بنفسه على الإمبراطور، وعلى هذا النحو شخص أثناسيوس إلى القسطنطينية لمقابلة قسطنطين والاحتكام إليه (١٣٢).

أدرك ديونيسيوس أن الأمر قد أفلت من يديه، وخاصة بعد أن أرسل إليه إسكندر أسقف سالونيكا رسالة يستنكر فيها سماحه لهؤلاء الأفراد بالذات الذهاب إلى مصر، ويحيطه علماً أن تلك مؤامرة مدبرة ضد أثناسيوس، ويلومه على هذا التخاذل إزاء الفريق اليوسيبيوسى المليتى (١٣٣) .

وعلى ذلك فقد كتب ديونيسيوس إلى يوسيبيوس وأتباعه رسالة ينبئهم فيها بقول اسكندر مؤيداً ما جاء فيها، ويبدو من عبارات رسالته أنه يستعطف هذا الفريق لالتزامه جادة الصواب حتى لا يكون عملهم محل لوم أو نقد (١٣٤) .

أخذ يوسيبيوس ورفاقه الآن بيدهم زمام المبادرة، وانتهزوا فرصة غياب أثناسيوس عن المجمع قبل أن ينهى هذا أعماله، وكانت التقارير التى أعدتها لجنة تقصى الحقائق العائدة من مريوط قد أعدت وأطلع عليها الجميع (١٣٥). فأصدر المجمع قراراته بإدانة أثناسيوس وعزله من منصبه، وحرم عليه الإقامة فى الإسكندرية خشية أن يؤدى وجوده فيها إلى إشعال نيران الفوضى والانقسام من جديد، كما أعيد يوحنا رئيس الأساقفة وتابعيه ثانية إلى الكنيسة ورد إلى كل منهم

(132) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(133) ATHANAS. Apol. C. Arian. 80.
(134) ATHANAS. Apol. C. Arian. 81.
(135) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.

مركزه الأكليروسى [١٣٦] . وكان من بين المقبولين ثانية أرسنيوس، وقد وقع على قرار عزل أثناسيوس بوصفه أسقفاً لمدينة Hypsalopolis [١٣٧] . وبعث المجمع بتقرير عن عمله إلى الإمبراطور، وبمثله إلى أساقفة مختلف البلدان ناصحين إياهم بعدم قبول أثناسيوس فى زمالتهم وأن لا يكتبوا إليه أو يتلقوا منه أية رسائل وذكروا فى رسالتهم هذه أنهم اضطروا للموافقة على إدانة أسقف الإسكندرية لأنه رفض الامتثال للأمر الإمبراطورى الصادر إليه قبلاً بالحضور أمام الأساقفة فى قيسارية، مستخفاً بالأساقفة، متحدياً أوامر الحاكم، هذا بالإضافة إلى أنه حضر إلى صور وبصحبته عدد كبير من الأتباع بغية إثارة الاضطراب والفوضى فى المجمع، كما أن أثناسيوس رفض فى كثير من الأحيان الإجابة عن الاتهامات الموجهة ضده، وأهان بعض الأساقفة وأوضحوا فى نفس الرسالة أنه أذنب ولا شك حين سمح لمقار بتحطيم الأوانى المقدسة كما شهد بذلك أعضاء اللجنة [١٣٨].

هكذا اختتم مجمع صور جلساته بعد أن أدان وعزل وطالب بنفى أثناسيوس وقدم فى ذلك تبريراته إلى الإمبراطور والأساقفة، على أنه ينبغى لنا أن ندرك أن هذه الاتهامات العديدة التى سيقت ضد الأسقف السكندرى وإن كان فيها الكثير من الغموض وربما الزيف . إلا أنها لا شك أيضاً تحمل جانباً ولو يسيراً من الحقيقة، ولعل دليلنا على ذلك أن هذه المعلومات كلها استقيناها من أقلام أثناسيوس نفسه ومؤرخى الكنيسة الآخرين . وهذا ولا شك شيء يدعو للحذر، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن تتبع هذه الأحداث يرينا أن أسقف الإسكندرية كان بلا ريب يتمتع بشخصية قوية ونفوذ كبير، ويبدو من سلوكه طوال هذه الفترة مدى صلابة رأيه وتمسكه الشديد بكل ما تقر عليه إرادته . هذا واضح من تحديه المستمر للفريق الآريوسى، بل ورفضه الفريق المليتى الذى كان اسكندر قد قبلهم ثانية بناءً على قرارات المجمع المسكونى الأول فى نيقية، فلا شك إذن أن يؤدى ذلك إلى إثارة

(136) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(137) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.
(138) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

حفيظة وغيرة كثير من زملاءه رجال الآكليروس لا فى مصر وحدها بل فى كنائس الشرق الأخرى . وكانت نيقوميديا على رأس هذه الكنائس، وإذا أدخلنا فى اعتبارنا أن نيقوميديا قد ظلت لفترة تقترب من نصف قرن عاصمة الإمبراطورية، فلا عجب أن يتطلع أسقفها إلى شىء من الزعامة على سائر الكنائس الأخرى، بل وأن يتطلع هو نفسه لأسقفية أكبر من نيقوميديا، وسينجح يوسيبيوس فعلاً فى ذلك عندما يصبح أسقفاً للقسطنطينية، وإن كان ذلك قد تم بعد وفاة قسطنطين ومن ثم رأينا يوسيبيوس يتزعم حركة المعارضة ضد كنيسة الإسكندرية، وإذا كانت هذه تعتز بتراثها التليد وفلسفتها ومدرستها اللاهوتية وأثرها الواضح على المسيحية، وما كان لها بكل هذه العظمة أن تقبل الخضوع لمدينة لا تدانيها فى شىء من هذا فإن نيقوميديا وليس لها من هذا شىء، لابد وأن تعتز بأنها مقر الأباطرة وعاصمة ملكهم، وأنه ليس من حق أسقفية ولاية أن تنازع أسقفية العاصمة وحتى عندما انتقلت العاصمة إلى القسطنطينية فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ لم يكن لكنيستها خلال الفترة الباقية فى حكم قسطنطين شأن يذكر فى تسيير دفة الأحداث .

لقد تحولت المسألة بعد مجمع نيقية إلى صراع على الزعامة تحت ستار العقيدة، ويقول جلانفيل دوانى Glanville Downey ليس غريباً أن يظهر نوع من الأساقفة الدنيويين السياسيين الذين لم يكرسوا أنفسهم لرعاية رعيتهم فى البلدان النائية بقدر ما وجهوا عنايتهم إلى المناورات الدبلوماسية فى البلاط الإمبراطورى، وذلك عندما قامت الخلافات العقائدية وتدخل الإمبراطور لحلها، فأصبح واجباً على الجهات المتخاصمة فى الكنيسة أن تسعى إلى كسب الإمبراطور ومستشاريه إلى صفها (١٣٩) . فآريوس صاحب هذه الأحداث منذ البداية أخلد بعد نفيه إلى الهدوء، ولم يأت به إلى مسرح الأحداث ثانية إلا الإمبراطور ذاته وربما على كره من آريوس نفسه كما اتضح من رسالة الإمبراطور إليه، وحتى بعد عودته ظل بعيداً لا يشارك فى شىء من هذه الحوادث كلها . لقد كان الرجل شيخاً طاعناً ولم يكن له مطمع فى جاه أو مطمح إلى سلطان، بل كل ما كان يرجوه أن يقر الناس عقيدة

(١٣٩) داونى، أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس، ترجمة د. ألبرت بطرس، ص٨٣ .

أمن بها وأيقن أنها الحق المبين . وما عداها إفك وضلال . فقد تلقى الرجل تعليمه فى مدرسة الإسكندرية اللاهوتية الأفلاطونية الفكر، وأكمل دراسته فى مدرسة أنطاكية اللاهوتية الأرسطية المنهج، فجمع بذلك بين الفكر الأفلاطونى والنهج الأرسطى وطبقهما، - شأن زعيم المدرسة السكندرية أوريجن Origines - على العقيدة المسيحية، فجاءت آراؤه على هذا النحو الذى عرضنا له من قبل فى الفصل السابق، وكان آريوس بحق رجل دين تضلع من الفلسفة كما فعل أباء الكنيسة الأول، وأراد أن يقدم المسيحية إلى الناس على طبق عقلانى . على حين كان يوسيبيوس هو المحرك الأول لكل هذه الأحداث بعد مجمع نيقية وطوال عشر سنوات كاملة ٣٢٨-٣٣٧، ولم يأت على لسان الأطراف المتنازعة، ولم تسجل أقلامهم خلال هذه المرحلة التى شهدناها بعد نيقية شيئاً من أمور العقيدة، ولم تمس الاتهامات التى وجهت إلى أثناسيوس طرفاً من رداء الدين، ولم يتعرض مجمع الأساقفة في صور إلى العقيدة فى قليل أو كثير، بل حتى لم يطلب إليه بحث مسألة إعادة آريوس إلى الكنيسة وهى المشكلة التى كان يجب أن تحتل المكان الأول فى قائمة موضوعات الساعة وحتى مبررات الحكم ضد أثناسيوس كانت كلها تدور حول مسائل بعيدة تماماً عن الديانة وأسرارها . ولكنها كانت كلها تسير هذين المسارين الواضحين اللذين اختطهما رجال الفريق اليوسيبيوسى منذ البداية، أعنى إثارة غضب الإمبراطور وجلب حنق الأساقفة . وكان الفريق اليوسيبيوسى يعلم مزاج الإمبراطور، فعرف كيف يصور له أثناسيوس فى صورة المعترض على قراراته المتحدى لسلطانه وساعد أثناسيوس بسلوكه وعناده على تثبيت هذه الفكرة لدى الإمبراطور .

وإن كان اليوسيبيوسيون قد حرصوا على أن يغلفوا ذلك بستار العقيدة أيضاً، ولهذا فإنهم رغم سعيهم الدائب لإثارة الإمبراطور ضد أثناسيوس، لم يضعوا ذلك فى إطار النزاع الشخصى بين قسطنطين وأثناسيوس، حتى لا يجعلوا من الأسقف السكندرى بطلاً فى نظر رعيته يناضل ضد الإمبراطور .

ما كاد المجمع ينهى جلساته ويصدر قراره حتى تسلم رجاله رسائل من

الإمبراطور يدعوهم فيها للتوجه إلى أورشليم لحضور حفل تدشين الكنيسة الفخمة التى أقامها الإمبراطور هناك، والذى يوافق الاحتفال أيضاً بالعيد الثلاثينى لحكم الإمبراطور (١٤٠) . ويصور يوسيبيوس ذلك بقوله أن المدينة قد غدت مسرحاً ضم عديداً من مختلف الشخصيات الكنسية، فقد جاء إلى هناك اسكندر أسقف سالونيكا، ومن بانونيا حضر أورساكيوس وفالنز، وأحد أساقفة فارس، ومن بيثينيا وتراقيا ثيوجنس هذا بالإضافة إلى أساقفة كليكيا وكباودكيا وسوريا وميزوبوتاميا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وليبيا وطيبة إلى جانب عدد هائل من موظفى القصر الذين أرسلوا للإشراف على هذا الحفل والارتفاع به إلى ما يناسب مقام الإمبراطور السامى (١٤١)، ثم يخبرنا يوسيبيوس بعد ذلك أن أولئك الموظفين قد قاموا بناءً على الأوامر الإمبراطورية بتوزيع الهدايا والمنح والعطايا التى أنعم بها الإمبراطور على رجال الله (١٤٢) . وقد قابل الأساقفة ذلك بإلقاء عديد من الخطب التى تدور كلها حول تمجيد الإمبراطور والإشادة بورعه وتقواه وهذا العمل النبيل الذى أقدم عليه، والدعاء إلى الرب بأن يحفظه ويرعاه، ويذكر يوسيبيوس أنه شارك هو الآخر فى هذه المباراة وأوضح فى خطبته أن تلك الكنيسة وتمامها فى ذلك الوقت بالذات كانت مما جاء فى نبوءات الأنبياء قبل ذلك (١٤٣)!!

ولا شك أن الإمبراطور عندما وافته أنباء هذا الاجتماع بهذه الصورة التى كان عليها داعبه من جديد أمل السلام والوحدة، فها هو يشهد أساقفة الشرق جميعاً، وقد اتحدت كلمتهم مهما كان نوع هذا الاتحاد، ثم نظر فإذا بآريوس لا يزال خارج الكنيسة، فأيقن أن هذه هى الفرصة المناسبة ليعيد آريوس إلى كنيسته فينتهى بذلك من مشكلة آلمته من حكمه سنين عدداً، وعلى هذا بعث بآريوس وصحبه يوزيوس إلى مجمع الأساقفة فى أورشليم سنة ٣٣٥، وأخبرهم أنه قد اطلع على وثيقة إيمانها

(140) EVSEB. vita Const. IV, 43.
(141) Id.
(142) Ibid. 44.
(143) Ibid. 45.

التى قدماها إليه، وأنه مقتنع بكل ما جاء فيها، وحثهم على قبول هذه الوثيقة وإعادة آريوس وصحبه إلى الكنيسة (١٤٤) . ولم يكن الأساقفة فى حاجة إلى توصية الإمبراطور، فقد كانوا جميعاً من مؤيدى آريوس، فأصدروا على الفور قرارهم بقبول صيغة الإيمان التى قدماها الرجلان، وهى التى أشرنا إليها آنفاً، وإعادة قبولها فى الكنيسة وعودتهما إلى كنيسة الإسكندرية، وكتبوا إلى الإمبراطور يخبرونه بكل ما حدث (١٤٥) . كما أرسلوا أيضاً رسائل بهذا المعنى إلى عموم الكنائس فى الإسكندرية وطيبة وليبيا ومختلف رجال الأكليروس فى مصر حاثين إياهم على قبول آريوس وشيعته، وشفعوا ذلك بأقوال تضع حديثهم فى صيغة أمر واجب التنفيذ، فذكروا أنهم أقدموا على هذا بعد أن تأكد لديهم صدق إيمان آريوس وصاحبه، وأن الإمبراطور محبوب الرب التقى الورع قد شهد فى خطابه لهم بصحة إيمان الرجلين بقبولهما فى الكنيسة (١٤٦) .

ويبدو أن رسالة الإمبراطور إلى المجمع بخصوص قبول آريوس وصحبه فى الكنيسة، قد بعثت قبل أن يلتقى الإمبراطور بأثناسيوس الذى انسحب وبعض خاصته أثناء انعقاد مجمع صور، وشخص إلى القسطنطينية ليعرض على الإمبراطور صورة لهذا الحيف الذى وقع به، ذلك أن الإمبراطور ما إن التقى بالأسقف السكندرى وسمع له حتى أرسل رسالة عنيفة إلى الأساقفة الذين كانوا قد اجتمعوا فى صور وهاهم الآن فى أورشليم، ويبدو أن الإمبراطور قد تأثر إلى حد كبير بما سمعه من أثناسيوس، وذلك واضح مما جاء فى مقدمة رسالته حيث يقول:

" إنى فى واقع الأمر لا أعلم شيئاً عما اتخذه مجمعكم من قرارات فى جو عاصف صاخب، غير أنه يبدو لى أن الحق قد تعرض للتحريف نتيجة إجراءات فوضوية مضطربة . ذلك لأنكم، كما يقال، حباً فى الجدال، أغفلتم أموراً يرتضيها الإله، وأنى لأرجو الله، وكلى ثقة، أن تعمل العناية السماوية على إذابة مآس خلفها

(144) SOAOM. hist. eccl. II, 27.
(145) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.
(146) ATHANAS. Apol. C. Arian. 84.

التنافس الحاد، وذلك عندما يتم فحص تلك الأمور بدقة، وإنى لآمل أن توضحوا إذا ما كنتم قد راعيتم فى مجلسكم مضمون الحق وإذا ما كنتم أيضاً قد أصدرتم قراراتكم دون ما تحيز أو تعصب "(١٤٧).

وبعد أن يخبرهم قسطنطين أن سلوكه قد أدخل البرابرة فى حظيرة المسيحية، يوجه إليهم اللوم قائلاً :

" أما نحن معاشر الذين يتشدقون باحترام العقيدة، وأسرارها المقدسة، (ولا أقول حراسها)، لا نفعل إلا ما يبذر بذور الشقاق والعداوة، ولأكون معكم صريحاً، تعمل على دمار البشرية " (١٤٨) .

ولندع قسطنطين الآن يحدثنا بنفسه عن المقابلة التى حدثت بينه وبين أثناسيوس، حيث يتضح من حديثه أنه لم يكن لديه الرغبة للقاء الأسقف السكندرى، يقول الإمبراطور :

بينما أنا داخل المدينة التي تحمل اسمنا، فى هذه الديار الزاهرة، القسطنطينية . وكنت ساعتها ممتطياً صهوة جوادى . اعترضنا فجأة الأسقف أثناسيوس، يحيط به بعض من رجال الدين، يبتغون السماح لهم بمقابلتنا، ويعلم الله، الذى أحاط بكل شيء علماً، أنى لم أتبين للوهلة الأولى شخصه حتى أنبانى عنه بعض خاصتى، بعد أن سألتهم ذلك . وأنبأونى أيضاً كم من الآلام قاسى، وحتى ذلك الحين لم أحادثه، أو أجرى اتصالاً معه، ولكنه راح يلح طالباً الإذن له بلقائنا، ورغم أنى رفضت ذلك مراراً، وأمرت بإبعاده عن حضرتنا إلا أنه أعلن فى جرأة فائقة أنه لا يطلب سوى شيئاً واحداً، هو أن تمثلوا جميعاً إلى هنا، حتى يجد فى حضرتنا فرصة عادلة لبحث مظلمته " (١٤٩) .

وقد وجه قسطنطين أوامره إلى هؤلاء الأساقفة بالحضور على وجه السرعة

(147) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.
(148) Id.
(149) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.

إلى بلاطه، ويتضح مدى اهتمامه بهذا الأمر ولهفته على وصول الأساقفة، من أن دعوته إياهم للحضور قد جاءت فى رسالته هذه فى ثلاثة مواضع متقاربة، كلها تتعجل رحيلهم إلى القسطنطينية لحسم هذا الأمر فى حضرة الإمبراطور .

ويبدو أن هذه الرسالة قد وصلت بعد أن غادر كثير من الأساقفة أورشليم عائدين إلى بيعهم بعد أن حصلوا على الهدايا الإمبراطورية، وإن كان أثناسيوس(١٥٠) وسقراط (١٥١) وسوزومنوس (١٥٢) يخلعون على الأساقفة حالة من الرعب والهلع دفعت بالبعض إلى الإسراع بالرحيل عن أورشليم والعودة إلى ديارهم . غير أن يوسيبيوس النيقوميدى جمع مشاهير رجالاته وسافر لملاقاة الإمبراطور فى القسطنطينية، وكان من بين هؤلاء الأساقفة ثيوجنس، وماريس، وباتروفيلوس، وأورساكيوس، وفالنز (١٥٣) .

ويقول سوزومنوس أن هذا الجمع قد بين للإمبراطور أن مجمع صور لم يقدم على شيء ضد أثناسيوس، وإنما توخى العدالة تماماً، وأعادوا على مسامعه سابق الاتهام بتحطيم الأوانى المقدسة (١٥٤) . وإن كان أثناسيوس ينفى ذلك ويقول أن هذا الأمر شيء ثبت بطلانه فلم يجرؤ الأساقفة على ذكره، ولكنهم جاءوا إلى الإمبراطور باتهام جديد فحواه أنّ أسقف الإسكندرية هدد بمنع إرسال القمح من الإسكندرية إلى القسطنطينية (١٥٥) . وأكدوا أن هذا التهديد جاء على شفتى أثناسيوس وسمعته آذان عدد من الأساقفة من بينهم أدامانتيوس Adamantius وأنوبيون Anubion وأرباثيون Arbathion، وبطرس Peter (١٥٦) . ويصف أثناسيوس حالة الإمبراطور لدى سماعه هذا الاتهام بقوله : " اشتعل على الفور غيظ الإمبراطور

---

(150) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(151) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.
(152) SOZOM. hist. eccl. II, 28.
(153) ATHANAS. Apol. C. Acian. 87.
(154) SOZOM. hist. eccl. II, 28.
(155) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(156) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.

واشتد حنقه، وبدلاً من أن يرسل إلى لسماع قولى، أمر بنفي إلى غالة " (١٥٧). ويقول سقراط معلقاً على ذلك بأن الإمبراطور أصدر هذا القرار بدافع الرغبة فى توحيد الكنيسة حيث أن أثناسيوس رفض المصالحة مع آريوس(١٥٨) .

ولقد أصاب سقراط بقوله هذا كبد الحقيقة، فبالإضافة إلى أن الإمبراطور كان يتميز غيظاً لدى سماعه بهذا الاتهام الجديد، سواء كان هذا الادعاء باطلاً أم حدث فعلاً، فقسطنطين كان يدرك يقيناً الأهمية الاقتصادية لمصر وما تمثله غلالها من أهمية العاصمة الجديدة، ولم يكن قسطنطين يتصور مطلقاً أن يتسبب شخص مهما بلغت مكانته فى إحداث مجاعة فى روما الجديدة ! هذا من ناحية . والأخرى أنه ضاق ذرعاً بعناد أثناسيوس، فقد حاول كثيراً أن يلتقى وإياه على طريق وسط، ولكن الأسقف السكندرى لم يكن ممن يقبلون هذه السياسة . فقد كان متشدداً فى موقفه لا يقبل المساومة، ووصل به الأمـــر ذات مرة إلى حد رفض الإذعان لأوامر الإمبراطور عندما قرر الامتناع عن الظهور أمام مجمع الأساقفة فى قيسارية سنة ٣٣٣، ولم يتراجع عن موقفه تجاه الآريوسين أو المليتيين، ولم يحاول بذلك إعادة السلام إلى الكنيسة والوحدة، وذلك شيء كانت تتوق إليه نفس الإمبراطور، وأدرك قسطنطين خلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة أن أثناسيوس هو العقبة الوحيدة الباقية فى سبيل إعادة الوحدة إلى الكنيسة، ومن ثم قرر التخلص منه بنفيه، فكسبت الدولة بذلك جولتها الأولى ضد الكنيسة .

على هذا النحو حقق الفريق اليوسيبيوسى نصره على زعيم الإيمان النيقى، وفى نفس الوقت حقق نصراً آخراً، ذلك أن ماركللوس Marcellus أسقف أنقرة قد كتب عدة كتابات ضد الآريوسية (١٥٩) رداً على رسالة كان أستريوس Asterius أحد مواطنى كبادوكيا قد كتبها يدافع عن العقيدة الآريوسية، وراح يذيعها فى عدة مدن وينشرها بين كثير من الأساقفة، ومن ثم أخذ ماركللوس على عاتقه مهمة

---

(157) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.

(158) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.

(159) HIER. Vir. Ill. 86.

دحض هذه الأقوال، فأدى ذلك به سواء بوعى أو بلا وعى إلى ترديد آراء بولس السميسطائى (١٦٠).

وقد عده اليوسيبيوسيون خصماً لهم، فاتهموه بأنه لم يوافق على القرارات التى أقرها مجمع أورشليم عام ٣٣٥ بخصوص قبول آريوس وصحبه ثانية فى الكنيسة، وأنه رفض حضور تدشين كنيسة أورشليم حتى لا يشترك والأساقفة فى اتخاذ قرارات هو عنها غير راض، ويذكر سوزومنوس أن الفريق اليوسيبيوسى ركز على هذه النقطة بالذات وأثارها لدى الإمبراطور مبيناً له أن ذلك يعد إهانة كبيرة لشخصه بعد أن رفض هذا الأسقف حضور حفل تدشين كنيسة أورشليم (١٦١)

ولعل هذا يؤكد ما نذهب إليه من أن المسألة كانت فى حقيقة أمرها تستتر برداء العقيدة، ولم تكن سوى نزاعاً شخصياً، ولذلك كان الفريق اليوسيبيوسى يصور المسألة للإمبراطور باعتبارها تمس شخصية مباشرة، وتمثل انتقاصاً لسيادته، مما يثير بالتالى غضبه. وعلى هذا النحو اجتمع الأساقفة هؤلاء فى القسطنطينية وأصدروا قرارهم بعزل ماركللوس من أسقفيته (١٦٢) .

أما ما كان من أمر آريوس فإنه عاد ثانية إلى الإسكندرية بعد أن أصدر مجمع أورشليم قراره بقبوله ورفاقه فى الكنيسة، إلا أن الأساقفة المصريين أنصار أثناسيوس رفضوا الامتثال لقرارات المجمع فأدى هذا بالتالى إلى حدوث الاضطرابات من جديد فى الإسكندرية (١٦٣)، ولما كان الإمبراطور غير راغب فى السماح بوقوع فوضى جديدة تعكر صفو سلامه فقد أرسل إلى آريوس يستدعيه فوراً إلى القسطنطينية . وكان أسقف المدينة فى هذا الوقت اسكندر الذى دخل فى صراع مع آريوس منذ وصوله إلى العاصمة كما ينبئنا بذلك سقراط (١٦٤) . ولعل

(160) SOZOM. hist. eccl. II, 33.
وراجع أيضا SOCRAT. hist. eccl. I, 36.
(161) SOZOM. hist. eccl. II, 33.
(162) SOCRAT. hist. eccl. I, 36.
(163) Ibid. 37.
(164) SOCRAT. hist. eccl. I, 37.

ذلك يرجع إلى ما يكون قد نمى إلى علم اسكندر من رغبة الفريق اليوسيبيوسى فى أن يقوم أسقف القسطنطينية بقبول آريوس فى الكنيسة حتى يكون ذلك نموذجاً تحتذى به بقية كنائس الإمبراطورية . وقد تأكد هذا فعلاً عندما طلب الإمبراطور إليه الإقدام على هذه الخطوة، وهدده يوسيبيوس بالسعى لدى الإمبراطور لعزله إذا ما رفض قبول آريوس (١٦٥).

على هذه الشاكلة انتقلت الفوضى من الإسكندرية إلى القسطنطينية، فانقسمت المدينة إلى فريقين، أحدهما يتمسك بقانون الإيمان النيقى، والآخر يناضل من أجل الآريوسية، وأدرك الإمبراطور خطورة الحال فدعا إليه إسكندر وآريوس وطلب إلى الأخير الاعتراف بقرارات مجمع نيقية والقسم على صحة إيمانه (١٦٦) ففعل، وقبل الإمبراطور منه صيغة إيمانه ودعا اسكندر إلى قبوله فى الكنيسة . ولكن هذا كان غير راغب فى ذلك تماماً، وتحرج موقفه أمام الإمبراطور الذى حدد يوماً يتم فيه ذلك على مرأى من الجميع، وتعقدت المشكلة ولكنها لم تلبث أن حلت فجأة بوفاة آريوس فى نفس اليوم من عام ٣٣٦ .وعد خصومه وفاته دليلاً على الغضب الإلهى، كما جرت بذلك أقلام مؤرخى الكنيسة جميعهم !! وإن كانت مسألة موته فجأة تنتظر رأى محكمة التاريخ (١٦٧) .

ولعلنا نتساءل الآن عن موقف الغرب الإمبراطورى طيلة هذه السنين، الحقيقة أنه أخلد إلى الهدوء بعد مجمع نيقية إذا استثنينا أحداث ولاية أفريقيا .وقنع بقانون الإيمان الذى قر عليه رأى الأساقفة هناك خاصة بعد أن تضمن هذا القانون نصوصاً كانت فيه سائدة أو على الأقل معروفة . وبدا أن المشكلة برمتها لم تكن تعنى الغرب فى قليل أو كثير . فوقف من الأحداث موقف المتفرج . وكان الإمبراطور قرير العين بهذا السلوك . فكفى من الغرب جزء تعصف به رياح الانقسام . ولكن الغرب والإمبراطور لم يقدرا أنه لم تمض على وفاة قسطنطين

---

(165) Id.

(166) Id.

(١٦٧) للوقوف على تفصيلات هذه القضية . راجع للمؤلف : مناقشات بيزنطية، الفصل المعنون "اغتيال آريوس" .

سنوات قلائل حتى يشمله ذلك الصراع، وكان لوجود أثناسيوس هناك منفياً أو من بعد هارباً أكبر الأثر فى ذلك . ولم يكن كلاهما يدرى ما خطته يد القدر من ويلات تنتظر ذلك الغرب الذى أقحمت عليه فى عهد خلفاء قسطنطين المشكلة الآريوسية، حتى يأتى زمان تنعكس فيه الآية، فترحل الآريوسية من الشرق مكرهة لتمكث فى الغرب قروناً للجرمان ديناً !!

وكان قد بقى لقسطنطين من عمره عام واحد قدر له فيه أن يشهد هدوءاً مشوباً بالقلق فى أمر العقيدة، وراح يجتر أحلاماً داعبته طيلة هذه السنوات عن الوحدة والسلام . لقد حقق الإمبراطور بقوته العسكرية وحدة الدولة، ولكن " مبعوث الرب " عجز عن أن يضمن للكنسية وحدتها فتركها أكثر انقساماً من البدء وأشد فرقة، وراح ليموت والألم يعتصر فؤاده على عمر أفناه فى رجاء تلاشى وأمل تبدد!!

كان قسطنطين على قدر كبير من الذكاء، أدرك من خلاله إلى أين يتجه تيار المسيحية وقدرها، فركب أمواج الحماسة لهذه العقيدة، وعرف كيف يفيد منها إلى أقصى درجة .

لقد شهد بعينى رأسه وهو بعد فى بلاط نيقوميديا رهينة، إصرار المسيحيين وعنادهم رغم الاضطهاد العنيف الذى تعرضوا له على عهد دقلديانوس وجاليريوس قيصره، وتأكد ذلك بصورة أكثر وضوحاً خلال الحملة العسكرية التى قادها دقلديانوس إلى مصر، وعلى طول الطريق عبر آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين، ولهذا أيقن بفطنته أن يداً رحيمة تمسح عن هذه القلة المستضعفة جراحاتها، وتخفف عنها ويلات آلامها يمكن أن تجعل منها أنصاراً مخلصين وجنداً أوفياء .

ولم يتردد فى الإقدام على هذه الخطوة بل سارع إليها على مهل واهتبل فرصتها فى روية، واستغل أخطاء، بل ربما حماقات خصومه ومنافسيه على العرش الإمبراطورى ماكسنتيوس وماكسيمينيوس دازا وليكينيوس ليسحب الأرض من تحت أقدامهم، لقد عادى هؤلاء جميعاً المسيحيين ونكلوا بهم إن عنفاً أو فى هوادة، وفى الوقت ذاته لم يقدموا للوثنية جديداً يمكن أن تنهض به، أو يبعثها من الرقاد .

كان قسطنطين حصيف الرأى، يفوق معاصريه من العلمانيين ورجال الدين فطنة وذكاء فاختار مستشاره للشئون الدينية من الغرب الإمبراطورى، هوسيوس أسقف قرطبة، وهو رجل ترضى عنه الأوساط الكنسية على قلتها فى الغرب آنذاك، وانتقى أيضاً مادحه ورئيس جهاز دعايته من النصف الشرقى، يوسيبيوس أسقف قيسارية فلسطين، صاحب الآراء اللاهوتية المعتدلة، والذى حاز ثقة كل الأطراف والفرق الدينية المتصارعة . ولم تكن الصلة بين الإمبراطور والأسقف القيسارى حديثة عهد عندما انفرد قسطنطين بحكم الإمبراطورية، ولكن يوسيبيوس القيسارى كما تشير المصادر المعاصرة تعرف إلى قسطنطين وهو فى طريقه إلى مصر فى حملة دقلديانوس . ولا شك أن اللقاء الذى تم بين الرجلين فى هذا الوقت المبكر، قد ترك أثره الكبير فى نفس كل منهما إزاء الآخر، وإن كان قد أفاد إمبراطور الغد كثيراً، فرسم للرجل فى مخيلته صورة تتفق وما يعتمل فى داخله من واسع الطموح.

لقد حرص قسطنطين طوال فترة حكمه التى امتدت ما يزيد على ربع قرن، أن لا يثير شكوك رعيته الوثنية، والتى تمثل جل إمبراطوريته، بل ظل فى نظر هؤلاء الرجل الذى وحد الإمبراطورية وأنقذها من ويلات الحروب الأهلية الطاحنة. حقيقة سمح للمسيحيين بممارسة طقوس عبادتهم، وأعاد إليهم أموالهم وأملاكهم المصادرة، وأباح لهم حرية إقامة كنائس جديدة وإصلاح ما تهدم من دور العبادة تحت وطأة الاضطهاد وأعاد المنفيين وأطلق سراح المسجونين، وحقيقة أيضاً أصدر أوامره بهدم عدد من المعابد فى كيليكيا وفينيقيا، ولكن قسطنطين مع ذلك كله لم يذهب كما فعل سلفه دقلديانوس فى سياسته تجاه المسيحية، فلم يصدر ضد الوثنية مرسوماً عاماً بالاضطهاد أو بهدم المعابد الوثنية فى كل أنحاء الإمبراطورية، أو بإحراق كتبهم المقدسة، أو بسوق كهنتهم إلى العذاب زمراً، أو بتعقب الجموع الوثنية وحرمانها من ممارسة الطقوس نحو أربابها . بل إن هذه المعابد التى تم هدمها، لم يكن ذلك بصفتها الوثنية ولكنها كانت قد أمست مباءة فجور بعد أن هجرتها الأرباب إذ تخلى عنها عبادها !!

وفى الوقت الذى اختار فيه قسطنطين الأحد المقدس عند المسيحيين وجعل

منه عيداً أسبوعياً، دعاه يوم الشمس ولم يدعه أبداً بيوم السيد وبينما جعل من لابرومة المسيح شعاراً له، استمرت العملة تصدر حتى سنة ٣٢٣ تحمل شعار الشمس التى لا تقهر، وقبل كل هذا وذاك فإن وثيقة التسامح التى قدمناها باسم رسالة نيقوميديا، لم تقدم امتيازاً خاصاً للمسيحيين، ولكنها حملت لرعايا الإمبراطورية كلها حرية العقيدة الدينية .

لقد أدرك الإمبراطور بثاقب نظره أن نجم الوثنية إلى أفول، وأنها تسير بخطوات، وإن كانت وئيدة، إلى النهاية المحتومة . فلم يحاول أن يبعث فيها الحياة، ولم يتعجل يوم آخرتها، ولكن سياسته إزاءها ونجاة المسيحية كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الإنسانية، ليس من الغريب أن يطلق عليها Moss فى كتابه The birth of the middle Ages الحد الفاصل بين عالمى العصور القديمة والوسطى.

وكان قسطنطين بارع الدعائية، أغرق الكنيسة فى هباته وخيراته، وأغدق عليها من فيض أنعمه، يبدى اهتمامه البالغ، بل وقلقه، من أجل الانشقاقات التى تحدث فى الكنيسة، ويدعو لعقد المجامع كى تفصل فى النزاع اللاهوتى، ويحمل الأساقفة على المركبات العامة ويحمل الخزانة نفقات حلهم وترحالهم، ويشترك فى مناقشتهم، ويرسل إلى ملك فارس يحثه على حسن معاملة رعاياه من المسيحيين . فغدا بذلك فى نظر الكنيسة راعيها وحاميها، والملجأ لها والملاذ . ولكن قسطنطين طوال رحلة الحكم التى سارها وفى علاقته بالكنيسة، لم ينس مطلقاً أنه إمبراطور رومانى وأنه صاحب السلطان المطلق فى الإمبراطورية، وأن النظرية السياسية الرومانية لا يمكن أن تقبل مطلقاً بقيام هيئة مستقلة داخل الدولة، أو بمعنى أكثر دقة، دولة داخل الدولة، ومن ثم ترأس قسطنطين المجامع الكنسية، وصدق على قراراتها،وتدخل فى تعيين الأساقفة وعزلهم، لقد أصبح الإمبراطور الآن رغم عدم اعتناقه المسيحية الأسقف الأعلى، بعد أن كان فى الوثنية الكاهن الأعظم . وإن ظل يحمل هذا اللقب الوثنى طيلة حياته، بل ولم يتخل عنه خلفاؤه المسيحيون حتى عهد الإمبراطور جراتيان Gratianus (٣٧٥-٣٨٣) .

وكان كل ما يشغل بال قسطنطين أن يظل سيداً مطلقاً لإمبراطورية موحدة،

قضى ثمانية عشر عاماً (٣٠٦-٣٢٤) فى سبيل جمع شتاتها . ولهذا فإن حدوث أى انقسام، فى هذه الجماعة الجديدة التى ولى أمرها رغم قلة عددها يمكن أن يؤدى بصورة ما إلى التأثير فى وحدة الإمبراطورية ولا تكاد رسالة أو خطبة صدرت عن قسطنطين تخلو من ترديد هذه النغمة، وانطلاقاً من ذلك فقد أراد أن يعالج بالحزم منذ البداية أول مشكلة للكنيسة طغت على السطح فى عهده، أعنى الدوناتية، ولهذا اتخذ جانب الكنيسة الكاثوليكية ولم يلق بالاً لجماعة الدوناتيين ولا حتى لسماع دعواهم، فلما فشلت هذه السياسة رأى أن يطبق النظرية السياسية بشكل آخر عن طريق إيجاد التوازن بين مختلف الأطراف، بحيث يصبح الإمبراطور الرومانى فى النهاية هو الحكم الفيصل بينها، ومن ثم نراه يؤيد العقيدة النيقية سنة ٣٢٥ فى المجمع المسكونى الأول، وبعد ثلاث سنوات فقط يعفو عن آريوس وصاحبيه، ويقبل منهم وثيقة إيمانهم دون الرجوع إلى الكنيسة . ولعل القرار الذى اتخذه المجمع النيقى إزاء المشكلة المليتية فى مصر، والذى جاء بوحى من الإمبراطور، يعد خير دليل على سياسة الحلول الوسطى التى لجأ إليها قسطنطين .

ولقد كان بلاط قسطنطين أنموذجا حياً لهذه السياسة، يجمع أضداد الخلائق وشتى الفكر، فهناك المستشارون العسكريون والمدنيون كلهم من الوثنيين، وإلى جوارهم مستشاره الخاص لشئون الكنيسة، هوسيوس أسقف قرطبة، النيقى المتحمس . وفى الناحية الأخرى يقف يوسيبيوس النيقوميدى الآريوسى العنيد، صاحب الحظوة لدى الإمبراطور بعد عودته من المنفى، وبين هؤلاء وأولئك صديقه الحميم يوسيبيوس القيسارى، رجل الفكر المعتدل . وقد استطاع قسطنطين أن يوحى إلى هؤلاء جميعاً أنه " مبعوث الرب " الذى عهد إليه بإدارة الإمبراطورية، وأن عليه أن يقود سفينها وسط الأنواء إلى شطآن النجاة . ولقد حاول قسطنطين الكثير ونجح فى أن يضع لخلفه أسس العلاقة بين الدولة والكنيسة .ولكن مشاكل الكنيسة وخلافاتها اللاهوتية كانت أشد تعقيداً مما توقع قسطنطين .

كان بلاط قسطنطين على هذه الصورة يجمع بين النار والجليد، وظلت النار

ناراً تحرق، والجليد جليداً، فلا النار أذابت الجليد، ولا هذا أطفأ تلك، فقد كان قسطنطين يعرف كيف يحافظ كل على خاصيته، حتى إذا ودع دنياه ولم يكن لخلفائه ذكاؤه وكياسته، بل ودهاؤه، أذابت النار الجليد فلم تخلف إلا الوحل الذى غرقت فيه الإمبراطورية حتى آذانها قرون عددا .

أولاً: المصادر الأصلية

ATHANASIVS :

Apologia Contra Arianos: Nicene IV 2, 100 - 147 (= P.G. XXV 248 - 409).

Ad episcopos Aegypti et Libyae: Nicene IV 2, 223 - 235 (=P.G. XXV 537 - 593).

Ad Serapionem de morte Arii: Nicene IV 2, 564 - 566 (=P.G. XXVI 855 - 889).

Chronicon Athanasianum (The festal letters and their index): Nicene IV 2, 500 - 553.

Depositio Arii: Nicene IV 2, 69 -71 (= P.G. XXV 1, 601 - 695).

Epistola de decretis Nicaenae Synodi Contra Arianos : Nicene IV2, 150-172(= P.G. XXV 1.415- 476).

Epistola de Synodis Arimini in Italia et Seleuciae in Isauria celebratis: Nicene IV 2, 451 - 480 (= P.G. XXVI 681 - 793).

Historia Arianorum ad monachos, Nicene IV 2, 270 - 302 (= P.G. XXV 696 - 796).

Orationes Contra Arianos: Nicene IV 2, 306 - 447 (= P.G.XXVI 12 - 525).

AVGVSTINVS:

De baptismo Contra Donatistas: Nicene IV 1, 407 - 514 (P.L. XLIII 107 - 422).

Contra Cresconium grammaticum Donatistam: P.L. XLIII 445 - 594.

EVSEBIVS:

Historia ecclesiastica: Nicene I 2, 73 - 387 (= P.G. XX 45 - 906).

Vita Constantini: Nicene I 2, 473 - 580 (= P.G. XX 905 - 1232).

GREGORIVS NAZIANZENVS:

In laudem magni Athanasii epicopi Alexandrini, oratio XXI: Nicene VII 2, 269 - 280 (= P.G. XXXV 1081 - 1128).

Adversus Arianos, oratio XXXIII: Nicene VII 2, 328 - 334 (= P.G. XXXVI 213 - 238).

HIERONIMVS:

De viris illustribus: Nicene III 2, 359 - 384 (= P.L. XXIII 2, 601 - 720).

LACTANTIVS:

De mortibus persecutuorum: Ante-Nicene VII 301 - 322 (= P.L. VII 2, 189 - 276).

Patrologiae cursus completus, series, graeca. ed. Migne. Paris 1845 et sqq.

Patrologiae cursus completus, Series Latina. Ed. Migne. Paris 1844 et sqq.

RVFINVS:

Historia ecclesiastica: P.L.XX1 467-538.

SOCRATES:

Historia ecclesiastica: Nicene II 2, 1 - 17 (= P.G. LXVII 29 - 842).

SOZOMENOS:

Historia ecclesiatica: Nicene II 2, 239 - 427 (= P.G. LXXVII 843 - 1630).

SVLPECIV S SEVERVS:

Historia Sacra: Nicene XI 2, 71 - 122 (= P.L. XX 95 - 160).

THEODOREIVS:

Historia ecclesiastica: Nicene III 2, 33 - 159 (= P.G. LXXXII 3, 881 - 1280).

ثانيا : المراجع الأوروبية الحديثة

Ante-Nicene Fathers. Ed. A. Roberts - J. Donaldson. Michigan 1892 et Sqq.

AULT (Q.W.) :

Europe in the Middle Ages. Boston 1946.

ATIYA (A.S.):

A history of Eastern Christianity. London 1968.

BACKHOUSE (E.):

Early church history to the death of Constantine. London 1884.

BARDENHEWER (O.):

Les P

1899.

BAYNES (N.H.):

Constantine (C.A.H. vol. XII).

BOAK (A.E.R.):

A history of Rome to 565 A.D. New York 1956.

BULLOUGH (S.):

Roman Catholicism, London 1963.

BURCKHARDT (J.):

The age of Constantine the great, transl. By Moses Hadas. U.S.A. 1949.

BURKITT (F.C.):

The Christian church in the East, (C.A.H. vol. XII).

BUTCHER (E.L.):

The story of the church of Egypt. 2 vols. London 1897.

Cambridge Ancient History, ed. By J.B. Bury, S.A Cook; F.E. Adcock. 12 vols. Cambridge 1936.

Cambridge Medieval History, planned by J.B. Bury, 8 vols. Cambridge 1936.

CANTOR (N.):

Medieval history, the life and death of civilisation. New York 1956.

CARY (M.):

A history of Rome down to the reign of Constantine. London 1954.

The Catholic Encyclopedia, 15 vols. New York 1913.

COCHRANE (C.N.):

Christianity and classical culture, a study of thought and action from Augstus to Augustine. Oxford 1940.

CREED (J.M.):

Egypt and the christian church (Legacy of Egypt). Oxford 1947.

DAVIS (R.H.C.):

A history of Medieval Europe from Constantine to St. Louis. London 1919.

Dictionnaire de théologie Catholique. 15 tomes. Paris 1932 et Sqq.

A Dictionary of Christian Biography. 4 vols. Ed. By William Smith and Henry wace. London 1877.

DIILL (S.):

Rome and Society in the last century of the Western empire. London 1919.

DOWNEY (G.):

A hisrory of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest. New Jersey 1961.

DUCHESNE (M.L.):

Histoire ancienne de l'glise. 3 tomes. Paris 1911.

DUDLEY (D.R.):

The civilization of Rome. New York 1962.

Encyclopaedia of religion and ethics. 12 vols. London 1925 et Sqq.

FLETCHER (W.):

Prolegomena (LACT. Mort. Pers.): Ante-Nincene Vll 3 - 7.

GIBBON (E.):

The decline and fall of the Roman empire, ed. By J.B. Bury in 7 vols. London 1929.

HARDY (E.R.):

Christian Egypt: Church and people, Christianity and nationalism in the Patriarchate of Alexandria. New York 1952.

HARTRANFT (C.D.):

Prolegomena (SOZOM. Hist. Eccl.): Nicene II 2, 181 - 234.

HEFELE (C.J.):

Histoire des conciles. 8 tomes. Paris 1907 et Sqq.

HUGHUS (PH.):

A history of the church, vol. 2, London 1948.

HULME (E.M.) :

The Middle Agaes. New York 1938.

JACKSON (B.):

Prolegmena (THEOD. Hist. Eccl.): Nicene III 2, 1-31.

JACKSON (F.):

The history of the christian church from the earliest times to the death of St. Leo the great A.D. 461.London 1909 .

JACKSON (S.M.):

The New Schaff-Herzog encyclopedia of religious knowledge. 13 vols. Michigan 1967 et Sqq.

JONES (A.H.M.):

Constantine and the conversion of Europe. London 1948.

The Later Homan Empire 284 - 602. 3 vols. Oxford 1964.

LATOURETTE (K.S.):

A history of the expansion of christianity. 7 vols. New York 1937 et Sqq.

A history of christianity. London 1955.

LEBRETON (J.) __ ZEILER (J.):

The history of the primitive church transl. In 2 vols. By Ernest C. Messenger. New York 1947.

LIETZMANN (H.):

From Constantine to Julian, a history of the early church. Transl. By Bertram Lee woolf. London 1960.

LOT (F.):

The end of the Ancient world and the beginnings of the Middle Ages. London 1953.

MCGIFFERT (A.C.):

Prolegomena (EVSEB. Hist eccl.): Nicene I2, 3-72.

MILNE (J.G.):

A history of Egypt under Roman rule. London 1924.

Nicene and Post-Nicene Fathers of the christian church, ed. By Philip Schaff and Henry Wace. Michigan 1891 et Sqq.

NOCK (A.D.):

The development of paganism in the Roman empire (C.A.H. Vol. XII).

OSTROGORSKY (G.):

History of the Byzantine state, transl. By Joan Hussy. New Jersey 1937.

PAINTER (S.):

A history of the Middle Ages 234-1500. New York 1954.

PALANQUE (J.) - BARDY (G.) - DE LABROILLE (P.):

Histoire de l'glise depuis les origines jusque nos jours. Tome III. Paris 1947.

PERCIVAL (H.R.):

The seven ecumenical councils: Nicene, vol. XIV. Michigan 1899.

RICHARDSON (E.C.):

Introduction (EVSEB. Vita Const.): Nincene I 2, 411-369.

ROBERTSON (A.):

Prolegomena (ATHANAS. Opera omnia): Nicene IV 2, 11-87.

ROSTOVTZEFF (M.):

A history of the Ancient world. Transl. By J.D. Duff. Oxford 1933.

SCHAFF (PH.):

History of the christian church. 8 vols. Michigan 1956 et Sqq.

STEPHENSON (C.):

Mediaeval history, Europe from the second to the siteenth century. New York 1962.

THOMPSON (J.) - JOHNSON (E.):

An introduction to Medieval Europe 300-1500. New York 1965.

VASILIEV (A.A.):

History of the Byzantine empire 324-1453. 2 vols. Madison and Milwaukee 1964.

WARE (T.):

The Orthodox church. England 1964.

ZENOS (A.C.):

Introduction (SOCRAT. Hist. Eccl.) : Nicene II 2, 7-17.

ثالثاً : الكتب العربية :

*** أسد رستم (دكتور) :**

- كنيسة أنطاكية، مدينة الله العظمى، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٥٨ .
- الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب، جزءان، بيروت ١٩٥٥.

*** ج.ج. كولتون :**

- عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف، القاهرة، ١٩٦٧ .

*** جلانفيل داونى :**

- أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة الدكتور ألبرت بطرس، بيروت ١٩٦٨م .

✳ جورج سباين :

❑ تطور الفكر السياسى، خمسة مجلدات، المجلد الثانى، ترجمة حسن جلال العروسى، القاهرة، ١٩٦٤ .

✳ عبد اللطيف أحمد على (دكتور) :

❑ مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، القاهرة، ١٩٦١.

✳ عثمان أمين (دكتور) :

❑ الفلسفة الرواقية، القاهرة ١٩٧١ .

✳ كريستوفر دوسن :

❑ تكوين أوروبا، ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة، والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٦٧ .

✳ مصطفى كمال عبد العليم (دكتور) :

❑ اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان، القاهرة، ١٩٦٨م .

✳ نورمان بينز :

❑ الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة، ١٩٥٧ .

✳ و.ج.دى بورج :

❑ تراث العالم القديم، ترجمة زكى سوس، القاهرة ١٩٦٥ .

✳ ول ديورنت :

❑ قصة الحضارة، المجلد الثالث، ترجمة محمد بدران، القاهرة، ١٩٦٤ .

✳ يوحنا موسهيم :

❑ تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة، ترجمة القس هنرى هس، بيروت ١٨٧٥.

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثالثة	٧
الفاتحة	٩

الفصل الأول

الإمبراطورية الرومانية والمسيحية حتى مطلع القرن الرابع ... ١٧-٦٠

- الآلهة الرومانية
- موقف الفئات المختلفة منها
- الفلسفة
- العبادات الشرقية
- المسيحية وفلسفتها
- موقف اليهود وجموع الرومان والأباطرة منها
- العبادة الإمبراطورية
- عزلة المسيحيين عن المجتمع
- الاضطهاد الوثنى للمسيحيين حتى منتصف القرن الثالث
- دقلديانوس والإصلاحات الإدارية
- الاضطهادات العامة ومراسيم دقلديانوس
- رأى لاكتانتيوس
- الدوافع الحقيقية لسياسة دقلديانوس
- دور جاليريوس
- رد الفعل المسيحى .

الفصل الثانى

الحروب الأهلية وسياسة المتصارعين إزاء المسيحية............٦١-١٠٠

- الحكومة الرباعية
- اعتزال دقلديانوس وماكسيميانوس
- اعتلاء جاليريوس وقسطنطين
- المناداة بقسطنطين إمبراطوراً .

□ ثورة روما وإعلان ماكسنتيوس إمبراطوراً
□ عودة ماكسيميانوس لارتداء العباءة الإمبراطورية
□ الحرب بين سفروس وماكسنتيوس
□ حملة جاليريوس الفاشلة على روما
□ النزاع بين ماكسيميانوس وولده ماكسنتيوس
□ تحالف ماكسيميانوس وقسطنطين
□ تعيين ليكينيوس إمبراطوراً
□ الأباطرة الستة
□ تآمر ماكسيميانوس على قسطنطين وإعدامه
□ وفاة جاليريوس
□ مرسوم التسامح سنة ٣١١
□ الصراع بين قسطنطين وماكنتيوس
□ الصخور الحمراء
□ مقتل ماكسنتيوس
□ انفراد قسطنطين بالغرب الإمبراطورى
□ اجتماع ميلانو بين قسطنطين وليكينيوس .
□ ماكسيمينوس إمبراطور الشرق وسياسته إزاء المسيحية
□ النزاع بينه وبين ليكينيوس
□ انفراد ليكينيوس بحكم النصف الشرقى .
□ الدور الثانى وهزيمة ليكينيوس
□ اعتزال دقلديانوس وماكسيميانوس
□ المناداة بقسطنطين إمبراطوراً
□ عودة ماكسيميانوس لارتداء العباءة الإمبراطورية
□ حملة جاليريوس الفاشلة على روما
□ تحالف ماكسيميانوس وقسطنطين
□ الأباطرة الستة
□ وفاة جاليريوس
□ الصراع بين قسطنطين وماكسنتيوس
□ مقتل ماكسنتيوس
□ انفراد قسطنطين بالغرب الإمبراطورى
□ استيلاء قسطنطين على كل الأقاليم الأوروبية عدا تراقيا

الفصل الثالث

قسطنطين والمسيحية .... ١٠١ - ١٤٠
□ رواية يوسيبيوس القيسارى عن تحول قسطنطين إلى المسيحية
□ مناقشة الرواية
□ رسائل قسطنطين إلى أنوللينوس نائبه فى قرطاجه

□ رسالته إلى كايكيليانوس الأسقف القرطاجى
□ هوسيوس القرطبى .
□ اجتماع ميلانو سنة ٣١٣ .
□ رسالة نيقوميديا
□ يوسيبيوس يتحدث عن فضل قسطنطين على المسيحية
□ رسالة قسطنطين إلى ملك فارس والهدف الأساسى من ورائها .
□ المشاركة فى بناء الكنائس .
□ هدم بعض المعابد الوثنية
□ مناقشة آراء المؤرخين حول مسيحية قسطنطين
□ إيمانه بإله الشمس
□ رسائله إلى الفرق الخارجية عن الكنيسة

الفصل الرابع

المسألة الدوناتية .... ١٤١ – ١٦٠
□ الاضطهاد الدقلديانى الجاليري وأثره على التنظيم الكنسى
□ النزاع بين منسوريوس أسقف افريقيا وسكوندوس أسقف نوميديا حـــول قبول المارقين
□ رأى القديس أوغسطين
□ المبادئ الدوناتية
□ كايكيليانوس وماجورينوس
□ كنيسة الطهار
□ رسالة قسطنطين إلى أنولليتوس وانحيازه إلى جانب الكاثوليكية
□ رسالة قسطنطين إلى ملتيادس أسقف رومـــا
□ مجمع روما سنة ٣١٣
□ رسالة الإمبراطور إلى أسقف سيراكوز
□ مجموع أرل سنة ٣١٤
□ اجتماع روما سنة ٣١٥
□ أول اضطهاد مسيحى
□ العفو عن الدوناتيين
□ موقف قسطنطيين منها وقرارات مجمع نيقية إزاءها .

الفصل الخامس

الأريوسية والمليتية .... ١٦١ - ٢١٠
□ مكانة الإسكندرية الفكرية

□ آريوس وتعليمه
□ رسالة يوسيبيوس النيقوميدى إلى باولينوس أسقف صور
□ الإيمان السكنــدرى
□ انتشار الآريوسية فى ولايات الشرق الرومانى
□ مجمعا الإسكندرية عامى ٣١٩ ، ٣٢١ .
□ مجمع بيثينيا سنة ٣٢٢ .
□ اتساع الهوة بين الآريوسيين والكنيسة الكاثوليكية .
□ رسالة قسطنطين إلى اسكندر وآريوس .
□ هوسيوس القرطبى فى الإسكندرية .
□ فشله فى مهمته
□ مجمع أنطاكية ٣٢٤
□ فكرة عقد مجمع عام .
□ الدعوة إلى عقد أول مجمع مسكونى فى نيقية سنة ٣٢٥ .
□ خطاب الإمبراطور فى المجمع .
□ الصراع بين أعضاء المجمع حول المسائل الشخصية .
□ تدخل الإمبراطور .
□ مناقشة قضية الإيمان .
□ رسالة يوسيبيوس القيسارى إلى أهل بيعته .
□ قانون البيعة القيسارية .
□ قانون الإيمان النيقى
□ مسألة الهوموسية
□ مولود غير مخلوق .
□ تدخل قسطنطين فى مسألة العقيدة .
□ إدانة الآريوسية ونفى زعمائها .
□ رسالة المجمع إلى الإسكندرية .
□ رسالة الإمبراطور إلى نيقوميديا
□ نعم الإمبراطور على الأساقفة
□ المشكلة الملبتية .
□ مبادئ القيصرية البابوية

الفصل السادس

إحياء الآريوسية وصحوة الملبتية .... ٢١١ – ٢٦٤
□ تجدد الاضطرابات فى مصر بعد وفاة مليتيوس أسقف أسيوط .
□ عودة يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس النيقى زعماء

الآريوسيـــــــة من المنفى .
□ رسائل قسطنطين إلى آريوس .
□ عودة آريوس ووثيقة إيمانه .
□ نفوذ يوسيبيوس النيقوميدى فى البلاط .
□ محاولة إعادة آريوس إلى الكنيسة .
□ رفض أثناسيوس أسقف الإسكندرية .
□ الشقاق الأنطاكى .
□ مجمع أنطاكية وعزل يوستاتيوس .
□ النزاع حول خليفة .
□ يوسيبيوس يرفض المنصب .
□ رسائل قسطنطين إلى أهالى أنطاكية ويوسيبيوس القيسارى وأعضاء المجمع الأنطاكى .
□ رسالة يوسيبيوس إلى الإمبراطور .
□ الفريق اليوسابى وازدياد نفوذه .
□ اتهام أثناسيوس بفرض ضريبة على المصريين .
□ أحداث مريوط .
□ قضية أرسينيوس .
□ خطة اليوسابيين .
□ مجمع قيسارية سنة ٣٣٣ .
□ مجمع صور سنة ٣٣٥ .
□ لجنة تقصى الحقائق .
□ إدانة أثناسيوس
□ رحيله إلى القسطنطينية .
□ مجمع أورشليم وقبول آريوس فى شركة الكنيسة .
□ مجمع القسطنطينية .
□ نفى أثناسيوس
□ قضية ماركللوس أسقف أنقرة .
□ انتصار اليوسابيين .
□ موت آريوس
□ موقف الغرب
□ خاتمة

المصادر والمراجع ٢٦٥

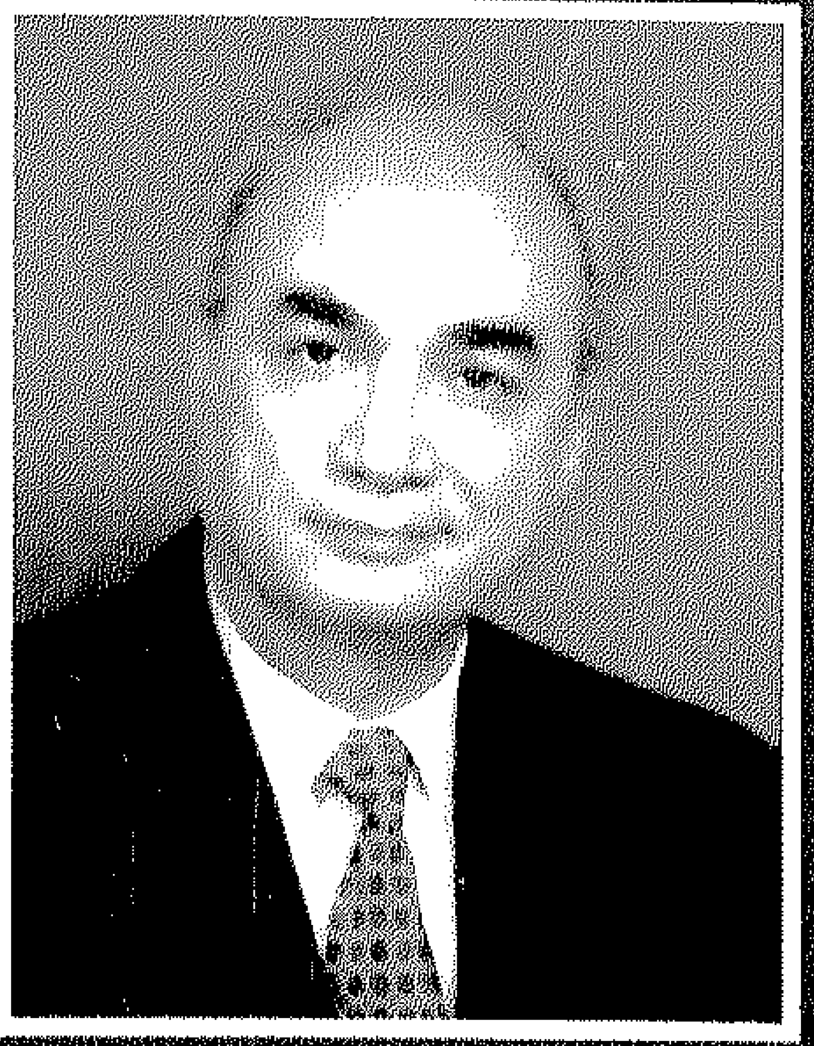

هذا الكتاب

لم يكن الفكر السياسى الرومانى يقبل مطلقاً بوجود دولة داخل الدولة، مهما كان شكل هذه الدولة "الداخلة" وماهيتها، حتى وإن غدت الإمبراطورية الرومانية مسيحية، والإمبراطور الرومانى هو "نائب المسيح" على الأرض، والكنيسة هى هذا الكيان الجديد.

ومع مجيء المسيحية لقى أتباعها العنت من اليهود الذين ينتظرون مسيحاً ملكاً يعيد لهم مملكة داود وسليمان، وليس مسيحاً يزين لهم ملكوت السماوات! ومن الرومان الذين رأوا فى أفكار المسيحية عن السلام والزهد مايقوض دعائم العسكرية الرومانية وسياستها الاقتصادية، ويهدد الحياة الاجتماعية، من هنا كانت المواجهة بين الوثنية والمسيحية منذ البداية، وجاء الإمبراطور قسطنطين ليمثل مرحلة الانتقال بين هذه وتلك بعد أن أوشكت المسيحية على الغرق فى القرن الرابع الميلادى، فبسط لها كفيه لتعلو بهما لا عليهما، وليصبح قارب النجاة الذى ألقت الكنيسة المسيحية بنفسها فيه دفعة واحدة بدلاً من أن يبتلعها اليم، ولما كان الإمبراطور هو الربان آنذاك، يمسك بيديه الدفة والمجداف، فقد غدا "السيد" بلا منازع، ورحبت الكنيسة بذلك مرغمة لا قانعة، ليبدأ بذلك فصل جديد فى العلاقة بين الدولة والكنيسة.

أحمد غريب

قرش جنيه
٢٠/٠